رجال لهم آثار

عبد الله الطنطاوي

دار الفاروق
عمّان - الأردن

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٩/١٢/٥٢٤٠)

٩٢٠.٧١ الطنطاوي، عبدالله

رجال لهم آثار / عبدالله الشيخ محمود الطنطاوي .-

عمان: دار الفاروق، ٢٠٠٩

(٣٥٨) ص.

ر. إ.: (٢٠٠٩/١٢/٥٢٤٠)

الواصفات: / التراجم/ / الاعلام العربي/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤلية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية اخرى.

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفاروق

للنشر والتوزيع

عمّان - العبدلي - عمارة جوهرة القدس - تلفاكس: ٤٦٤٠٠٦٤

E-mail: daralfarouq @ yahoo.com

رجال لهم آثار

عبدالله الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على مصطفاه، وعلى من اهتدى بهداه. وبعد:

فماذا يعني هذا العنوان؟

في كل يوم يموت آلاف مؤلفة من الناس، ويموت ذكر أكثرهم بعيد وفاتهم، لأنهم لم يخلفوا أثراً يذكره الناس من بعدهم، فمعاشهم كان كمماتهم.. ويبقى ذكر قلة قليلة من هؤلاء، من المتميزين الذين ماز الناس حياتهم، من حيوات الآخرين، وسبروا أغوارهم، فوجدوها مليئة بجلائل الأعمال.... فهذا ترك ذرية صالحة تذكر الناس بأبيهم الرجل الصالح، وبأعماله الطيبة، فيدعون له، ويترحمون عليه، كلما ذكره الذاكرون، أو ذكروا ذريته الصالحة.

وهذا عالم جليل، كان ينير عقول الناس وقلوبهم، ويأخذ بألبابهم، بمواعظه، وبالعلم الذي جعله كالشمس للدنيا، والعافية للبدن، على حد الوصف الرائع الذي وصف به الإمام أحمد، شيخه الإمام الشافعي، رضي الله عنهما وأرضاهما..

وذاك مجاهد في سبيل الله تعالى، نشأ على الجهاد، وحب الاستشهاد في سبيل الله، لنصرة دينه، وإعلاء شأن أمته، وتحرير أرضه من الغاصبين، والذياد عن حياص القيم التي تغلغلت في أعماقه، والمبادئ التي كانت توجهه وتتسامى به.. ومن هؤلاء المجاهدين من قاده جهاده المبرور، إلى الشهادة،

ليكون مع النبيين والشهداء والصديقين والصالحين.

هذه النماذج منارات يهتدي بها السارون في العتمات، بجهودهم الوضاء، وتضحياتهم بالنفس والنفيس.. هؤلاء الهداة سوف يقتدي بهم سائر الخيرين في هذه الحياة، ليشكلوا -مع الأيام- تيار الإنقاذ من هذه المهامه والمتاهات.. هؤلاء هم الذين عنيتهم، وانتقيتهم لهذا العنوان: رجال لهم آثار..

وقد يتساءل متسائل: وأين العظماء الآخرون؟

وأين العظيمات من شقائق الرجال؟

أم أن المرأة لا ترقى إلى أن يكون لها أثر تذكر به؟

والجواب: أن هذا الكتاب هو الجزء الأول، وسوف يلحق به جزءان -إن شاء الله تعالى-: أولهما: عن الرجال الذين لم يكونوا في هذا الجزء، وهم من العظماء، ومن بلدان العالم الإسلامي والوطن العربي، من الهند، وأندونيسيا، وجنوب إفريقيا، ومن السودان، ومن ليبيا، ومن بلاد الشام، ومصر، والعراق، وتركيا، وسواها من بلاد العروبة والإسلام.

وسوف يكون الجزء الثالث عن أخواتنا وأمهاتنا المسلمات العفيفات، اللواتي تركن بصماتهن على الواقع المعيش، وعلى حيوات الأقربين من النساء والرجال والولدان، وامتدت آثارهن إلى ما بعد رحيلهن.. وتأتي السيدتان المجاهدتان: زينب الغزالي، وأمينة قطب -رحمهما الله تعالى- في طليعتهن.. هذا ما سيكون بعون الله ومشيئته..

هذا وقد عني المؤلفون القدامى بالتراجم، فكتبوا موسوعات مهمة، نذكر منها: سير أعلام النبلاء، ووفيات الأعيان، وفوات الوفيات، ومقاتل الطالبيين، ومعجم الأدباء، وغيرها من الكتب القيمة.

وفي العصر الحديث برزت موسوعات وكتب مهمة في التراجم، منها:

الأعلام للزركلي، وحياة الصحابة للكاندهلوي، والنهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، للدكتور محمد رجب البيومي، ومعجم المؤلفين، وأعلام النساء لكحالة، وذيل الأعلام لأحمد العلاونة، وقادة الفتح الإسلامي للواء الركن محمود شيت خطاب، وأشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، لرفيق العظم، وكتب الأستاذ أنور الجندي، وعظماؤنا في التاريخ للدكتور مصطفى السباعي، ورجال حول الرسول، ونساء حول الرسول، للدكتور عبد الرحمن عميرة، وشخصيات إسلامية للدكتور محمد الزحيلي، ومعجم المؤلفين السوريين لعبد القادر عياش، وشخصيات استوقفتني للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وشخصيات لها تاريخ، للدكتور محمد عمارة، ورجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي، وغيرها وغيرها من الكتب القيمة، صغيرة وكبيرة، كتبها عدد من المؤلفين، منهم من تخصص بالتراجم، ومنهم غير المتخصص، كما رأينا قبل قليل.

من أسباب اهتمامي بالتراجم

كان والدي -رحمه الله تعالى- تاجراً، وشيخاً صوفياً، معمماً، ملتحياً، ملماً ببعض علوم الدين، وكان ذا خط جميل كجمال وجهه الأبيض المشرب بحمرة هادئة، وكنت معجباً بشكله، وبطوله السامق، وبكرمه، وشجاعته، ورجولته، وصدقه في سائر أحواله، وأمانته، وإخلاصه، وحسن تعامله مع زبائنه، وكان -بسلوكه قبل لسانه- يبث فينا كل القيم التي يعتز بها المسلم، وكان له أصدقاء يسمرون معه في بيته، وكلهم مثله في شمائلهم، الأمر الذي حببهم إلي منذ طفولتي المبكرة، وحبب إلي أمثالهم من المعلمين والأساتذة والمشايخ والعلماء الذين تعلمت منهم علوم اللغة العربية، وعلوم الدين، وكان لهؤلاء العظماء أبلغ الأثر والتأثير في نفسي الغضة، وأذكر منهم: الشيخ العلامة نايف العباس، والرجل الروحاني الشيخ عبد الكريم الرفاعي، والأديب اللغوي النحوي الفذ: الشيخ عبد الغني الدقر، والشيخ الدكتور

الأديب المفسر محمد أديب الصالح، وسواهم من مشايخ معهد العلوم الشرعية، التابع للجمعية الغراء بدمشق.

ثم تعرفت إلى رجلين عظيمين في دمشق، كان لهما عظيم الأثر في نفسي أنا الفتى عاشق العظماء، وهما: الدكتور الشيخ الخطيب الأديب الداعية الكبير القائد الفذ: مصطفى السباعي، والأستاذ الأديب الشاعر القانوني الكبير: أحمد مظهر العظمة، تغمدهما الله بفيض رحمته ورضوانه.

وكان ممن تأثرت بهم في فتوتي: الأستاذ الكبير الخطيب المصقع عصام العطار، والأستاذ المجاهد الشيخ زهير الشاويش، وتعلقت روحي بالرجال الكبار الذين كانوا يفدون إلى سورية، هرباً من الاستعمار، أو من الاستبداد، أو جاؤوا لحضور المؤتمرات، أذكر منهم: الإمام أبا الأعلى المودودي، والإمام أبا الحسن الندوي، والمجاهدين: سعد الدين الوليلي، وعبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان، وعز الدين إبراهيم، وعلال الفاسي، ومحي الدين القليبي، ونواب صفوي وغيرهم، وغيرهم من الرجال الأفذاذ الذين كانوا قدوة لنا، نحن الفتيان، في العلم، والفكر، والدعوة، والجهاد، والسلوك، والأدب، وعلو الهمة، والعمل الدؤوب لنصرة الإسلام وأمة الإسلام.

ثم تعرفت إلى العديد من الرجال الذين يجاهد كل واحد منهم في ميدانه، كالعالم الشهيد الخطيب المؤلف: إحسان إلهي ظهير، والعلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، والدعاة الكبار من أمثال اللواء الركن محمود شيت خطاب، وهو مؤلف ومفكر ذو نظرات استراتيجية عسكرية، والقاضي الممتاز الشيخ عبد الوهاب التنجي، والمحامي القدير عبد القادر السبسبي، والشاعر الكبير عمر بها الدين الأميري، والشيخ الداعية عبد الله علوان والدكتور حسن هويدي، والأستاذ عدنان سعد الدين، والأساتذة الكبار:

عباس السيسي، وعمر التلمساني، وأحمد الملط، وكمال السنانيري، ومحمد الغزالي، وعشرات من أمثالهم، والسيدة الفاضلة المجاهدة العظيمة

الأم زينب الغزالي. . وأكثر هؤلاء العظماء الكرام ممن رحلوا عن دنيانا، رحمهم الله رحمة واسعة، ومن بقي في هذه الدنيا من أساتذتي ومشايخي الذين تأثرت بهم قلة، مد الله في أزمانهم، فهم المشاعل في هذه الظلمات التي تغشي دنيا المسلمين.

وأكثر هؤلاء لم يكتب عنهم إلا لماماً، لأسباب معروفة، فالأعداء والخصوم يهملون الحديث عنهم عمداً، حسداً وكراهية من عند أنفسهم، والأصدقاء والإخوان والتلاميذ يصدفون عن الكتابة عنهم كسلاً، في أحسن أحوالهم، وبعض آخر حسداً وغيرة، وسوء تقدير لما ينبغي أن يكونوا عليه، وخاصة الكتابة عمن أفضى إلى ما قدم، ولن يزاحمهم على شهرة أو حطام، فحتى لا يطوى ذكرهم، وتتآكل أو تتحاتٌ آثارهم، قدمت جهد المقل إنصافاً لهم، وأدعو غيري إلى الكتابة عنهم.

كان اختياري لهؤلاء دون غيرهم لأسباب أراها وجيهة، منها تميزهم من أقرانهم في كثير من الأمور، ومنها إنصافهم بعد تعرضهم للتنقص أو الإهمال، وعدم الإنصاف، لأنهم قادة أحرار، ومفكرون مبدعون، ومجاهدون أصلاء. . ثم إنهم ممن رحلوا عن دنيانا، ولم أكتب عن الأحياء إلا قليلاً في غير هذا الكتاب. . بعد أن شاهدت تغير أحوال بعضهم، ممن كنا نحسن الظنَّ به، وانقلابه على عقبيه، ليكسب شيئاً تافهاً من الدنيا، ويخسر الآخرة التي كان يزعم أنه من أبنائها. . وكنت -قبلاً- أنعى على من يقتصر في الكتابة على الأموات دون الأحياء، وأصدرت كتاباً عن صديقي الحميم الشاعر الكبير محمد منلا غزيل -مد الله في زمانه، وملأه بما يحب الله ورسوله- انطلاقاً من هذه الفكرة، وكتبت عن سواه من الأحبة الأحياء، ولم يكن واحد منهم ممن اجتالته الشياطين، والحمد لله، ولكن غير هؤلاء ممن كنا نعدهم في الصالحين، صاروا إلى الزمر التي سوف . . .، والله أعلم، نسأل الله حسن الختام.

وتعمدت التنويع المكاني فيمن قدمتهم في هذا الجزء من الكتاب، من بلاد الشام، ومن أرض الكنانة، ومن المغرب العربي المسلم، ومن العراق ومن باكستان، وتركيا، وسوف أترجم في الجزء الثاني -بعون الله تعالى- لرجال من الهند، وجنوب إفريقيا وليبيا، وتونس، ومن بلاد الشام، ومصر، والعراق، وأندونيسيا، إن مد الله وبارك في العمر..

ولم أتوسع، بل اقتصرت على أبرز ما تميز الشخصية المترجمة من ذات الدلالة، مما يهم إنسان عصرنا من حياتها، فإن كل شخصية من هؤلاء، تستأهل كتاباً عنها، وربما أكثر من كتاب..

والصلاة والسلام على أعظم العظماء محمد رسول الله، وعلى آله الأطهار، وصحبه الميامين الأبرار.

❋ ❋ ❋

الإمام أبو الأعلى المودودي

تمهيد:

كان ابن عصره، عرف زمانه واستقامت طريقته، وتطور فكره، وواكب الحالة السياسية والاجتماعية السائدة، فما كان ينادي به في رحلته الباكستانية، غير ما نادى به وعارضه في رحلته الهندية، فإذا كان يرفض الديموقراطية الغربية في الهند لأنها تمكن الأغلبية الهندوسية من الأقلية المسلمة ويمكنها أن تقضي على عقيدة المسلمين من خلال القضاء على مناهجهم التربوية والتعليمية، بل وعلى وجودهم الإسلامي، بالقرارات التي تسنها الأغلبية ضد الأقلية.. فإنه في المرحلة الباكستانية يتخذ موقفاً معاكساً، ويرضى بالديمقراطية للتخلص من حكم الديكتاتورية العسكرية الحاكمة المستبدة التي ابتليت بها باكستان كما ابتليت بها سائر الأنظمة العربية والإسلامية التي استولى العساكر على مقاليد الأمور فيها عبر انقلابات، وعلى ظهور الدبابات.

لقد كان عبقرية فذة ونموذجاً متميزاً بين كثير من الدعاة، يحدث الناس باللغة التي يفهمون، ويقدم لهم الإسلام واضحاً ناصعاً نقياً، كما فهمه من خلال اطلاعه الواسع الشامل لسائر ألوان المعارف والعلوم الإسلامية، وبذكاء الدارس الحصيف لثقافات الغرب وحضارته، المقارن بينها وبين الإسلام الذي جاء ليبقى المتفوق على سائر الثقافات والحضارات عبر الدهور، وهذا ما يستنتجه الدارس لكتبه التي بلغت ما بلغت كثرة وعمقاً وشمولاً لشتى مناحي الفكر والتي جعلت منه مفكراً عالمياً، وأحد أبرز قادة الفكر والدعوة والإصلاح في العصر الحديث.

ويكفي أن نعلم أن للمودودي أكثر من مئة وأربعين كتاباً وأكثر من ألف

خطاب، ترجم منها الكثير إلى عدة لـغات، وكانت زاداً للمفكرين والدعاة من رجال الصـحوة الإسلامية ومـارست تأثيرها عليـهم حيث كانوا في هـذا العالم الفسيح.

هذا العبقري:

ولد أبـو الأعلى في مـدينـة (أورانك آباد) مـن ولاية (حيـدر آباد) الـركن الإسلامي في الهند، في بيت علم وفضـل ومجد ودين. . ينتسب إلى الدوحة الهاشمية الحسينية سماه أبوه باسم جده الأكبر: أبو الأعلى المودودي.

وأما جده لأمه فكـان السيد ميرزا قربان علـي بيك، وهو من أصل تركي، كان يمـتهن الجندية فـي الجيش، وهي المـهنة التي ورثها عـن آبائه وأجداده، وكان أديباً وشاعراً.

وكان أبوه (أحمد حسن) محامياً ناجحاً، ولكنه ما لبث أن ترك المحاماة، استجابة لنصح أحد الصالحين وتفرغ للعبادة، ثم عاد إلى المحاماة وعاهد ربه ونفسـه وشيخه ألا يـدافع إلا عن المظلومـين ولا يمسك إلا القـضايا السليـمة العادلة.

في هذه الأثـناء ولد أبو الأعـلى عام ١٩٠٣ وفـرح أبوه بمـولده، وتعـهده بالرعاية والتربية والتعليم حسب مبـادئ الإسلام وأخلاقه: علمه اللغة العربية، والقرآن الكريم، والحديـث الشريف والفقه، وحفظه موطأ الإمـام مالك غيباً، كما علمه اللغة الفارسية.

وكان الوالد يحكي لولده النجيب حكايـات الأنبياء والصالحين، ويذكر له ويفهمه تاريخ الإسلام والمسلمين، ويروي له الوقائع الكبيرة من تاريخ الهند، وكان يستخلص له منـها الدروس والعبر لتفتح ذهنه، فكان لتربيـة أبيه وتعليمه هذه العلوم العقليـة وتلك التربية الروحية، آثارها البعيـدة الغور في نفس الفتى الذي بدت علائـم نجابته منذ طفـولته الحافلـة بكل ما يقرب إلى اللـه تعالى، فقد كـان الوالد يصطحب طفـله ابن السنوات الأربع مـعه إلى المسجـد ليؤدي

الصلوات الخمس كل يوم، كما كان يصطحبه معه إلى مجالس زملائه وأصدقائه، وكلهم مثقفون متدينون وعلى خلق، فاكتسب الطفل ثم الفتى الكثير من العادات والأخلاق الفاضلة من مجالسهم الحافلة بالعلم وذكر الله.

دخل المدرسة، والتحق بتلاميذ الصف الثامن الإعدادي وهو في الحادية عشرة، ونال شهادة الثانوية العامة وهو في الرابعة عشرة، وهذا يدل على نباهته وذكائه بل إنه كان يكتب المقالات في الصحف، ويلقي الخطب وهو في هذه السن.

عاش أبوه فقيراً، وشاركته أسرته شظف العيش، وكذلك عاش أبو الأعلى حياة الفقر والعوز حتى إنه ما كان يجد ما يأكله، فيبيت على الطوى، ويمشي كل يوم عشرين ميلاً في الذهاب إلى المدرسة في البلدة المجاورة، صباحاً وفي العودة مساء وهو صابر محتسب، وقد ازداد صبره على الفقر بعد وفاة والده، وعمر أبي الأعلى لم يتجاوز الرابعة عشرة.

في الصحافة:

عمل المودودي في الصحافة في وقت مبكر، وكان ينتقل من صحيفة إلى أخرى، ويكتب لها افتتاحيات نارية، دفاعاً عن الخلافة الإسلامية الآيلة إلى السقوط، وصار رئيس تحرير مجلة (المسلم) التي تصدرها جمعية العلماء وهو ابن سبع عشرة (١٩٢٠- ١٩٢٣) وبكتابته هذه جمع بين السياسة والإعلام والانكباب على قضايا الإسلام والمسلمين، شارحاً ومنافحاً.

في هذه المرحلة من حياته، كان ينهل ويعب من معين العلوم العربية والشرعية، فدرس الحديث، والتفسير، والفقه، والأدب العربي، والبلاغة العربية، والمنطق، ثم تعلم اللغة الإنجليزية في أربعة أشهر، ثم درس الأدب الإنجليزي، والتاريخ، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية الغربية، وانطلق يقارن بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، فيرى البون شاسعاً بين الثقافتين من حيث الأصالة، والعمق والنزعة الإنسانية، وكلها لصالح الثقافة الإسلامية.

الكاتب والمؤلف:

بالإضافة إلى الكتابة في الصحف - أكب على التأليف فيما يهم المسلمين فألف - في سنٍّ مبكرة أيضاً - مجموعة من الكتب: (النشاطات التبشيرية في تركيا - مجازر اليونانيين في سمرنا - مصدر قوة المسلم - الجهاد في الإسلام، وهو في خمس مئة صفحة من القطع الكبير، طبع عام ١٩٢٨).

ونشر فيما بين ١٩٣٢-١٩٣٧ مجموعة مهمة أخرى من الكتب، نذكر منها: (نحن والحضارة الغربية - الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة - مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة - في محكمة العقل - الرسول والرسالة - التنقيحات - حقوق الزوجية - الإسلام وتحديد النسل - أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة - الحجاب) ثم تتالت كتبه القيمة: (نظرية الإسلام السياسية - نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية - موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه - منهاج الانقلاب الإسلامي - استفسار ذو بال - المصطلحات الأربعة في القرآن - الإسلام والجاهلية - منهج جديد للتربية والتعليم - معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام) إلى آخر ما هنالك من كتب تعالج ما طرأ ويطرأ على المسلمين من حوادث وكوارث وحالات تستدعي إيجاد الحلول لإشكالاتها ومشكلاتها.

فالمودودي الشاب أدرك مكائد الاستعمار وأذنابه الذين نادوا بالقومية الطورانية العلمانية، وما تلاها من نشوء الدعوة إلى القومية العربية، رداً على دعاة الطورانية، فكان القوميون العرب مع الإنكليز في حربهم على الأتراك، ومكنوا المستعمرين من السيطرة على البلاد العربية، ومنها الأماكن المقدسة في فلسطين الحبيبة، ودمر الطورانيون تركيا ومزقوا المسلمين، وأدرك المودودي مؤامرة الهندوس على الإسلام والمسلمين، وعلى رأسهم غاندي الذي اتهم الإسلام بأنه دين العنف والإرهاب وأنه فتح البلاد بحد السيف، وأرغم المغلوبين على اعتناقه.

وَرد أبو الأعلى على هؤلاء وأولئك.. رد على الدعاة إلى القومية العربية، وقال لهم: إن الإسلام والمسلمين ليسوا قومية بل هم أمة مسلمة ذات عقيدة ومبادئ وأخلاق، تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والدعوة إلى الإسلام في عهود السلف لم تقم على أيدي الدعاة المحترفين، لأن كل مسلم داعية يدعو إلى الإسلام بلسانه وفعله وسلوكه والدولة الإسلامية دولة هداية ودعوة بممارستها العدل والتزامها الأمانة والصدق وبعطفها على الفقراء والمساكين وبسلوكها النظيف في الحياة، وبتطبيقها أحكام الله تعالى من أجل نشر العدل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين الناس، ومن أجل إعلاء كلمة الله في الأرض.

رأى عصره يموج بالأفكار والتيارات الفلسفية والثقافية والسياسية، وعرف أن هذا العصر يفرض على الداعية أن يكون ابن زمانه، وأن يتزود بزاد علمي شامل لسائر مجالي الثقافة والفكر، فآلى على نفسه أن يكون ذلك الداعية المرجى في عصر الاضطرابات والتآمر على الإسلام والمسلمين الغارقين في ظلمات التخلف والجهل.

مجلة ترجمان القرآن:

تولى الشاب أبو الأعلى إدارة مجلة (ترجمان القرآن) وحده عام ١٩٣٣، وكانت انعطافة كبيرة في حياته، أخذت منه الكثير من الجهد والأوقات، فقد كان الوحيد في إدارتها وهو - كما قال الأستاذ خليل الحامدي - وحده كان يكتب افتتاحياتها وعدداً من مقالاتها، ومساجلاتها، ويرد على أسئلة المطابع لطبعها، يراجع البروفات، ويربط الطرود، ويلصق الطوابع على الطرود، ويحمل الطرود إلى البريد.. كان يسجل العناوين، ويراسل المشتركين، حتى نستطيع أن نزعم أن الدعوة في مرحلتها الأولى كانت المودودي وترجمان القرآن.

كان المودودي يصلي العشاء، ويجلس للمطالعة والكتابة إلى أن يصلي

الفجر في مسجد الحي، ثم ينام سويعات ليعود إليه النشاط. . يعود إلى عمله في المكتب، وكان المودودي - في تلك الأيام - يعاني من شدة الفقر، حتى إنه لينام دون أن يجد ما يأكله، وغالباً ما كان يعيش على العدس والماء.

وكان كل همه في هذه المجلة أن يفرغ فيها ما كان اختزنه من علم وفكر وثقافة تتناول سائر الشؤون الإسلامية مستقياً إياها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن الفقه الذي استوعبه.

عرض فيها المبادئ التي استقاها منها، ودعا الأمة الإسلامية إلى حياة جديدة كان يهتف بها: (أيها المسلمون اجعلوا قلوبكم وأذهانكم مسلمة خاضعة لله، تخلوا عن نظم الجاهلية، واسلكوا صراط الله المستقيم، وخذوا كتاب الله بقوة، لتكونوا سادة العالم، وأئمة الحضارات).

وكان يضع على غلاف المجلة:

غايتها: إعلاء كلمة الله، والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله. .

مُهمتها: نقد الأفكار الحديثة، ومبادئ الحضارة والمدنية السائدة، بمحاكمتها إلى القرآن.

كانت مقالات المودودي جديدة في مبناها، عميقة في مضموناتها، لفتت انتباه المفكرين والمهتمين بالإسلام إليها، فبادروا إلى إذاعتها بين المسلمين، وترجمتها إلى اللغات الأخرى، كالإنكليزية والفارسية والفرنسية، ناهيك عن اللغة العربية التي ترجم المترجمون أكثر مقالاته وكتبه إليها، وهكذا استمر الإمام المودودي في تحرير هذه المجلة الرائدة، إلى أن توفاه الله تعالى عام ١٩٧٩

انتقد فيها كل شكل من أشكال الجاهلية القديمة والحديثة، وانتقد دعاة الجمود والتقليد من أتباع المذاهب الفقهية، كما انتقد أدعياء الاجتهاد المطلق.

انتقد المنكرين لحجية السنة النبوية، كما انتقد المتساهلين فيها، وانتقد دعاة التحرر من الدين، كما انتقد الذين يجعلون الدين تبعاً لأهوائهم.

صرخ في المسلمين:

إن الإسلام لا يحتاج إلى أشخاص ضعاف، وإنما يحتاج إلى أبطال.

وقد التقى بالشاعر الإسلامي والفيلسوف الكبير: محمد إقبال، واتفق معه على:

١- بيان أوجه النظام الإسلامي بأسلوب علمي.

٢- إعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكرياً وعملياً.

ومات إقبال، وفقد المودودي بموته أكبر سند له في هذه الحياة، ومع ذلك لم يثن الموت الإمام عن متابعة الطريق الذي اتفق عليه مع إقبال، فانطلق يكتب للمثقفين، ويحاضر ويخطب فيهم ولهم، حتى استطاع تكوين جيل منهم قادر على تحمل أعباء الدعوة إلى الله، وكانت مجلة (ترجمان القرآن) اللسان الفصيح الذي يخاطب المفكرين والدعاة والمثقفين.

الجماعة الإسلامية:

في ٢٤/٨/١٩٤١ أسس المودودي (الجماعة الإسلامية) مع قلة من الدعاة والمفكرين والوجهاء، وأعلنوا أهداف الجماعة:

إقامة دين الله، وإقامة النظام الإسلامي، وكسب مرضاة الله، والحصول على النجاة في الآخرة (الله غايتنا)..

بدأت الجماعة بخمسة وسبعين عضواً، وسبعين روبية فقط.

ونشطت الجماعة وانتشرت في شبه القارة الهندية، وعندما انفصلت باكستان عن الهند توزعت الجماعة بين الباكستان والهند.

المرحلة الباكستانية:

على الرغم من أن المودودي أيد فكرة التقسيم وقيام باكستان، إلا أنه لم

يكن يثق بقيادة معسكر التقسيم، لأنها لم تتبن التقسيم على أساس الإسلام بل على أساس القومية المسلمة، وكان يقول: إن قادة التقسيم سيكونون أول من يحارب الإسلام في دولة باكستان المسلمة. وهكذا كان، فقد قامت باكستان في آب ١٩٤٧ على أشلاء ودماء ودمار، فقد قتل آلاف من المهاجرين إلى باكستان من الهند، وأصيب آلاف بجروح، وخطفت آلاف من الصغار في الطرقات ونهبت الأموال، وأحرقت البيوت، ودمرت المصانع والمحلات، ونهضت الجماعة الإسلامية بواجبها تجاه أولئك المهاجرين.. خرج رجالها إلى الحدود، وأقاموا المخيمات، وطبخوا وأطعموا اللاجئين المهاجرين، وداووا مرضاهم، ودفنوا موتاهم.. وكان المودودي في طليعة أولئك الرجال.

وهكذا كان دأب الإمام أن يقرن القول بالعمل، حتى لا تكون هناك هوة بين النظرية والتطبيق.

ولهذا ركز على ثلاثة أمور في بناء رجاله:

١- أن يكونوا أقوياء في العقيدة، موثوقين في السلوك، يلتزمون الفرائض، ويجتنبون الكبائر، ويحلون ما أحل الله، ويحرمون ما حرم الله.

٢- أن يكون نظام الجماعة والدعوة قوياً محكماً، ولو أدى ذلك إلى أن ينفضّ عنها أعز عزيز.

٣- أن تشمل الجماعة العناصر المثقفة ثقافة إسلامية شرعية، والعناصر المثقفة ثقافة عصرية، ويعملون معاً من أجل إقامة النظام الإسلامي الشامل.

ذكرى ودرس:

عندما زار الإمام المودودي دمشق عام ١٩٥٥ زرته مع بعض إخواني الطلبة، وقدمنا له أنفسنا بأننا من الإخوان المسلمين، فابتسم الإمام وسألنا:

- هل تعرفون معنى أنكم من الإخوان المسلمين؟

أجبته بحماسة الشباب: نعم نعرف. . عندما نكبر، سوف نذهب إلى بلاد الهندوس، وإلى مجاهل إفريقيا، لننشر الإسلام وندعو إلى الله.

وعندما انتهيت من خطبتي التي لخصتها بالكلمات السابقة، قال لنا:

- معنى أنكم من الإخوان المسلمين: أنكم لن تفكروا بمستقبلكم المادي.

وعندما زار مركز الإخوان في حلب عام ١٩٥٦ ركز على هذه المعاني، وطالب أبناء الجماعة أن يأخذوا أنفسهم بالعزائم، ويتركوا الرخص للعامة، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

كما تحدث عن مأساة المسلمين في باكستان، بعد كل التضحيات الجسيمة التي بذلوها من أجل الإسلام، ثم صار الإسلاميون غرباء فيها، ومع ذلك فسوف تبقى الجماعة الإسلامية مصرة على أسلمة باكستان، دستوراً، وقوانين، وتربية وتعليماً ومنهج حياة، وتحدث عن المذكرات المتتالية التي قدمتها الجماعة، ولقيت من أجلها الألاقي ثم قال:

(وهكذا ينبغي أن تكونوا أيها الإخوان، فلا تملوا من الكفاح من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء).

مقومات الدولة:

كان الإمام المودودي - الذي انتقل من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة في المرحلة الباكستانية - يرى أن الدولة المسلمة تنهض على أسس لا بد منها، وقد تمحور فكره بهذا حول:

١- الحاكمية التي تعني أن الله تعالى هو الحاكم المطلق لهذا الكون وهو المشرع الأوحد الذي لا يشاركه فيه مخلوق.

٢- القومية الإسلامية التي تقدم رابطة العقيدة على رابطة الجنس.

٣- الديموقراطية الإسلامية وتعني التعبير والتجمع ضمن عقيدة الإسلام

وقيمه بعيداً عن العنف والنزعات الانقلابية.

ومن هنا كانت الوسائل التي اعتمدها المودودي في الإصلاح هادئة، وعلنية، وسلمية، ومع ذلك، لم يسلم من عدوان الحكام الطواغيت عليه، فقد اعتقلوه أربع مرات، وحكموا عليه بالإعدام مرة، وأمضى في الاعتقال سنوات، وهو صابر محتسب، يرفض أن يقدم استرحاماً باسمه أو باسم أهله أو محبيه.

مواقف لن تنسى:

اللواء خطاب يتذكر:

حدثني اللواء الركن محمود شيت خطاب - رحمه الله رحمة واسعة - قال:

- ذهبت بصحبة الرئيس عبد السلام عارف - رحمه الله - إلى باكستان عام ١٩٦٤م وقلت للرئيس الباكستاني أيوب خان: أريد زيارة الأستاذ المودودي في السجن. فسمح لي، وزرته في سجنه، ونقلت إليه تحيات الرئيس عبد السلام عارف، وأن الرئيس عارف يريد أن يتوسط للإفراج عنك فما رأيك؟

فسألني الإمام المودودي:

- هل طلبتم من أيوب خان ذلك؟

قلت: لا.. حتى أعرف رأيك.

فانفرجت أساريره وقال:

- الحمد لله.. لو طلبتم من أيوب خان ذلك لأحرجتموني، ولرفضت وساطتكم، فنحن أصحاب الحق وهم الطغاة.

القاديانية:

ابتلي المسلمون في الهند، منذ بداية القرن العشرين - بالحركة القاديانية

العميلة الكافرة، فقد كانت مؤامرة خسيسة على الإسلام والمسلمين، تولى كيدها الإنجليز وتولّى كبرها العلمانيون المنافقون، فتصدى لها المودودي، وناضل ضدها بلسانه وقلمه وحركته، فقد حاضر حولها، وكتب المقالات المسهبة في فضحها. . وكان لتصريحاته وكتاباته عنها آثارها البينة في نفوس المسلمين في الهند وباكستان، بل وفي سائر أنحاء المعمورة.

مع أيوب خان:

قال له الديكتاتور أيوب خان:

- أيها الشيخ الفاضل، أقترح عليك أن تتفرغ للدعوة والتبليغ، ولا تتورط في أوحال السياسية.

فأجابه المودودي بشموخ الإمام:

- كما تفضلت، يا سيادة الرئيس، إن السياسة أصبحت أوحالاً، فدخلتُها لأطهرها من الأوساخ، وأجعلها نظيفة سديدة، لا تدنس الأذيال، بل تعود رحمة على الوطن وأهله.

في عام ١٩٥٥م زار بيروت:

وجهت له الجامعة الأمريكية في بيروت دعوة لإلقاء محاضرة حول الاقتصاد الماركسي، ولبى المودودي دعوة رئيس الجامعة، وغصت القاعة بالكبراء والوزراء والمثقفين، وقدم رئيس الجامعة الإمام المودودي تقديماً يليق به، ووقف المودودي ليحاضر الناس، وقال:

- سوف أجري مقارنة مركزة بين النظرية الماركسية في الاقتصاد، والنظرية الاقتصادية في الإسلام، وسوف ترون أن نظرية الإسلام في الاقتصاد تتفوق على النظرية الماركسية.

وعندما وصل المودودي إلى هذه الكلمة، أطفئت الأضواء في القاعة، ووقف رئيس الجامعة يعتذر للأستاذ المودودي وللحاضرين على هذا الخلل

الفني بانقطاع التيار الكهربائي، وطلب منهم الانصراف بهدوء، وقاد الأستاذ أبا الأعلى إلى غرفته، وقد عادت الأضواء وملأت القاعة والكلية كلها، ثم قال للمودودي:

- معذرة يا أستاذ، نحن دعوناك لتحاضر عن النظرية الماركسية في الاقتصاد، وفشلها، ولم ندعك لتبين لنا تفوق النظرية الإسلامية على النظرية الشيوعية.. نحن نفضل النظرية الشيوعية على النظرية الإسلامية، لأن الماركسية نتاج الحضارة الغربية، وقد تلتقي الرأسمالية بالماركسية، ولكنها لن تلتقي بالإسلام.

قال المودودي:

- الحمد لله الذي جعلك تنطق بما كنت أفكر به، ولن أنسى لك هذا الفضل.

توقيعات بعدة كيلو مترات:

على الرغم من الاتهامات المفتراة على الإمام المودودي، كاتهامه بالقاديانية، وبالعمالة للهند وأمريكا، وأنه لم يتخرج في معهد ديني حتى يدعو الناس إلى الإسلام، ويفتي المسلمين بما يجوز وما لا يجوز في شؤون الحكم، وأنه يتستر بالدين لمآرب شخصية تصل به إلى الحكم، وأنه يجعل الحديث النبوي مصدراً ثانياً للتشريع، مع أن الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ إما موضوعة أو ضعيفة..

على الرغم من هذه الاتهامات الباطلة، وحملات التشهير الظالمة الفاجرة فإنه تجاوزها، ولم تشغله عن الدستور والدولة الباكستانية التي ما قامت إلا من أجل الإسلام.. فطاف المدن وأقام الاحتفالات، وحاضر في الناس وطالبهم بالتوقيع على الدستور الإسلامي الذي وضعه لباكستان، فسارع المسلمون للتوقيع، فبلغت توقيعاتهم عدة كيلو مترات وقدمت إلى الجمعية التأسيسية، علاوة على آلاف مؤلفة من البرقيات والرسائل.. فاضطرت

الجمعية التأسيسية إلى إعلان دستور أيده المودودي، مع بعض التحفظات عليه.

تنازله عن إمارة الجماعة الإسلامية:

وهذا أمر نادر، لم نره، في حياتنا إلا مرة واحدة عندما تنازل الرئيس السوداني عبد الرحمن سوار الذهب عن سدة الرئاسة، ولم نره فيما تُسمَّى الأنظمة العربية وما تسمى الإسلامية، وقد تنازل لنائبه عن إمارة الجماعة في ٢٤/ ٥/ ١٩٦٨واستمر الإمام المودودي يعمل بدأب يحرر مجلته (ترجمان القرآن) ويكتب، ويؤلف، ويحاضر، ويدعو الناس إلى الإسلام، وينافح عن المسلمين، وينتصر لقضاياهم في فلسطين والهند وباكستان وكشمير وسواها، إلى أن وافاه الأجل المحتوم، فترجل الفارس في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩٧٩ بعد حياة حافلة بألوان الجهاد في سبيل الله تعالى تغمده الله بفيض رحمته ورضوانه.

المصادر والمراجع

بعض كتب الإمام المودودي.

أعلام القرن الرابع عشر الهجري - المجلد الأول - أنور الجندي.

شخصيات لها تاريخ - د. محمد عمارة.

الإمام أبو الأعلى المودودي - تأليف خليل أحمد الحامدي.

أبو الأعلى المودودي - أحمد إدريس

الإمام أبو الأعلى المودودي- مكتبة النذير للأشبال

❋ ❋ ❋

شهيد الفجر
الشيخ أحمد ياسين

تمهيد:

في هذا اليوم (٢٢/٣/ ٢٠٠٤) الذي استشهد فيه شيخ المجاهدين في هذا العصر: أحمد ياسين، مات الآلاف من الناس في الصين والهند وأمريكا وما بينها، فلم يفطن لموتهم، ولم يبك عليهم، إلا ذووهم، وهؤلاء لن يلبثوا أن يطويهم النسيان.

أما موت أحمد ياسين، فقد زلزل الناس، واهتزّ له البيت البيضاوي الذي جلّله سدنته بالسواد، كما اهتزت عروش ونفوس، ولم يفرح لموته حتى قاتلوه، فالرعب من استشهاده قتل الفرحة في قلوبهم الصدئة، وأما الذين بكوه، فلا يحصيهم عدّ، بكوه بصدق وإخلاص وحبّ، ولعنوا كل من أسهم في قتله بكلمة، أو قرار، أو تخطيط، أو وشاية من جاسوس لا يساوي شسع نعل أيّ مجاهد أو شهيد.

حياته:

ولد أحمد ياسين في قرية جورة عسقلان، قضاء المجدل، جنوبي قطاع غزة في شهر حزيران عام ١٩٣٦ عام الثورة الفلسطينية الكبرى التي قادها إخوان الشيخ القائد الشهيد عز الدين القسام وتلاميذه.

توفي والده وعمره خمس سنين، وذاق الطفل بموت أبيه مرارة اليتم، وخشونة العيش.

التحق الفتى بمدرسة القرية حتى الصف الخامس الابتدائي، ثم كانت

النكبة الكبرى عام ١٩٤٨ وكان القتل، والطرد، والتشريد لأصحاب الأرض، وكان اليهود لا يوفّرون صغيراً ولا كبيراً من اضطهادهم الذي لا مثيل له بين بني البشر، واضطرت أسرة الفتى إلى الهجرة واللجوء إلى غزة، لتعيش في أحد مخيماتها عيشة لا يقوى على احتمالها بشر، إلا هؤلاء الفلسطينيون الذين ذاقوا ألوان الفقر والجوع والمرض، والحرمان من سائر مقومات الحياة، فكان الفتى أحمد يذهب إلى معسكرات الجيش المصري مع بعض الفتيان والفتيات ليأخذوا فضلات طعام الجنود، ويعودوا بها إلى أهلهم الفقراء الجياع، وقد اضطر الفتى لترك التعليم عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ليعين أسرته المكونة من سبعة أفراد، فقد كان يعمل في مطعم فوّال، ويعول أسرته.

شلله:

في عام ١٩٥٢ وفيما كان الفتى أحمد، ابن السادسة عشرة، يدرّب بعض الفتيان على السباحة في (بحر غزة) أصيب بكسر في فقرات عنقه، وبعد أن وُضع عنقه داخل جبيرة من الجبس مدة ٤٥ يوماً، تبيّن أنه سيعيش طوال حياته مشلولاً، ولا رجاء في شفائه.

أمراض:

وصبر الفتى على ما أصابه من شلل، ثم ما أصابه من أمراض تتالت عليه واجتاحت جسمه العليل، مثل فقدان البصر في عينه اليمنى، إثر ضربة لئيمة من محقق يهودي جلاد في المخابرات الإسرائيلية أثناء اعتقاله، إلى جانب ضعف بصر عينه اليسرى أيضاً، والتهاب مزمن في الأذن الوسطى، وحساسية في الرئتين، إلى جانب أمراض أخرى، كالالتهابات المعوية وسواها.

عمله:

بعد أن أنهى أحمد ياسين دراسته الثانوية عام ١٩٥٧-١٩٥٨عمل معلماً لمادتي اللغة العربية والتربية الإسلامية، رغم الاعتراض عليه من الحاكم المصري لغزة آنذاك، وكان معظم دخله من التعليم يذهب لمساعدة أهله

الفقراء.

ووجد المعلم ضالته في التعليم الذي أحبّه، لأنه هيّأ له الجوّ المناسب لبث آرائه وأفكاره لطلابه الذين سيكونون أعمدة العمل الدعوي والجهادي في المستقبل.

ولم يكتف المعلم أحمد ياسين بتعليم الطلاب، بل انتقل إلى المسجد مدرساً وخطيباً، وحقّق في المساجد نجاحاً كالنجاح الذي حققه في المدرسة، وربما زاد عليه، فقد غدا أشهر خطباء غزة، بما أوتي من فصاحة وبلاغة، وقوة حجة، وشجاعة في قول الحق، من دون أن يخشى في الله لومة لائم.

كما عمل الشيخ أحمد رئيساً للمجمّع الإسلامي في غزة.

مع الإخوان المسلمين:

سمع الشيخ الشاب أحمد ياسين بدعوة الإخوان المسلمين، وقرأ رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رحمه الله رحمة واسعة، وتأثر بأفكاره وأفكار من تلاه من مفكري الجماعة وكتّابها وأدبائها ودعاتها، وعرف الكثير عن جهاد رجالها في فلسطين، وفي مصر وسورية والأردن وسواها من الأقطار، أثناء دراسته في الأزهر بالقاهرة التي شهدت مولد جماعة الإخوان المسلمين في مارس ١٩٢٨، فانتمى إليها، وصار من أنشط دعاتها الشباب في قطاع غزة، كان ذلك في بداية الستينيات، والشيخ شاب في بداية العقد الثالث من عمره، في وقت كان التدين غريباً على المجتمع الفلسطيني، وكانت المساجد مهجورة من الشباب، ولا يؤمّها إلا الكهول والشيوخ كبار السن، وكان هذا نتيجة للفكر القومي العلماني الذي ساد تلك الحقبة من الزمان، والذي قاده وبشّر به دعاة القومية العربية، والأحزاب الاشتراكية والشيوعية، ونتيجة للمدّ الناصري المعادي للإسلام ودعاته، وجاءت حركة فتح لتكون ثالثة الأثافي في العلمانية المناهضة للفكر الديني.

في هذه الجِواء المحمومة المعادية للإسلام ودعاته، برز الشيخ الشاب

أحمد ياسين ليسبح عكس التيار، وليبدأ من المدرسة والمسجد والنادي معاً، يدعو الشباب الفلسطيني إلى الإسلام، ويحبّب إليهم الإيمان، ويغرس في عقولهم وقلوبهم قيم هذا الدين، ويعلمهم أمور دينهم، وينأى بهم عن العمل المسلح الذي كانت تنادي به سائر الفصائل الفلسطينية، وواجه الشيخ الشاب ألواناً من الاتهامات بالعمالة والرجعية والخيانة، والشاب ماضٍ في طريقه الذي رسمه لنفسه ولمن معه من الشباب، يعدّهم إيمانياً، ويرفع معنوياتهم، حتى إذا ما رأى فيهم القاعدة الصلبة التي يمكنه الاعتماد عليها، بادر إلى تنظيمهم سراً، وأبدى موهبة فذة في الإعداد والتنظيم الذي كان عام ١٩٨٢ ولكن هذا التنظيم الذي كانت ترصده عيون العملاء والخصوم معاً، ما لبث أن انكشف.

الشيخ القائد في المعتقل:

واعتقل الشيخ القائد عام ١٩٨٣ ومعه ثلة من إخوانه الأولين، وحكمت المحاكم اليهودية عليه بالسجن ثلاثة عشر عاماً، بتهمة تشكيله تنظيماً عسكرياً يحرض على مقاومة الاحتلال، وتحرير الأرض من اليهود المستعمرين، وبتهمة حيازة أسلحة وتدريب الشباب على استعمالها.

أمضى الشيخ في الاعتقال أحد عشر شهراً، ثم أفرج عنه عام ١٩٨٥ في إطار عملية تبادل للأسرى بين سلطات الاحتلال من جهة، وبين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، من جهة أخرى.

وانطلق الشيخ يعمل في هدوء، وسريّة شديدة، ولم يفوّت لحظة من وقته في غير فائدة، حتى إذا ما انطلقت الانتفاضة الأولى، انتفاضة المساجد، بادر الشيخ إلى الإعلان عن تنظيم جديد أطلق عليه اسم: حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وكانت عيون الجواسيس والعملاء والموساد والشين بيت ترصده، وفي أواخر شهر آب ١٩٨٨ دهمت قوات الاحتلال الصهيوني منزله، وفتّشته بدقة، وهددت الشيخ المقعد بدفعه في كرسيه المتحرك عبر الحدود،

ونفيه إلى لبنان.

وفي ليلة ١٨/ ٥/ ١٩٨١ قامت سلطات الاحتلال باعتقال الشيخ مع المئات من أعضاء حركة حماس، في محاولة منها لوقف المقاومة المسلحة التي كانت تستعمل السلاح الأبيض في هجماتها على جنود الاحتلال، وقطعان المستوطنين، واغتيال العملاء والجواسيس.

وفي المعتقل تعرّض الشيخ لألوان العذاب أثناء التحقيق، لانتزاع بعض الاعترافات، وصبر الشيخ ومن معه وصمدوا في وجه العدو الصهيوني اللئيم.

وفي ١٦/ ١٠/ ١٩٩٦ أصدرت إحدى المحاكم الصهيونية حكمها الجائر على الشيخ، بسجنه مدى الحياة، وإضافة ١٥ سنة أخرى، وجاء في لائحة الاتهام: أن هذا الحكم كان بسبب التحريض على اختطاف وقتل الجنود الصهاينة، وبسبب تأسيسه حركة حماس، وجهازيها: العسكري (كتائب عز الدين القسّام) والأمني.

خطفت مجموعة من كتائب القسام جندياً إسرائيلياً يوم ١٣/ ١٢/ ١٩٩٢ وعرضت على المحتلين الصهاينة مبادلته بالشيخ الأسير، فرفض الصهاينة هذا العرض، وشنّوا هجوماً على مكان احتجاز الجندي، مما أدّى إلى قتله ومقتل قائد الوحدة العسكرية المهاجمة، واستشهاد قائد مجموعة القسام التي تحتجز الجندي.

الإفراج:

في أواخر أيلول ١٩٩٧ حاولت مجموعة من الموساد اغتيال الأستاذ خالد مشعل - رئيس المكتب السياسي لحماس، في عمان، وفشلت المحاولة، واعتقلت السلطات الأردنية اثنين من منفذي العملية الفاشلة.

وفي الأول من تشرين الأول ١٩٩٧ جرت عملية مبادلة بين الأردن وإسرائيل، فأفرجت إسرائيل عن الشيخ، مقابل تسليمها عميلي الموساد.

محاولة اغتياله:

في ٦/٩/٢٠٠٣ حاولت قوات الاحتلال الإسرائيلي اغتيال الشيخ بوساطة مروحيات الأباتشي التي أطلقت صواريخها على شقة كان فيها الشيخ مع تلميذه وأخيه ومرافقه الشيخ إسماعيل هنية، وأصيب الشيخ بجروح طفيفة في ذراعه الأيمن، ونجا من الموت.

أبرز صفاته وآرائه:

كانت عناية الله عزّ وجلّ ترعى الشيخ فكان المسدَّد الملهم في أفكاره، وتخطيطه، وفي إجاباته على أسئلة دقيقة ومحرجة كان يوجهها إليه بعض الصحفيين، عن طيب قلب حيناً، وعن مكر حيناً آخر.

وكان إيمان الشيخ بربه، وثقته بإسلامه، وعدالة مبادئه وشريعته بلا حدود.

وكان الشيخ عابداً لله منذ نعومة أظفاره، وكان مفهوم العبادة عنده مفهوماً سليماً، واسعاً، فكل عمل تنوي به رضا الله وطاعته، هو عبادة كسائر العبادات.

وكان الشيخ شجاعاً، كريماً، دؤوباً على العمل، جلداً في الصبر عليه وعلى الشدائد، كما هو صابر على الصيام والقيام والأوراد والأذكار.

وكان الإيثار، والتضحية، والبذل والشهامة من أجلى صفاته وأروعها، لم يبخل يوماً بمال أو براحة أو بوقت، يبذل كل ذلك بحبّ وإقبال وإخلاص.

وكان حبّه لدعوته وأبناء الدعوة لا حدود لها أيضاً، يفتديها ويفتديهم بالغالي والنفيس، بل بأغلى ما يملك: بهذه الدماء الطاهرة، ليسلموا هم من الأذى.

وكان الشيخ ابن زمانه، عركه وعرف ما فيه، واكتسب منه خبرات وتجارب ما ضنَّ بها على دعوته.

وكان يكره الظلم، ويرى في استبداد الحكام، واستعمار الشعوب، واعتقال الحريات، أقسى أنواع الظلم.

وكان يرى أن على الفلسطينيين أن يعتمدوا -بعد الله العظيم- على أنفسهم في جهادهم لتحرير أرضهم، فيتدبروا أمور السلاح والتدريب، والتمويل، وألا يعتمدوا على غيرهم من العرب والمسلمين والمجتمع الدولي الظالم الذي تآمر مع الصهاينة على فلسطين أرضاً وشعباً وقيماً.

تحدّث الشيخ عن نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ فقال:

«لقد نزعت الجيوش العربية التي جاءت تحارب إسرائيل.. السلاحَ من أيدينا، بحجة أنه لا ينبغي وجود قوة أخرى غير قوة الجيوش العربية، فارتبط مصيرنا بها، ولمّا هُزمتْ هُزمنا، وراحت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر والمذابح لترويع الآمنين، ولو كانت أسلحتنا بأيدينا، لتغيرت مجريات الأحداث».

وكانت القاهرة هي المكان الذي تشكّل فيه إيمان الشيخ أحمد، بأن فلسطين أرض إسلامية، ويجب أن تبقى إسلامية حتى يوم القيامة، وليس لأي زعيم عربي الحقُّ في التخلّي عن أي جزء من هذه الأرض المقدسة التي باركها الله وبارك ما حولها.

كان الشيخ منظماً في صفوف الجناح الفلسطيني من حركة الإخوان المسلمين في القاهرة، وقد تعلّم فيها ثوابته التي لا يجوز لمسلم أن يتجاوزها تحت أي ظرف، كما تعلم منها ألواناً من السياسة الشرعية التي جعلته يسعى إلى المحافظة على علاقات طيبة مع السلطة الفلسطينية التي كانت لا تتردد في الحجر على حركته تحت إقامة جبرية، وكان يرى بحق أن الفرقة تضر بمصالح الفلسطينيين..

وكذلك كانت صلاته جيدة مع بعض حكام العرب، ولكنه لم يساوم مرة فيما يخصّ موضوع التوصل إلى (سلام) مع إسرائيل، وكان يكرر دائماً:

«إن ما يسمّى بالسلام ليس سلاماً بالمرة، ولا يمكن أن يكون بديلاً عن الجهاد والمقاومة».

ولعل أبرز صفة في الشيخ، تميز بها من سائر القيادات الإسلامية وغير الإسلامية في الوطن العربي، أنه لم يكن مركزياً، بل كان يصنع القيادات ويربيها، حتى لا يعيش التنظيم في فراغ إذا ما أصيب القائد ومن حوله من القيادات، حتى ليمكن القول:

«إن حجم ما هو مجهول من رموز غزة القادرين على ملء أي فراغ، لا يزال أكبر مما هو معلوم، والحمد لله».

الإرهابي:

زعم القتلة وأذنابهم أن الشيخ أحمد كان إرهابياً، وقد تسبب بمقتل مئات اليهود، وهذا كذب صريح، فقد كان الشيخ الشهيد يسعى إلى تحرير أرضه المحتلة، ويدعو شعبه إلى تحريرها بشتى الوسائل المشروعة، وكان يدعو اليهود إلى الكفّ عن قتل المدنيين والأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء، لكنه لم يجد آذاناً تسمع، ولا قلوباً ترقّ، ولا ضمائر حيّة ووجد في يهود آذاناً صماء، وقلوباً أقسى من قلوب الذئاب، وضمائر ميتة.. ووجد أوباشاً منسوبة إلى البشر، وهي إلى وحوش الغاب أقرب، تقتل، وتغتصب، وتخرّب، وتدمّر، ولا تسمح لأحد من الفلسطينيين أن يعترض على هدم منزله على رؤوس أسرته، ولا أن يعترض على تجريف أرضه، وقلع أشجار زيتونها وبرتقالها وليمونها، وتينها وعنبها، بل لا يسمح أوباش يهود وهمج البشرية من قطعان المستوطنين الذين جيء به من الأزقة والملاجئ، فهم لا يُعرف لهم آباء ولا أمهات.. لا يسمح هؤلاء الشذّاذ أن تعترض أمّ على اعتقال ولدها الفتى، أو على قتله أمام عينيها.. والتي تعترض، تكون في عرفهم إرهابية تستحق الموت، والأب الذي يعترض على شيء مما تقدّم، إرهابيّ أيضاً ويستحق الموت، ويبقى كبير مجرميهم (شارون) رجل السلام

الأول في عرف سيد البيت الأسود.

لم يكن الشيخ إرهابياً، بل كان مجاهداً ينشر ثقافة المقاومة والجهاد والاستشهاد من أجل تحرير فلسطين من النهر إلى البحر.

استشهاده:

من إكرام الله لهذا الشيخ الضعيف بدناً، القوي إيماناً، والواسع عقلاً، أن وهبه الشهادة في سبيله، ليكون موته عبرة وعظة وكرامة، كما كانت حياته عبرة وعظة وشبه أسطورة لو لم نشاهدها، لشككنا بها..

كان الشيخ قبل يومين من استشهاده، راقداً في المستشفى في حالة احتضار، وكل من حوله ينظرون إليه نظرات الوداع، ثم دبّ النشاط في جسده العليل النحيل، وعاد إلى البيت محمولاً على كرسيه، ولم يسمع لقول ناصحيه بأن يأوي إلى بيت آمن، فقد ينفذ شارون اللعين تهديده، وسبق له أن حاول اغتياله فنجا، ولكن الشيخ الشجاع رسم على شفتيه اليابستين ابتسامة ساخرة، سخر بها من سائر الشارونات.. أجل.. من سائر الشارونات، ومن عملائهم الذين يرصدون كرسيّه، وقال لهم:

- يا مرحباً بلقاء الله..

هذا ما أتمناه

أن أفوز بالجنة

ويبوء هو -أي شارون- بالخزي والعار

ثم تكون النار مأواه..

وقال بصوت حاول أن يكون قوياً:

- نعم الحارس الأجل.

وحُمل إلى بيته، وعيون العملاء تلاحقه، وألسنتهم الفاجرة تبث لأسيادها -وليسوا سادة- عن تحركات الأسد الهصور المقعد، ومن البيت أمر محبيه أن

يحملوه إلى المسجد، ليصلّي ما شاء له الله أن يصلّي ثم ليصلّي الفجر جماعة، ثم نظر إلى إخوانه المصلين نظرة مودّع، وطلب منهم أن يغادروا المسجد قبله، فهو يخشى عليهم أن يصيبهم أذى إذا هوجم وهو بينهم ومعهم، واستجاب المصلون لطلبه، وخرجوا بقلوب دامية، وعيون دامعة، يرتجفون خوفاً عليه، وبعد أن عرف الشيخ أنهم جميعاً صاروا في مأمن، طلب من ولديه وبعض تلاميذه الذين لا يفارقونه أن يخرجوه من المسجد، وخرج اثنان يستطلعان الجو والطرقات، ثم أشارا بالأمان، فخرج الموكب المهيب، تحفّه ملائكة الرحمن، وقرآن الفجر، وما كاد الموكب يبتعد خطوات، حتى كانت طائرات الأباتشي الأمريكية الصهيونية تصبّ حممها.. صواريخها على الأسد الرابض على كرسيه، وكلها تستهدف رأسه الذي طالما أوقع بهم، بما أوتي من حصافة، وكياسة، وشجاعة، وإقدام، فهو الذكي المسدَّد، والقائد الملهم، وهو رأس الفارس الشجاع، الذي كان عبئاً ثقيلاً على يهود وهو حي، ولعله يكون أشدّ وطأة عليهم وهو شهيد!.

لقد بدا واضحاً أن الحقد على الشيخ، هو حقد على رأسه، لما فيه من فكر وعقيدة، ولهذا حرصت كاميرا الصاروخ الأمريكي الذي أصابه، أن تصور الرأس المفجّر، وقد صار مزقاً محروقة، مبعثرة، ظناً من قاتليه، أنهم بتفجير هذا الرأس العبقري، قد قضوا على ما فيه من فكر مجاهد.. وقد كذبهم ظنهم هذا، فقد انتشر فكر الشيخ الشهيد في كل مكان، بتناثره في فضاء غزة المجاهدة، وحلّ في رؤوس الشبان المؤمنين حيث كانوا، ولسوف تجسّده الأجيال جيلاً بعد جيل، فكراً مقاوماً، ينشر ثقافة المقاومة في الرؤوس الشابة، في زماننا هذا وفي كل زمان فيه احتلال أو استبداد.

انتهى أجل الشيخ، ولكل أجل كتاب، وكان من الممكن أن يموت على كرسيه كسائر الناس، ولو مات كذلك، لحزن الناس عامة، والمجاهدون خاصة عليه، ولذرفنا الدموع، وابتهلنا بالدعوات الصالحات أن يتغمد الشيخ بفيض رحمته ورضوانه، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن يعوّض المجاهدين

والمسلمين قائداً مثله، ثم نعود إلى منازلنا والحزن يلفّنا من كل جانب.

ولكن الله أراد له وللمجاهدين ولفلسطين غير ذلك..

أراد أن يكرمه بالشهادة، وأراد أن يموت هذه الميتة التي يتمناها كل مجاهد صادق..

وأراد أن يحيي ميت الآمال في نفوس القعدة والمتخلفين والمحبطين.. من دعاة الاستسلام.

ولحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ابتلي الشيخ بالضعف، ليكون قدوة للضعفاء في الدنيا، وشاهداً على أن الإيمان بالله أقوى من أية قوة أخرى مهما عظمت..

فمن ذا، في العالم كله، اهتزت البشرية لموته كما اهتزت لاستشهاد الشيخ أحمد؟

وهل من رجل سواه اجتمع مجلس الأمن ليناقش موته؟

صحيح أن الولايات المتحدة عطلت بالفيتو قراراً دولياً بإدانة جريمة قتل الشيخ، ولكنْ هل بوسعها أن تعطل الإدانة في ضمائر البشرية على حدّ تعبير الدكتور رياض نعسان آغا؟

أراد أن يكون استشهاده عبرة لمن يريد أن يعتبر، ليبقى -على الزمان- رمزاً للجهاد والمقاومة، ويبقى غيره رمزاً للتسوية والاستسلام.

أراد أن يقول أحمد ياسين كما قال سيف الله خالد:

فلا نامت أعين الجبناء.

وأراد -فيما أراد- أن تبقى اللعنات تلاحق سائر الشوارين وعملائهم وجواسيسهم الذين نعرفهم، والذين لا نعرفهم، ولكن الله يعلمهم، وسوف يبوؤون بخزي الدنيا، وعذاب مهين في نار الجحيم، يكونون فيها وقوداً لأصحاب النار.

الشهيد المهندس
إسماعيل أبو شنب

تمهيد عن الشهادة والشهيد:

الشهادة مرتبة عالية لا ينالها إلا ذوو الحظوظ العظيمة الذين يصطفيهم الله العظيم من عباده المخلصين، ليكونوا في الفردوس الأعلى، مع الأنبياء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ولا ينال الشهادة كل من يتمناها، لا ينالها إلا المجاهدون الصادقون الذين اطلع الله على ما في قلوبهم من إيمان يزن الجبال صفاء ونقاء، وحب خالص لله ورسوله وكتابه وأمته، وتطلع صادق إليها، لا تشوبه شائبة دنيوية أو حظ -مهما قلَّ- من حظوظ النفس كالشهرة أو حب الظهور..

وكم تمنيت الشهادة في سبيل الله فاصطفى الله العليم الخبير، الكثير من إخواني وتلاميذي وأبقاني أعاني ما أعاني من لأواء الحياة بعد استشهادهم.

نحن نحزن لفقدان هؤلاء المجاهدين الأبطال الذين اختارهم الله من بيننا، وتدمع عيوننا، وتكلم قلوبنا، وتزيغ أبصارنا، وتضطرب حياتنا، ولكننا لا نقول إلا ما يرضي ربنا، ونفقأ بذلك عيون شياطين الإنس والجن.. بصبرنا واحتسابنا لما نعرف ما للشهداء من أجر، هو درجات عُليا عند الله تعالى، فهم الأحياء عند ربهم، لا يخافون إذا خاف الناس، قد أمنوا يوم الفزع الأكبر إكراماً لهم من الله الذي غفر لهم ما اقترفوا من ذنوب عند أول دفقة دم من دمائهم الزكية، فقد غسلت دماؤهم ثياب حياتهم، وطهّرت قلوبهم وبذلك سمت أرواحهم فوق سحب من عبير، وراحت تجوب الجنان في حواصل طيور خضر، ترتع فيها حيث تشاء.

إننا لنحسب شهيدنا المجاهد العابد إسماعيل أبو شنب، وإخوانه الذين استشهدوا معه والذين سبقوه إلى الشهادة، والذين لحقوه بإحسان، من أولئك الشهداء الأطهار الأبرار، ولا نزكي على الله أحداً، فقد استشهد الرجل المجاهد بعملية خسيسة غادرة كدأب رجال من العملاء الأخساء، والأعداء الأنذال، الذين يهابون مُنازلة الرجال، ولا يقاتلونهم إلا من وراء جدر.. ومن وراء الدبابات والطائرات الحربية، والمروحيات المقاتلة.. استشهد أبو الحسن وشارك في عملية الغدر هذه عملاء سوف يلقون مصيرهم خزياً وعاراً في هذه الحياة الدنيا، وناراً تلظى في الآخرة التي لا يحسبون لها أي حساب بعد أن رضوا أن يكونوا مطايا ذليلة لشر خلق الله، يمتطونهم ويسوقونهم إلى حيث عارهم الأبدي، وهم عار مجسد، عار صرف، وهم يرشدون طائرات العدو بتلك الأِشعة الخفية التي تحدد الهدف، والهدف رجال أبطال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا ربانيين من رجال الآخرة، باعوا أنفسهم في خدمة دينهم وشعبهم وأمتهم وأرضهم وقيمهم.. باعوا أنفسهم لله فربح بيعهم، فيما العملاء يبيعون نفوسهم الرثة لحثالة البشر، رخيصة بطموحات لن تجديهم في دنياهم، فالمناصب التي يتطلعون إليها كالسفود تفوح منها روائح الخيانة والخسة والغدر لو كانوا يعقلون.

استشهد أبو الحسن بهجوم غادر شنته مروحيات الأباتشي المدعمة بطائرات "إف١٦" الأمريكية الصنع، فأطلقت على سيارته ستة صواريخ، وذلك يوم الحادي والعشرين من (أغسطس) آب ٢٠٠٤- شعبان ١٤٢٤هـ فأدمى استشهادهم القلوب المؤمنة، وفرح العملاء واليهود ومطاياهم، ولم يخفوا فرحهم في عيونهم وكلماتهم وتصريحاتهم، ونال العملاء أجر عمالتهم على جريمتهم التي سيحاسبون عليها في الدنيا قبل الآخرة بأيدي سادتهم بالذات، أو بأيد مؤمنة متوضئة لن تصبر عليهم طويلاً.

النشأة:

ولد الدكتور المهندس إسماعيل بن حسن بن محمد أبو شنب في مخيم

النصيرات وسط قطاع غـزة عام ١٩٥٠م بعد عامين من تهجيـر أسرته من قرية (الجية) الواقعة جنوب شرق المجدل وعسقلان.

كـان أبوه أمـياً يحـفظ بـعض سـور القـرآن العظـيم الذي أحـبه، وحـاول التعويض عـن جهله وأميته بدفع أبـنائه إلى حفظ القرآن خاصـة، وطلب العلم عـامة، علـى الرغم مـن فقـره، فقـد كان يـعمل فـي حراثـة أراضي أصحـاب الأراضي، فإذا عاد من الفلاحة، ذهب إلى دكان متواضع يبيع فيه بعض السلع البسيطة ذات الربح المتواضع جداً، ليكسـب قوته وقوت أولاده ليعيشوا عيشة كريمـة، ولكن هذا الأب المـهجر المـقهور مـا لبث أن مات وترك أسـرة كان إسماعيل أكبر أبنائها، وعمره بضع سنين، وتولى بعض الأقارب رعاية الأسرة ونقـلوها إلـى مخـيم الـشاطـئ غرب مـدينة غـزة حـيث العـديد مـن أقاربـهم اللاجئين، وقد عاش معهم كما كانوا يعـيشون فقراً مدقعاً، لا يعرفون من هذه الحياة سوى المخيم، عاشوا جميعاً عيـشة تعيسة بائسة، وزادتهم حياة المخيم يتماً وبؤساً وتعاسة.

تعليمه:

أرسله أبوه إلـى مركز تحفـيظ القرآن في مـخيم النصـيرات ليحفـظ القرآن الكريـم، وأرسله إلى المدرسة الابتدائية التابعة لوكالة غوث اللاجئين بالمخيم، واستطاع الطفل إسماعيل أن يحفظ نصف الـقرآن الكريم وهو تلميذ صغير في المدرسة الابتدائية (١٩٥٦ - ١٩٦١م).

وبعد وفاة أبيه وانـتقال الأسرة إلى مخيم الشاطئ أنهـى المرحلة الإعدادية في مدرسة غزة الجديدة التابعة لوكالة الغوث عام ١٩٦٥م.

ثم انتقـل إلى مدرسة فلسـطين الثانوية، ونـال الثانوية العـامة سنة ١٩٦٧م بعد حـرب حزيران (يونيه) وكان إسـماعيل دائماً مـن الطلاب المتفوقـين على أقرانه.

بعدها التحق بمعهد المعلمين في مدينة رام الله، لأن الجامعات العربية ما

كانت تعترف بتلك الشهادة الثانوية التي حصل عليها من ثانوية فلسطين.

ودرس اللغة الإنجليزية في المعهد، وكانت مدة الدراسة فيه سنتين، يتخرج بعدهما الطالب ليكون معلماً في مدرسة ابتدائية.

وقبل الامتحان الأخير ترك المعهد وأعاد امتحان الشهادة الثانوية بإشراف وزارة التربية والتعليم المصرية، ونال درجات عالية أهلته للدراسة في كلية الهندسة بجامعة المنصورة بمصر، وتخرج فيها عام ١٩٧٥م بدرجة امتياز، فقد كان الأول على دفعته وقد حاول أحد أساتذته استبقاءه في الجامعة ليكون فيها (معيداً) ويتابع دراسته العليا في الجامعة، ولكنه آثر العودة إلى الوطن ليعلم فيه، ويرعى أسرته ويعلم أخواته.

وفي الوطن تعاقد مع جامعة النجاح في نابلس التي أرسلته ضمن بعثة دراسية للمهندسين لاستكمال دراساتهم العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، فحصل على شهادة الماجستير في هندسة الإنشاءات من جامعة (كالورادو) عام ١٩٨٢م، ثم عاد إلى الوطن ليدرس مادة الهندسة في جامعة النجاح، ثم سنحت له فرصة أخرى لاستكمال دراسته في الولايات المتحدة التي سافر إليها عام ١٩٨٣م وبدأ دراسته بحيوية وجدية للحصول على الدكتوراه ولكن جامعة النجاح استدعته لحاجتها إليه من أجل التدريس في الجامعة فقطع دراسته وعاد إلى الوطن والتحق بالجامعة، ثم سافر إلى أمريكا مرة أخرى وإلى مصر من أجل استكمال دراسته.

وظائفه:

بعد تخرجه في جامعة المنصورة بمصر وعودته إلى الوطن، عمل مهندساً للمشاريع في بلدية غزة مدة خمس سنين، كان فيها مثال الاستقامة والأخلاق السامية، والمهنية العالية.

ثم استقال من البلدية ليسافر في بعثة دراسية إلى أمريكا وبعد نيله شهادة الماجستير وعودته إلى الوطن، عين رئيساً لقسم الهندسة المدنية في جامعة

النجاح، وظل في منصبه هذا حتى أغلقت سلطات الاحتلال الإسرائيلي جامعة النجاح أواخر عام ١٩٨٧م بعيد اندلاع الانتفاضة الشعبية الأولى.

وكان المهندس إسماعيل من مؤسسي جمعية المهندسين الفلسطينيين في غزة سنة ١٩٧٦م، وكان عضواً في مجلس إدارتها ونقيباً للمهندسين في السنة نفسها.

واعتقلته قوات الاحتلال وحكمت عليه مدة ثماني سنوات (١٩٨٩-١٩٩٧م) وهو نقيب المهندسين، وبعد الإفراج عنه أُعيد انتخابه رئيساً لمجلس الإدارة، ونقيباً للمهندسين حتى لحظة استشهاده.

وعمل الشهيد أستاذاً محاضراً في كلية الهندسة في الجامعة الإسلامية في غزة، ورئيساً لكلية العلوم التطبيقية في الجامعة الإسلامية، ورئيساً لمركز المستقبل للدراسات.

صفاته:

كان -رحمه الله تعالى- كما وصفته زوجته بحق، خلقه القرآن، يلتزم بما جاء فيه التزاماً صارماً.

كان رضيَّ الأخلاق، محمود السيرة، محباً للخير، محباً للناس، يسعى إلى الإصلاح بينهم ويبذل جهوداً مضنية ليمنع إراقة قطرة دم فلسطيني، وكان معتدلاً مرناً في مواقفه، ومحاوراً فذاً وعقلانياً، قريباً من قلوب محاوريه وعقولهم، وهذا ما أثار حفيظة اليهود وعملائهم عليه، لأن سلوكه المستقيم ومواقفه الحكيمة وعقلانيته، كانت تفوت عليهم فرص التقاتل الداخلي الذي يسعى إليه اليهود ووكلاؤهم وعملاؤهم.

وكل الناس -ما عدا اليهود وعملاءهم ووكلاءهم- يشهدون له بغيرته على الشعب الفلسطيني وعلى أرضه وكرامته، وعلى التفاهم فيما بينهم بالحسنى، وعلى سعيه الحثيث لتصفية الأجواء، وتهدئة الخواطر، وبث الثقة المتبادلة فيما بينهم.

وكان يسرع إلى عمل الخير، وتلبية رغبات الفقراء والمساكين، وطلبات أهل الخير والبر والإحسان، الذين يزورونه من أجل عمل التصميمات الهندسية لهم لبناء المساجد والمشاريع الخيرية وغيرها مجاناً، فما كان يتقاضى على ذلك أي أجر.

كان أبو الحسن رجلاً بكل ما في الرجولة من المعاني السامية، كان يؤدي واجباته بصدق وأمانة وإخلاص، يتعب ويشقى ليرضي دينه وضميره، وكان يجير من يستجير به ويخدم من يلجأ إليه، ويضحي في سبيل وطنه ومبادئه ودينه بكل ما يملك، وكان قائداً حكيماً وسياسياً بارعاً حليماً، صبوراً على الشدائد، صامداً في وجوه الابتلاءات والمحن، شجاعاً في التصدي للتحديات التي تواجهه وتواجه جماعته وشعبه وأمته، حريصاً على وحدة شعبه، يقدم المصلحة الوطنية العامة على مصلحة جماعته، يدعو أبناء الفصائل المجاهدة إلى التفاهم والتكاتف والتلاحم ووحدة الكلمة والموقف ليكونوا كالبنيان المرصوص في وجه الأعاصير والأخطار الداخلية والخارجية المتمثلة في المؤامرات الصهيونية على فلسطين، شعباً وأرضاً ومقدسات، ويدعو العملاء والجواسيس والساقطين في أحضان اليهود إلى العودة إلى شعبهم، والتوبة والندم على ما قدموا لليهود من خدمات، ويدعو الجميع إلى المحافظة على الدم الفلسطيني فهو خط أحمر لا يجوز لأي فلسطيني أن يقترب منه، فهناك هدف واحد لا يجوز لأي فلسطيني أن يحيد عنه ألا وهو العدو الصهيوني.

كان وطنياً مخلصاً صادقاً في حبه لأرضه وشعبه، تحمل في سبيل هذا الحب هموماً وأعباء تنوء بحملها الجبال، ومن أجل فلسطين ومقدساتها كان يبذل قصارى جهده لتجسير العلاقات بين سائر الأطراف المتنازعة لتكون الوحدة الوطنية مبنية على المحبة والثقة والتعاون الإيجابي المثمر.

المجاهد:

لهذه الصفات، ولعدد من المزايا التي اتصف بها، كلفه شيخ الانتفاضة المجاهد الشهيد أحمد ياسين بمسؤولية قطاع غزة، من أجل تفعيل أحداث الانتفاضة، وتصعيدها، وجعله نائباً له، واستجاب أبو الحسن لأوامر شيخه الذي رباه على عينه منذ كان فتى يافعاً، وكان المكون لشخصيته، والمؤثر فيها. . وعمل أبو الحسن حسب توجيهات شيخه، فتابع أحداث الانتفاضة، وبذل كل ما يستطيع للتمكين لها في نفوس الناس عامة والطلاب خاصة، الذين أولاهم عنايته الخاصة، ورباهم تربية جهادية قائمة على البذل والعطاء بلا حدود، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل المقدسات، ومن أجل التصدي للصهاينة والعملاء والوكلاء والأجراء.

وكذلك كان في عمله النقابي، مثالاً للنقيب الذي لا يعرف إلا البذل والعطاء، والتضحية بالمال والوقت والراحة، من أجل تطوير أساليب المنتفضين الثائرين على الظلم والاحتلال الذي كلُّه ظلم وظلمات، فنظم أجهزة الحركة وفصل بينها، وكان يصل ليله بنهاره كأنما يسابق الزمن قبل أن تخترمه المنون وفي عنقه واجبات وفي عقله المنظم ترتيبات لمفردات الانتفاضة الباسلة الأولى، ثم الثانية.

وقد عرف الصهاينة أهمية هذا الشاب المثقف القيادي الذي لا يكل ولا يمل في العمل، ولا يبخل بشيء على قضيته، فبادروا إلى اعتقاله في ٣٠/ ٥/ ١٩٨٩م وأفرج عنه في ٢/ ٥/ ١٩٩٧م ظناً منهم أنهم سوف يحطمون روحه المجاهدة، ومعنوياته العالية، وربما خُيِّل إليهم أنهم قد يكسبونه إلى صفهم بالمغريات التي اشتروا بها سواه وجعلوهم قادة، أو ربما يحيّدونه -على أقل تقدير، وفي أسوأ الاحتمالات- ويدفعونه إلى الاهتمام بمستقبله المادي ومستقبل أسرته، ولكن. . هيهات. . فقد عدَّ أبو الحسن اعتقاله انتقالاً إلى مرحلة جديدة مفعمة بروائح الكفاح الدامي والجهاد المنظم وأن هذه

المدرسة اليوسفية يجب أن تجعل منه ومن إخوانه المعتقلين رجالاً أشداء، صابرين مصابرين مرابطين جمعهم الله في زنزانة واحدة، ليتشاوروا ويتدبروا أمورهم ويخططوا للانتفاضة، ومستقبل الأيام، ولهذا صبر على التعذيب الوحشي طوال ثلاثة أشهر من التحقيق الدامي في معتقل الرملة، ثم في زنازين العزل طوال سبعة عشر شهراً لم ير النور خلالها قط، وفي سجن عسقلان شكل قيادة حركة حماس، وقاد الحركة بمسؤولية عالية فقاد إضرابين كان لهما آثارهما البالغة على تحسين أوضاع السجناء، وذلك في عام ١٩٩٢م وعام ١٩٩٥م.

وبعد الإفراج عنه نهض بدور مهم جداً في الحركة، وكان قائداً سياسياً بارعاً، وكان يمثل (حماس) في الحوار مع الفصائل الأخرى ومع (السلطة)، وكان سائر من يحاورهم يكنون له الاحترام والتقدير لمواقفه المسؤولة، وأخلاقياته العالية، وحرصه على إفشال سائر المحاولات الكيدية التي تريد أن تجرَّ الفصائل إلى الاقتتال فيما بينها.

أصداء استشهاده:

كان لاستشهاد أبي الحسن دوي لدى سائر الأطراف، عدا الطرف الأمريكي الذي تجاهل استشهاده والعملية الإجرامية الغادرة التي نفذتها المروحيات والطائرات الأمريكية الصنع، وأودت بحياة الشهيد ومرافقيه وجرح العشرات من المدنيين المارة، وليس هذا بمستغرب من الإدارة التي ارتضت أن تكون مطية لليكود وزعيمه مجرم الحرب شارون، أما الآخرون من الأصدقاء والخصوم فقد أبدوا حزنهم وغضبهم، وخرج عشرات الآلاف في تشييع جنازات الشهداء الثلاثة. وقال الشيخ أحمد ياسين:

(إن العدو الصهيوني تخطى كافة الخطوط الحمر باغتياله القيادي في الحركة (إسماعيل أبو شنب) ومرافقيه، وإن الجمهور الصهيوني سيدفع الثمن).

وقال تقرير تحليلي خاص من فلسطين:

(بينما كانت روح الدكتور المهندس الشهيد إسماعيل أبو شنب، القيادي الكبير في حركة حماس تصعد إلى بارئها، إثر الاغتيال الوحشي من قبل وحوش البشر ونازيي العصر، كانت دماؤه في ذات الوقت، تصون الوحدة الفلسطينية، وتغسلها بالروح الزكية والدم الدفاق).

ووصفه التقرير بأنه (الرائد للمئة عملية الأولى من عمر الانتفاضة، وناتج بطولته مسك على مسك على مسك أذفر)..

وكتب الكاتب الفلسطيني عبد القادر ياسين في صحيفة البيان الإماراتية في ٢٧/٨/٢٠٠٣م:

(قطع القائد الشهيد إسماعيل أبو شنب ورفيقاه بجثامينهم الطريق مؤقتاً على حرب أهلية فلسطينية وشيكة).

وتحت عنوان: (دم الشهيد أبو شنب، حقن الدم الفلسطيني) كتب الأستاذ دياب اللوح:

(جريمة اغتيال الشهيد القائد المهندس إسماعيل أبو شنب (أبو الحسن) عضو القيادة السياسية لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) والوطني الكبير.. وقعت وقع الصدمة والفاجعة في نفوس كل الفلسطينيين، وخاصة في نفس ووجدان كلّ من عرف الشهيد عن قرب، وتحمل معه عبء المسؤوليات الوطنية، فهو رجل وطني مخلص صادق، صاحب قيم وأخلاق ومبادئ في العلاقات الرسمية والإنسانية مع الآخرين، فهو رجل الوحدة الوطنية، يمعن النظر والفكر في قراءة الواقع وتطوراته الوطنية والسياسية، ويجيد استخلاص العبر، ويتقن صياغة الدروس..

فالشهيد القائد الوطني الكبير -حياً وشهيداً- حقن الدم الفلسطيني، ومنع الفتنة، وأوصد الأبواب أمام الاقتتال والصدام الداخلي).

وكتب عنه عشرات الكتاب، ورثاه العديد من الشعراء، نذكر منهم:

الأستاذ علي عقلة عرسان، رئيس اتحاد الكتاب العرب، في صحيفة البيان الإماراتية في ٢٥/٨/٢٠٠٣م والأستاذ عدلي صادق في صحيفة القدس العربي اللندنية في ٢٨/٨/٢٠٠٣م وفارس عودة من ليبيا، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، ورسالة الإخوان وعزيز عبيات، و. . .

ومن الشعراء: عبد الرحمن فرحانة، ونافذ سليمان الجعب، وشادي الأيوبي، ورمضان عمر، والدكتور أسامة الأحمد وسواهم.

وأخيراً. . نتقدم بالعزاء إلى زوجة الشهيد، وأولاده الأحد عشر، وإلى أهله وصحبه وإخوانه، وإلى سائر المجاهدين في فلسطين وسواها، وسلام عليك -أبا الحسن، أيها القائد الشهيد- في الخالدين.

* * *

الشيخ أمجد الزهاوي
العالم الرباني المجاهد

تمهيد:

هناك رجال حياتهم خير، ومماتهم خير، فهم يبقون في ذاكرة الشعوب والأفراد، يذكرون أولئك الأخيار الأبرار، ويتأسون بهم، فيستمر خيرهم زمناً طويلاً.

وهناك رجال، حياتهم شر، ومماتهم شر، وقد عرفنا بعض هؤلاء.

وكان الشيخ أمجد من الفريق الأول، فقد عاصر أخطر الحوادث في العالم الإسلامي والوطن العربي، وكان يؤدي دوره الكبير في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الإسلام والمسلمين، وتسجَّل أعماله ومواقفه بأحرف من نور، فقد عاش الإسلام وللإسلام، فكان حياً في قلوب الناس، تجرد لله، فأحبّه الله والناس، ولا ينبغي إلا أن يكون حاله هكذا، فمن عمل لله، ولمصلحة المسلمين، وضحّى بعمره كله في سبيل هذين الهدفين العظيمين، أحبّه الله، وبارك عمله، وجعله محبوب الجماهير المؤمنة.

ولادته ونشأته:

وُلد الشيخ أمجد في مدينة بغداد سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م لأبوين كريمين، ومن أسرة علم وفضل ودين وإفتاء، فأبوه الشيخ محمد سعيد مفتي بغداد، وجدّه الشيخ محمد فيضي كان مفتي بغداد أيضاً، وهذا هو ابن الشيخ أحمد بن حسن بيك بن رستم، بن خسرو بن الأمير سليمان باشا، رئيس الأسرة البابانية التي تعود أصولها إلى أرومة عربية عريقة تنحدر من بني

مخزوم، وهم من سلالة البطل العظيم خالد بن الوليد سيف الله المسلول، رضي الله عنه وأرضاه، وتحتفظ هذه الأسرة الكريمة بشجرة النسب، وتذكره في المناسبات.

وكانت الأسرة البابانية قد استوطنت منطقة السليمانية في كردستان العراق، وكان أبناؤها من أمراء تلك المناطق، فقد كونت الأسرة إمارة في السليمانية، حكمت المنطقة زمناً طويلاً، واستكردت بحكم البيئة.

هاجر بعض أفراد هذه الأسرة إلى مدينة (زهاوى) في منطقة كرمنشاه في إيران، على أثر نزاع، وعندما عادوا إلى العراق نُسبوا إلى (زهاوى) فقيل لهم (زهاوي).

وقد أنجبت هذه الأسرة علماء فضلاء في الفكر والفلسفة والدين والشعر وكانوا نجوم علم ومعرفة في سماء العراق.

نشأ الشيخ أمجد في رعاية جدّه المفتي الشيخ محمد فيضي الذي كان يحبّه ويربيه ويرعاه منذ طفولته، فقد كان يتوسم فيه النبوغ والذكاء، وكان جدّه يقول: (إن حفيدي أمجد أحبّ إليّ من ابني).

تعليمه:

تلقّى تعليمه الأوّلي على يدي والده وجدّه، وكلاهما عالم فاضل، ومربّ حكيم، ثم انطلق إلى مجالس العلماء في بغداد، يستمع إليهم، ويحاورهم فيما يشكل عليه، ويستمعون إلى الفتى الذي غدا عالماً في الشريعة، فقيهاً، يقتنص الشوارد في الفتاوى والأحكام، ولغوياً أديباً، ثم رحل إلى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية، ودرس في كلية القضاء، وتخرج فيها بتفوّق عام ١٩٠٦

واستمرّ الشيخ في تحصيله العلمي حتى غدا فقيهاً حنفياً متمكناً، له مشاركاته في كل علم، وكان له ذهن عجيب نقّاذ يخترق كل معضلة علمية، لا بالرأي المقول، بل برأيه هو، ويقول علي الطنطاوي عنه:

"ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر، وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل، كان يتكلم فيها، على الغالب، وحده، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل" .

وليس هذا بمستغرب على فقيه مجتهد بارز بين علماء المسلمين في عصره، فهو كبير علماء العراق، ومن كبار علماء المسلمين، ورجل الفتوى بينهم، ذاع صيته في الآفاق، وتعلّقت به القلوب، وكان مرجعاً كبيراً ترد إليه الأسئلة والاستفتاءات من سائر أرجاء العالم الإسلامي، ويجيب عليها، وقد أطلقوا عليه بحق، لقب (أبو حنيفة الصغير) لإحاطته بالمذهب، واستيعابه وإدراكه الذكي لدقائق المسائل الفقهية في هذا المذهب، حتى قال قائلهم: لو فُقد المذهب الحنفي، واندثرت كتبه، لأملاه الزهاوي عن ظهر قلب، من أول أبوابه حتى خواتيمها.

صفاته:

كان غنياً، ولكن منظره يوحي بالفقر، فقد كان يملك ٦١ ألف دونم من الأرض، ولكنه زاهد حقاً، وقلبه مسكون بمراقبة الله وذكر الآخرة، لا يفرح بما آتاه الله من مال فرحاً يطغيه وينسيه دينه، ولا يحزن إذا فقد ما أعطاه الله، ولا يقنط من رحمته. كان في شبابه يؤثر الانعزال عن الناس، منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، فلما ترك العمل، وبلغ السن التي يستريح فيها أمثاله، انتفض انتفاضة، فإذا هو يرجع شاباً في جسده وفي همته، يختلط بالناس، في حيوية ونشاط، حتى بلغ به الأمر أن يرأس أكثر الجمعيات التي أُسست، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف، ثم يفتتح مدرسة ابتدائية، وثانوية خاصتين. وكان مضرب المثل في العفّة والورع والنزاهة والأمانة والصلابة في الحق، وكان فوق الشبهات، ولا يخشى في الله لومة لائم، ومواقفه والحوادث التي تدل على ذلك كثيرة وكثيرة جداً.

وكان كثير العبادة، قلبه معلق بالمساجد، وبالصلاة في كل مكان من

الأرض التي جعلها الله مسجداً وطهوراً، وكان يحرص على الصلاة في وقتها، فعندما كان طالباً في مدرسة القضاء في إستانبول، كان يضع سجادة الصلاة على كتفه أينما ذهب، حتى لا يؤخر صلاة عن وقتها ولو لدقائق، وكان صديقه نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي الأسبق، المعروف، يدرس في الوقت نفسه في الكلية العسكرية في إستانبول، ولذلك، عندما كان يلتقيه كان يسأله ممازحاً: «أمجد أفندي، أين سجادتك؟».

إذا سمع المؤذن، قام من فوره إلى الصلاة، أينما كان وكيفما كان.. فهو يترك المائدة الملوكية، والحفلات الرسمية، ويبادر إلى الوضوء والصلاة.

وإذا وقف للصلاة نقّى قلبه، ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا، ثم صرخ (الله أكبر) فكأنها قنبلة أُلقيتْ في وجه الشيطان، على حدّ وصف الذين رأوه يكبّر للصلاة، ومنهم الشيخ علي الطنطاوي.

وبلغ من حرصه على تعاليم إسلامه، أنه بعد انقلاب عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨ تشاءم الشيخ منه، واستنكر المجزرة التي ارتكبها الانقلابيون بحق الأسرة المالكة، وصلّى صلاة الغائب عليهم، لأنهم مسلمون، ولم يصلّ عليهم أحد، ويخشى أن يصيبه الإثم إذا لم يصلّ عليهم، وتوقّع أن تصيب العراق كوارث تحصد الملايين، وقرر الهجرة إلى باكستان لتكون مستقراً له، وبعيداً عن الفتن التي كان يقودها الشيوعيون إبان حكم قاسم.

كان صريحاً جداً، لا يعرف المداهنة ولا المجاملة.

ويكره المتفرنجين، ويألف المشايخ، ويجلس حيث يجلسون على الأرض، ويأكل معهم.

ويكره تقليد الإفرنج، لكنه قرأ ما يصل إليه من كتبهم، ويروي النافع من أقوالهم، ويضيق صدره بالحديث عنهم.

وكان لا يبالي طعاماً، إن جئت به أكل من طيباته، وإن لم يجد صبر، وما كان يقول: هذا طيب، وهذا رديء، بل يأكل ما يقدَّم إليه ويحمد الله عليه.

ولشدة ورعه، أنه لما شك في طعام فنادق الهند التي كان يزورها، بقي شهرين لا يأكل إلا الخبز والشاي، وهو المريض بالإمساك.

وكان لا يبالي مالاً ولا جاهاً ولا منصباً، ولا يستهويه مديح الملوك له، ولا تقديمهم إياه.

كان بركة العصر بحق، وفياً لإخوانه العلماء حيث كانوا، فكان يراسلهم، ويسأل عن أخبارهم، ويدافع عنهم، ويدعو لهم، وينصحهم، ويتدارس معهم شؤون المسلمين، كالشيخ الصواف، والسباعي، والطنطاوي، والكتاني، والصلاحي، وغيرهم.

وكان ذكياً، حافظاً بارعاً للعلوم واللغة والآداب، وكان متواضعاً، فسيح الأمل، لا يتطرق اليأس إلى قلبه المسكون بالإيمان بالله تعالى، وحب رسوله ﷺ، ويحمل بين جنبيه نفساً عالية، وروحاً يجيش فيها حبُّ الجهاد في سبيل الله، وكان ورعاً، ومن رجال الآخرة، ولم يكن من رجال الدنيا، فما كان يريدها، ولا يسعى إليها، ولا يحرص على ما يأتيه منها، والدنيا عنده مزرعة للآخرة، لقد زهد فيها وبما فيها من مال وزخرف، فلم تحتلَّ من نفسه حيزاً يُذكر، وكان عفيفاً، رقيقاً في نصحه ووعظه وإرشاده، شديداً في الحق، يواجه المسؤولين بواجباتهم، وبأعمالهم، وينصحهم، ويذكرهم بالله، وبحقوق الشعب، وينذرهم عاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة. وكان يحب العمل الجماعي المنظم، ويكره الانزواء والانطواء والانعزال والعمل الفردي، والارتجال.

وظائفه:

بعد عودته من الآستانة عام ١٩٠٦ عُيِّن مفتياً في الأحساء، ثم عضواً في محكمة استئناف بغداد، ثم رئيس محكمة حقوق الموصل، ثم اعتزل الوظيفة، وعمل محامياً، بعد دخول القوات الإنجليزية إلى بغداد، ثم عاد إلى الوظيفة وعمل مستشاراً للحقوق في وزارة الأوقاف، وأستاذاً في كلية الحقوق

العراقية، ثم رئيس مجلس التميز الشرعي، وكان في الوقت نفسه يدرّس في المدرسة السليمانية في بغداد، فقد كان التدريس، وتربية النشء على الفضيلة ومكارم الأخلاق أحبَّ إلى نفسه من سائر الوظائف والمناصب مهما علت، فعندما صدر أمر وزاري بعدم جواز الجمع بين مجلس التميز الشرعي والتدريس، استقال من المجلس، وآثر عليه البقاء في التدريس.

ثم انتخب الشيخ رئيساً لرابطة علماء العراق، ورئيس جمعية إنقاذ فلسطين، ورئيس جمعية الآداب الإسلامية، ورئيس جمعية الأخوة الإسلامية (الإخوان المسلمون) ومنها تفرعت جمعية الأخت المسلمة التي رأستها بنته العالمة الفاضلة الأديبة: نهال أمجد الزهاوي.

بل نستطيع أن نزعم أنه كان يرأس كل جمعية خيرية وعلمية وتربوية في العراق.

رحلاته:

كانت رحلات الشيخ لله، ومن أجل نصرة قضايا العرب والمسلمين، ولم تكن يوماً للراحة والاستجمام والسياحة، وقد سافر وحضر المؤتمرات من أجل فلسطين خاصة، وقضايا المسلمين عامة، كقضية الجزائر وثورتها المظفَّرة، سافر إلى بلاد الشام، والحجاز، ومصر وباكستان والهند، وشمال أفريقيا، وأندونيسيا، وماليزيا مرات ومرات، كان فيها يلتقي العلماء العاملين، والزعماء الصالحين، ويشرح لهم المهمات التي ارتحل من أجلها، ويحثهم على العمل الجاد لإصلاح أحوال المسلمين، وعندما التقى الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى، بهره، وحرص على ملازمته، وأوصى صهره الداعية الكبير سعيد رمضان -رحمه الله- بمرافقته والإفادة منه، وقال له:

«إذا أردت أن تنظر إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، فانظر إلى الشيخ أمجد الزهاوي، فاستمع إلى حديثه، فإنه يحرك سواكن النفوس، ويبعث الهمة فيها، ويدفعها نحو الخير حيثما وُجد وحيثما كان».

تربية الأجيال:

كان الشيخ مشغولاً بأمور المسلمين، شغلته أوضاعهم، ومشكلاتهم، ومصائبهم عن نفسه وصحّته وأهله وماله، وقد أهمَّه ما هم عليه من ضعف، واستكانة، وخنوع، فانطلق يدعوهم إلى القوة، وتربية النشء عليها، وهذه لا تتأتّى إلا إذا رُبِّيت الناشئة على الإسلام، وقد أبدى إعجابه بالجيل المؤمن القويّ الذي ربّاه حسن البنا، فدعا إلى أن تحذو الجمعيات والأحزاب والجماعات حذوه.. لقد «كان يحرص أشد الحرص على تربية الناشئة الإسلامية تربية إسلامية واعية، تغرس فيهم روح الجهاد، وتدعوهم إلى القوة والتعارف والاتحاد والحب فيما بينهم».

ويرى أن هذه مهمة العلماء.. ومن أجل ذلك أسس جمعية التربية الإسلامية التي فتحت لها مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية لتعليمهم وتربيتهم التربية الإسلامية السليمة، وكذلك كان يريد من جمعية الأخوة الإسلامية التي أسسها مع تلميذه الصواف، وكان رئيساً لها. لقد كانت تربية النشء من همومه الكبيرة التي لا تفارقه، يدعو إخوانه ويلحّ عليهم في هذه الوظيفة المهمة.

كان يهتم بها ويدعو إلى الاهتمام بها أكثر من العلم «فالعلماء في مصر كثيرون، ولم يظهر لأحد منهم ما يقارب عمل البنا رحمه الله، فله في نواحي الإسلام دعاة للخير، وسينجحون إن شاء الله، والعاقبة للمتقين».

«إن التربية الصحيحة الجدية هي التي تغرس في قلوب الناشئة عظمة الإسلام، ومظاهر القوة.. وأمرٌ يكون أمثال هؤلاء حماته، لن يتسرب إليه ضعف بحول الله، فالله ناصرهم لا محالة، بإخلاصهم النية، وامتثالهم أوامر الله سبحانه وتعالى في نشر الدعوة، والدفاع عنها».

فلسطين:

كانت فلسطين همّه الكبير، وشغله الشاغل، أسس من أجلها الجمعيات وحضر المؤتمرات، وجمع المعونات، وجنّد المجاهدين، وأرسلهم إلى

فلسطين، من أجل استنقاذها من براثن اليهود المحتلين، وحاضر من أجلها في العديد من الدول والمدن والجمعيات، وبيّن للمسلمين خطورة هذه القضية على العرب والمسلمين، ما لم يبادروا إلى العمل الجاد المكافئ لأعمال اليهود ومن يقف وراءهم من دول الاستكبار العالمي المعادية للإسلام والمسلمين.

حضر المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في ساحة المسجد الأقصى في ٢٧ من رجب ١٣٧٢هـ للنظر في قضية فلسطين، وشؤون إسلامية أخرى، وكان الداعي إلى المؤتمر الشيخ محمد عبد اللطيف دراز رئيس جبهة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية، باسم الجمعية، التي مقرها في القاهرة، وهو مؤتمر شعبي مبرأ من وصمات السياسة التي فرّطت في حقوق المسلمين، وأكسبتهم عاراً لا تمحوه سوى الدماء.

حضر الزهاوي هذا المؤتمر بصفته رئيساً لجمعية إنقاذ فلسطين، ومعه سكرتير الجمعية الشيخ محمد محمود الصواف، وتخلّف الداعون إلى المؤتمر، فبادر الشيخان، الزهاوي والصواف إلى تبني فكرة المؤتمر، وصارا أصحابها، وجمعا العلماء والخطباء وشباب الدعوة الإسلامية من الإخوان المسلمين، وعقد الجميع اجتماعات متواصلة، وتشاوروا وتذاكروا في قضية فلسطين، وقضايا المسلمين، وقد أسفر عملهم عن تأسيس مكتب دائم في القدس أسموه: مكتب الإسراء والمعراج، ليكون نقطة التقاء وارتكاز وانطلاق.

ثم عاد الوفد العراقي إلى بغداد، وقد صمموا أن يتجهوا -بعد الله تعالى- إلى الشعوب الإسلامية، وأعلنوا يأسهم من الحكام ومن تصرفاتهم الخائبة التي نكّست رؤوس العرب، وفضحتهم في العالمين، واعتبروا القضية الفلسطينية هي قضية الإسلام الكبرى في هذا العصر، ومن الممكن أن تكون المنطلق الصحيح لخدمة قضية القضايا في مشكلات المسلمين، وهي قضية الإسلام نفسه، والسعي من ورائها لتحقيق الوحدة الإسلامية العقائدية المرتجاة، وذلك للأسباب الآتية:

١ - قضية فلسطين هي قضية المسجد الأقصى، الذي هو قضية المسلمين جميعاً.

٢ - وهي ترتبط بالمقدسات الدينية القائـمة على أسس روحية ودينية متينة وأقوى من كل المظاهر السياسية العارضة.

٣ - والعدو فـيها هو الصهـيونية العـالمية، وهذا يتطـلب مكافحتـها على نطاق إسلامي عالمي أيضاً.

٤ - الدولة التي أحدثتها الصهيونية ذات اسم ديني (إسرائيل) وهذا يعطينا الحق على محاربتها باسم الدين أيضاً.

٥ - العمل لقضية فلسطين هو من أجل إبطال وضع شاذ، وظلم قام على القوة، وهذا يـقتضينا الـعمل بروح جهادية إيـجابية، لا مجـرد إصدار قرارات ميتة أو شبه ميتة.

٦ - شواهد التاريخ تقول: إن هذه المنطقة من ديار الإسلام، كانت دائماً منطقـة صراع بين عـهود الذل والفساد والتمـزق، وبين عهـود العز والتـجمع للعالم الإسلامي كله.

قررت جمعـية إنقاذ فلسطين الدعوة إلـى المؤتمر الإسلامي بمناسـبة شهر المولد النبـوي الشريف من اليوم السـابع والعشرين من شهـر ربيع الأول حتى الثالث من ربيع الثاني ١٣٧٣هـ واستطاع الـزهاوي جمع الأموال لهذا المؤتمر من الحكـومة العراقيـة، ومن التجار الأغـنياء العراقـيين، ووجّهوا الـدعوة إلى قادة العالم الإسلامي.

ثم سافر الزهاوي والصـواف إلى مصر والسعودية، والتقـوا رجال الحركة الإسلامية، والعلماء، ثم عادا إلى الأردن، فالقـدس، لاستقبال المدعوين قبل الموعد ببضعة أيام.

وقد حـضر المـؤتمر ٧٥ شـخصـية إسـلامية، نـذكر منهـم الأساتذة سـيد قطـب، وعصـام العطار، وعـلال الفـاسي، وعلـي الطنطـاوي، ومحي الـدين

القليبي، والفضيل الورتلاني، وعمر بهاء الدين الأميري، وسعيد رمضان، وكامل الشريف، ومحمد عبد الرحمن خليفة، وسواهم من القادة، واعتذر قادة آخرون، ووصلت إلى المؤتمر مئات البرقيات المؤيدة التي تبدي استعدادها للقيام بما تكلّف به.

أعلن المؤتمر بطلان الوضع الذي أحدثه اليهود في فلسطين من تقسيم واحتلال وتشريد للفلسطينيين، وغصب لحقوقهم. واعتبار الصلح مع إسرائيل، أو التعامل معها خيانة عظمى، والتفكير في تدويل القدس مؤامرة استعمارية يقف العالم الإسلامي في وجهها.

إلى آخر ما هنالك من قرارات وتوصيات لو عمل العرب والمسلمون بها، لكانت الحال غير الحال، وكان للزهاوي جهود مبرورة هائلة في سيرورة المؤتمر الذي اختاره رئيساً دائماً له بالإجماع، ثم انطلق في رحلة استمرت سبعة أشهر طاف فيها عدداً من البلدان الإسلامية، والتقى الكثير من القادة والمفكرين الإسلاميين، وجمع الأموال، واستجاش العواطف، واستثار العقول من أجل هذه القضية الكبرى التي خانها من خانها، وتآمر عليها من تآمر، فلسطينياً وعربياً وإسلامياً ودولياً.

وكان يكاتب الملوك من أجل هذه القضية، ومن أجل قضايا المسلمين الأخرى، فقد كتب إلى الملك سعود، والملك محمد الخامس، والملك إدريس السنوسي، والرئيس السوداني والرئيس الباكستاني محمد أيوب خان، والملك فيصل وسواهم.

وكان يراسل ويلتقي رجال الإسلام، ويدعوهم إلى التعاقد على نصرة الإسلام والمسلمين حيث كانوا، وخاصة القضية الفلسطينية، ويدعوهم إلى الجد في العمل، والإخلاص فيه، وأن يكون هدفهم الأول استرجاع فلسطين العزيزة، وأن يبذلوا في سبيلها كل غال ونفيس، وكان يخاطب العاملين لنصرة فلسطين بقوله:

«إخواني لا تهتموا بالمال، فإن الناس متى علموا صدق أعمالنا ونياتنا، فسوف يحملون المال على أطباق فوق رؤوسهم، ويأتون به إلينا».

وقد بدأ وإخوانه يجهزون المتطوعين بجميع مستلزماتهم، وكلهم كانوا يطلبون الإسراع بالتوجه إلى ساحة الشرف، ليكون لهم الشرف في حماية أرض الإسلام من أرجاس اليهود ومن والاهم من أعداء الله والمسلمين.

وفاته:

توفي الشيخ عصر يوم الجمعة، الرابع عشر من شعبان ١٣٨٧هـ - ١٧/ ١١/ ١٩٦٧ وشُيّع جثمانه من داره في حي الوزيرية ببغداد، إلى مثواه الأخير في مقبرة الإمام الأعظم في حي الأعظمية في بغداد، وحضر الجنازة كل من تناهى إليه خبر نعيه، فقد أجمعت سائر فئات الشعب العراقي على محبته، فبكته وبكت فيه الرجولة والعلم والجهاد حتى آخر نفس من أنفاسه الطاهرة، رحمه الله رحمة واسعة.

المراجع:

- الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي، لكاظم المشايخي.

- من سجل ذكرياتي، لمحمد محمود الصواف.

- صفحات من تاريخ الدعوة الإسلامية في العراق، لمحمد محمود الصواف.

- العلامة المجاهد الشيخ أمجد الزهاوي شيخ علماء العراق المعاصرين، لمحمد محمود الصواف.

- ذكرياتي: للشيخ علي الطنطاوي.

- في أندونيسيا: علي الطنطاوي.

- رجال من التاريخ: علي الطنطاوي.

* * *

أنور الجندي
الكاتب، الأديب، العالم الموسوعي

تمهيد:

- من أنت؟

- أنا محامٍ في قضية الحكم بكتاب الله، ما زلت موكلاً فيها منذ بضع وأربعين سنة، منذ رفع هذه القضية، الإمام الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عاماً، للناس، حيث أعد لها الدفوع، وأقدم المذكرات، بتكليف، بعقد وبيعة إلى الحق تبارك وتعالى، وعهد على بيع النفس له، والجنة، سلعة الله الغالية، هي الثمن لهذا التكليف.

وتابع الأستاذ أنور الجندي معرفاً بنفسه:

- إنني محامٍ للدفاع عن ميراث هذه الأمة.

إنني محام لتصحيح المفاهيم، وكشف الزيف والشبهات عن فكر الإسلام.

إنني محام للدعوة إلى الله، ونشر كلمة لا إله إلا الله في العالمين.

وأسأل الله أن أموت مجاهد الكلمة، شهيد الحق.

هذا هو أنور الجندي، كما قدّم نفسه.

الميلاد والنشأة:

ولد أنور الجندي عام ١٩١٦ في مدينة ديروط -محافظة أسيوط- في أسرة مسلمة مؤمنة ملتزمة بدينها، عاملة بتعاليمه، مؤدية لعباداته، متخلقة

بأخلاقه، فوالده كان يتاجر بالأقطان، ولكنه كان يحب الثقافة والمثقفين، وعلماء الدين، وكان وطنياً يجاهد بماله، ويدعو إلى الجهاد ويحب المجاهدين، ويتابع الأحداث الوطنية والعربية والعالمية.

وكان جده لأمه قاضياً شرعياً، ويشتغل بتحقيق التراث.

تعليمه:

حفظ القرآن في كُتّاب القرية.

ثم درس في كلية التجارة، ونال شهادتها ثم واصل دراسته الجامعية في المساء حيث درس الاقتصاد والمصارف وإدارة الأعمال، وتخرج في الجامعة الأمريكية مجيداً للغة الإنكليزية التي درسها خصيصاً ليستطيع متابعة ما يثار حول الإسلام من شبهات من الشرق والغرب، ويرد عليها.

فقد حمل على كاهله مقاومة التغريب والغزو الفكري، وكان بالمرصاد لدعاة التغريب، يكشف زيفهم، ويهتك سترهم، بلغوا من المكانة ما بلغوا.

في الصحافة:

بعد تخرجه في الجامعة، عمل في الصحافة التي أحبها وهو ما يزال فتى، وكتب فيها وعمره سبعة عشر عاماً، فقد نشر في مجلة (أبولو) التي كان يصدرها الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي سنة ١٩٣٣ وكانت قد أعلنت عن مسابقة لإصدار عدد خاص عن حافظ إبراهيم، فكتب أنور مقالة نشرتها أبولو، وكان يفخر بها، لأن المجلة ما كانت تنشر إلا لكبار الكتاب:

«ما زلت أفخر بأني كتبت في أبولو وأنا في هذه السن (١٧ سنة) وقد فتح لي هذا باب النشر في أشهر الجرائد والمجلات آنئذ، مثل البلاغ، وكوكب الشرق، والرسالة وغيرها من المجلات والصحف».

كان الأستاذ الجندي من رواد الصحافة الإسلامية في مصر، فقعَّد لها، وشرح أصولها، فقد كان يؤمن بالكلمة المكتوبة، كما يؤمن بالكلمة المسموعة.

عمل في جريدة الجمهورية، وكان عضواً في نقابة الصحفيين المصرية.

وكان يراسل ويكتب في عشرات الصحف والمجلات المصرية والعربية والإسلامية.

المؤثرات في حياته:

١- أول هذه المؤثرات، تلك البيئة الصالحة التي ولد في أحضانها، ونشأ وترعرع، حيث المسجد، والقرآن، والصلاة، والكتّاب، والفقيه..

٢- القرآن العظيم الذي حفظه وهو فتى، وبقي متعلقاً به طوال حياته.

٣- السنة والسيرة.

٤- «الإسلام بمفهومه الأصيل، كما كشف عنه الأستاذ الإمام حسن البنا، بما فهم الأوائل فيه عودة إلى المنابع».

وكان تأثير الإمام فيه قوياً جداً.

٥- مسألة الغزو الفكري والتغريب التي يراها كبرى قضايا العصر، وأول تحديات النفوذ الأجنبي الذي أفسد الأجيال التي تأثرت به، عن طريق الاستشراق والماركسية والصهيونية، وهي جميعاً تنفث سمومها في تلك الأجيال، من أجل القضاء على الهوية الإسلامية..

وقد تصدى لذلك الغزو، الذي شغل من نفسه وفكره وعقله وقلبه ما لم يشغله شيء آخر.

صفاته:

حباه الله صبراً جميلاً، وبالاً طويلاً، جاداً، فحياته عمل متواصل، ولا يضيع أوقاته، كان يصلي العشاء ثم ينام ساعتين أو ثلاثاً، ثم يستيقظ ليصلي القيام، وبعد الفجر ينام ساعتين، ثم يستيقظ لقضاء الحاجات اليومية، فيشتري الفطور والجرائد وكل ما يلزم البيت.

وكان زاهداً في هذه الدنيا، وكان يطبع كتبه بما يأخذه من الناشرين،

ومنزله مليء بالكتب، وهو عبارة عن شقة بسيطة جداً في شارع عثمان محرم بمنطقة الطالبية بالجيزة وهو حي شعبي مليء بالضجيج، فهو من فقراء المسلمين.

لم يسع إلى منصب، ولا إلى مال، ولا إلى الشهرة والأضواء، يكتفي بالقليل من الطعام الذي يقيم أوده، ويخدم نفسه بنفسه، كما يخدم جيرانه، ولم يكن يوماً عبئاً على أحد من أقربائه أو زملائه أو جيرانه، وكان يحب الخير لهم، وكانوا يحبونه، ويتفاءلون به، ويعدونه من أهل الله، وعلى باب الله، وكان مجاهداً بلسانه وقلمه، وداعياً إلى الإسلام ومكارم الأخلاق بسلوكه الملتزم بأوامر الله، المنتهي عما ينهاه الله عنه، وعن كل ما يخدش المروءة.

وكان متواضعاً، ويشهد على تواضعه وزهده بيته المتواضع، وملبسه، ومأكله، فكان لا يأكل إلا من صنف واحد بسيط.

وكان لا يهتم بالمظاهر، ولا الوسائل، ويهتم بالأهداف والمقاصد..

لم يكن لديه في البيت سخان ولا مروحة، ولا مكتب أو غرفة خاصة للكتابة، فكان يكتب على منضدة صغيرة، ولم تكن له سيارة، بل كان يتنقل بالباصات كسائر الناس البسطاء الفقراء من أهل مصر.

وكان زاهداً بالجوائز، والشهادات، والاحتفالات، وشهادات التقدير، جاءته جائزة كبيرة مرموقة، فأباها وقال:

«إنما أطلب جائزتي الكبرى من ربي.. لا أريد أن آتي يوم القيامة فيقال لي: لقد أخذت جائزتك من فلان».

وقدمت له درجة الدكتوراه الفخرية على أحد مؤلفاته، فأبى مترفعاً وقال بعض المثقفين:

«كل مؤلفاته تستحق مثل ذلك».

وفي مرضه الأخير استـأذنته إحدى الجامعات الاستشراقيـة الكبيرة في الغرب، أن تطلق اسمه على إحدى قاعاتها الكبرى، فرفض ذلك قائلاً:

«لقد حاولوا شراء هذا القلم من قبل فما استطاعوا، ولن أمكنهم اليوم من ذلك أبداً».

وكان سمحـاً في تعامله مع سائر الـناس، يبذل لهم من ماله ووقـته العزيز عليه، ومن راحتـه، ويعتبرهم بمثابـة أولاده، ويعتبر نفسه مـسؤولاً عنهم أمام الله، حتى إنه كـان يحمل جرار المياه عـند انقطاع الماء، ويضعهـا أمام شقق جيرانه، حـتى لا تفوتهم صلاة الفجـر، وإذا انقطع التيار الكهـربائي، أعطاهم الشموع..

وكان عابداً.. يبدأ يومه بصلاة الفجر، ثم تلاوة ما تيسّر من آيات الكتاب العـزيز، ثم بالصـدقة.. وكـانت مواعيـد طعامـه هي مواقـيت الصـلاة، فكان الإفطار بـعد صـلاة الفجـر، والغـداء بعد صـلاة الظهـر، والعشـاء بعـد صلاة العصر.

يتوجه للنوم بعد صلاة العشاء، فيرقد سـاعتين، ثم يستيقظ لصلاة التهجد حتى الفجر.

كان لا يأكل ولا يكتب إلا متوضئاً، وكان يردد: الوضوء سلاح المؤمن.

وفي أيامه الأخـيرة، كانوا إذا قدّموا له كـوباً من الماء ليشرب، تـوضأ بما فيه من ماء. وإذا دهمه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان لا يخاصم أحداً لدنيا، بل كانت خصومته لله، وحبّه في الله ولله.

وكان كريماً، يكرم أضيافه ولا يتكلف، يلقـاهم بوجهه المشرق بابتساماته العذبة، ويقدّم إلـيهم ما يمكنه تقديمـه.. وكان يترك باب منزله مفـتوحاً دائماً ليلجه كل سائل ومحتاج..

وإذا أهدوا إليه ملابس فاخرة، أو أقمشة وأجـواخاً ثمينة، أهداها لتلاميذه

ومحبيه، وبقي في لباسه القديم الخشن، وهو قليل أيضاً.

أهدته ابنته الوحيدة الحاجة فائزة حذاء جديداً ليستبدله بالقديم، فأعرض عنه، وقال لها:

«هذا حذاء الملوك. أما حذاء الأنبياء فهذا» وأشار إلى حذائه القديم.

وكان حلو المعشر، رقيق العبارة، ذكي النفس والقلب، ينصح بحكمة ورقة، ولا يزجر ولا يؤنب، يصبر على الأذى، ويحسن إلى من يسيء إليه.

وكان حريصاً على الوقت، فما كان يضيعه في سهرات أو جلسات طويلة ضحلة الفائدة. بل كان (يستغلّ) وقته حتى وهو في معتقل الطور بالواحات، أيام عبد الناصر، ويقبل على المطالعة والكتابة.

وقد وصفه الأستاذ حسن عاشور سكرتير تحرير مجلة الاعتصام -ردّ الله غيبتها- بحق فقال:

«فهو الداعية الذي لم تلن له قناة، وهو الكاتب الإسلاميّ الذي لم يُقصف له قلم، وهو المجاهد الفذ الذي لم يتنازل عن مبدأ، أو يساوم على عقيدة، وإنما خرج من المعتقل، وقد ازداد تمسكاً بمبادئه وتشبثاً بعقيدته».

مراحله الفكرية:

مرّ الجندي بعدة مراحل:

١- مرحلة نقد المجتمع فيما بين (١٩٤٠ - ١٩٥٠).

٢- مرحلة معالجة الواقع (١٩٥٠- ١٩٦٤) وفي هذه المرحلة تناول قضايا الوطنية والقومية بقبول ما لبث أن اكتشف زيفه فيما بعد. وفي هذه المرحلة ما فيها من تقية.

٣- مرحلة تمجيد الأمة بتاريخها، وأبطالها، وتراثها، وهذه هي مرحلة سيطرة الشيوعيين على وسائل الإعلام المصرية في عهد عبد الناصر. وقد ارتكب فيها أخطاء في أمور تاريخية، ما لبث أن تراجع عنها.

٤ - مرحلة التأصيل والبناء، وهي مرحلة الاتصال بالدعوة الإسلامية وحركتها الكبرى، وكان هدفه فيها: الدعوة إلى الله على بصيرة، لتكون كلمة الله هي العليا.

من آرائه:

يرى أن العلم أمانة، وأنه مسؤول عما ائتمن عليه وخطَّه قلمه طوال سبعين عاماً على طريق الدعوة الإسلامية.

أحسّ بالخطر يحيط بالإسلام، والقرآن، وتاريخ الإسلام، وبلغة الإسلام والقرآن، وتكشّفت له أبعاد مؤامرة خطيرة ضمن مخطط عنوانه: (حرب الكلمة) بعد هزيمة الصليبيين في حروبهم الظالمة على الإسلام والمسلمين، في دعوة عريضة إلى إعلان حرب ظالمة أخرى، مكملة لحرب الصليب الذي حملوه معهم من الغرب.. وهذه الحملة الصليبية تقوم على تزييف مفاهيم الإسلام، وتدمير قيمه، عن طريق التأويل والتمويه، لإخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة، وتميّزه المتفرد، بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.. وبإيجاد مفهوم لاهوتي يقصر الإسلام على العبادة وحدها، ويحجب دوره الأصيل في بناء منهج متكامل، قوامه السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وسواها من قضايا الحياة..

وكان يميز بين العروبة النقية المؤمنة التي تبنّاها ودعا إليها: شكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ومحمد رشيد رضا، وحسن البنا، وبين العروبة العلمانية القائمة على أفكار قومية مستوردة منحرفة، كتلك التي نادى بها ساطع الحصري، وميشيل عفلق، وأضرابهما.

الغزو الفكري:

لفت نظره كتاب المستشرق جب (وجهة الإسلام) وما سبقه وتلاه من كتابات المبشرين والمستشرقين والمستغربين، وأدرك أن المؤامرة كبيرة على الأمة من خلال هدم الإسلام واللغة العربية، تمهيداً لتمزيق وحدة الأمة التي

لن تكون إلا بالإسلام ولغة القرآن، فانطلق يتصدى لهذه المؤامرة بخطوطها العريضة، وبالتفصيلات الدقيقة التي يلمحها المتتبع الحصيف في ظلال الكلمات وبين السطور.

لاحظ أن المناهج الغربية تعمل على تعرية الشخصيات الإسلامية، وتبحث عن الشبهات، وتفصل الأدب عن الدين والأخلاق، وتطلق الفنون والآداب من قيود الأخلاق والأعراف الأصيلة، وتقدم أبطالنا وشخصياتنا بأسلوب يكرّههم للقارئ ويحقّرهم. ففنّد كل ذلك.

ورأى أن طه حسين قمة أطروحة التغريب، ومتولي كبرها، فانبرى له، مفنّداً آراءه التي نقلها عن أساتذته المستشرقين أعداء العروبة والدين، كما تصدّى لمروّجي أفكار فرويد، وماركس، ودور كايم وسواهم من أعمدة مدرسة العلوم الاجتماعية التي كانت تعلي من شأن المعدة والمادة والجنس على حساب القيم.

وتصدّى لأولئك الذين يروّجون لمدرسة تولستوي وغاندي الذين يحاولون دحض فريضة الجهاد، ويدعون إلى الخضوع والاستسلام باسم السلام.

تصدّى لمروّجي الأفكار الشعوبية من المجوس والباطنيين والصليبيين الجدد، والصهاينة، والعلمانيين. أولئك الذين زعموا أن الإسلام دين عبادة، ومكانه في المسجد، ودعوا إلى إبعاده عن السياسة والمجتمع، وأثاروا الخلافات المذهبية الطائفية، وحاولوا توسيع الفجوات بين الطوائف، وزعموا أن الإسلام يختلف بمفهوماته من شعب لآخر (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً)

تصدّى للمستشرقين المخربين ولتلاميذهم من العلمانيين والقوميين من الأتراك والعرب، ولم تأخذه في تعريتهم وتفنيد آرائهم لومة لائم.. أولئك الذين حاولوا التشويش على العقيدة، ثم الطعن بها، وقسموا العلوم إلى دينية لاهوتية، وإلى دنيوية، وكانت حركة الإخوان المسلمين تخوض أعتى المعارك

مع الشيوعيين الذين مكّن لهم عبد الناصر في الصحافة وسائر وسائل الإعلام، وشنّ هو حرباً عليهم تبتغي استئصالهم واستئصال فكرهم من الوجود، وتأثر أنور الجندي بتلك المعركة، وأصابه منها الاعتقال والتضييق، فلجأ إلى (التقيّة) حيناً من الدهر، وصار يكتب ما يكتب وهو يتقي منهم تقاة تقيه الوبال الذي ألحقوه بشيوخ الجماعة ومفكريها وأدبائها ودعاتها، الذين دعوا إلى أن يكون الإسلام منهج حياة، ونظام مجتمع.

المؤتمرات:

شارك الجندي في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات الإسلامية في القاهرة، والرياض، والجزائر، والمغرب، وجاكارتا، ومكة المكرمة، والأردن، والخرطوم، وسواها.

ودعي إلى الزيارة والمحاضرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة العين في الإمارات، ومجمع اللغة العربية الأردني.

وكان يثري تلك المؤتمرات بأبحاثه التي تدعو إلى أسلمة القوانين والمناهج والإعلام، وقد زادت على الثمانين بحثاً.

فلسطين:

أخذت القضية الفلسطينية حيزاً كبيراً من تفكيره، وكتاباته، وأدرك الخطر الصهيوني على الأمة، والأرض، والقيم، وعلى العروبة والإسلام، بسعي اليهود وعملائهم ومواليهم من النصارى المتصهينين في أوربا وأمريكا، لإقامة دولة (إسرائيل الكبرى) من الفرات إلى النيل، وبناء الهيكل المزعوم على أنقاض المسجد الأقصى الأسير.. أدرك هذا، فاستنفر المسلمين في كل مكان لمواجهة هذا الخطر، وأهاب بهم أن يهبّوا لتحرير الأقصى والقدس وفلسطين من بين براثن أشرار الناس.. يهود.. وكان لا يفتأ يذكر المسلمين بأن فلسطين وقدسها وأقصاها أمانة في أعناقهم، وأن الجهاد هو الطريق للتحرير، وليس من طريق سواه.

الكاتب والمؤلف:

لقد أثرى الأستاذ أنور الجندي المكتبة العربية بحوالي ثلاث مئة كتاب، بعضها في عدّة مجلدات، وهي الموسوعات العشر التي ألّفها، وهي:

١ - موسوعة مقدمات العلوم والمناهج: تقع في ٦٣٠٧ صفحات، في عشرة مجلدات من القطع الكبير.

٢ - الموسوعة الإسلامية العربية: تتكون من سبعة مجلدات.

٣ - موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر. وتتكون من ثمانية عشر مجلداً.

٤ - موسوعة التأصيل الإسلامي.

٥ - موسوعة تراجم الأعلام.

٦ - موسوعة معالم تاريخ الإسلام. في عشرة أجزاء.

٧ - موسوعة تاريخ الصحافة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري.

٨ - في دائرة الضوء. وهي موسوعة فكرية مبسطة في الثقافة العامة، تتكوّن من أربعين جزءاً.

٩ - المعلمة الإسلامية: موسوعة إسلامية تعرّف بالإسلام، في ثلاثة مجلدات.

١٠ - موسوعة العلوم الإسلامية.

كانت كتاباته -في البداية- قاصرة على الأدب العربي، والصحافة العربية، ولكنه، منذ عام ١٩٦٠ بدأت اهتماماته تتراحب وتتسع وتتقدم نحو الفكر الإسلامي المعاصر، واشتباكه مع الفكر الغربي بشقيه: الماركسي والرأسمالي، فكتب في الحضارة، والتراث، والاجتماع، والفلسفة، ودعا إلى تنقية الفكر الإسلامي مما لحق به من شوائب الثقافات الشرقية والغربية الغازية. وبعد أن التقى الأستاذ الإمام حسن البنا، فهم أن للكاتب المسلم

رسالة في هذه الحياة، فنذر الجندي نفسه لتلك الرسالة منذ عام ١٩٣٢ وصار يكتب في صحف الإخوان، فاعتقل قبل انقلاب ١٩٥٢ وفي عهد عبد الناصر، الذي ألقاه وإخوانه في معتقل الطور، فأقبل الأستاذ الجندي على المراجع وعلى قلمه وأوراقه، وكتب وكتب وكتب، ولم يأبه لطعام أو لباس أو مال أو زيارات.

وبعد الإفراج عنه، اتخذ التقية أسلوباً له، واستطاع الكتابة في مجلة (منبر الإسلام) وسواها عن التغريب منذ سنة ١٩٦٣

وبعد هلاك عبد الناصر، انطلق إلى تأصيل الفكر الإسلامي، وتقديم البدائل، واستمرّ في هذا، وعلى العديد من المحاور، حتى لقي ربه.

مكتبته:

اقتنى الجندي وقرأ الكثير مما وقعت عليه عيناه من التراث العربي الإسلامي، وعنده مكتبة عامرة بعلوم اللغة العربية، والعلوم الشرعية، وسواها من العلوم، وآلاف مؤلفة من الصحف والمجلات الأدبية والثقافية.

ولديه أرشيف صحفي يضم آلاف الموضوعات السياسية، والثقافية، والفكرية.

ونحن نخشى على مكتبته وأرشيفه من الضياع، كما ضاع غيرها لعدد من العلماء والأدباء والمفكرين، وحبذا المبادرة إلى الحفاظ على هذه الثروة القيمة، بتحويل بيته ومكتبته إلى مكتبة عامة، يستفيد منها الدارسون والباحثون وطلبة العلم، خاصة أنه أوصى أن تصنف كتبه ومكتبته، وتعطى لمؤسسة إسلامية تطرحها لجمهور القراء والباحثين للإفادة منها، أي أن تكون وقفاً للمسلمين.

الرحيل:

مضى الرجل إلى ربه يوم الاثنين ١٤/ ١١/ ١٤٢٢هـ الموافق ٢٨/ ١/ ٢٠٠٢

بعد صراع طويل مع المرض الذي شلّ حركته.. رحل دون أن يدري به أحد، ودون أن تشير وسائل الإعلام إلى وفاته، ونعاه الشيخ يوسف القرضاوي بقوله: «مسكين أنور الجندي. لقد ظلمته أمته ميتاً، كما ظلمته حياً، فلم يكن الرجل ممن يسعون للظهور وتسليط الأضواء عليه، كما يفعل الكثيرون من عشاق الأضواء الباهرة، بل عاش الرجل عمره راهباً في صومعة العلم والثقافة، يقرأ ويكتب، ولا يبتغي من أحد جزاء ولا شكوراً، كأنما يقول ما قال رسل الله الكرام:

﴿وما أسألكم عليه من أجر. إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾.

رحل أنور الجندي عن خمسة وثمانين عاماً أمضاها في طاعة الله، والذود عن الإسلام، وقد خلّف أكثر من ثلاث مئة كتاب، ومكتبة ضخمة فيها ١٨٠ صندوقاً مليئاً بالبطاقات العلمية، وبيتاً متواضعاً، ومسجداً صغيراً أسماه مسجد التوحيد، وبعض المال لتجهيزه إلى مثواه الأخير في هذه الحياة الدنيا. وخلّف رصيداً فكرياً وعلمياً تفخر به الأمة.

ذكر الطبيب الذي كان يعالجه: أنه استقبل القبلة قبل مفارقة الدنيا، وصلى، وقال بصوت مسموع:

«إني فرح بلقاء الله».

«بأبي أنت وأمي يا سيدي يا رسول الله».

المصادر والمراجع: كتبه.

* * *

الشيخ بدر الدين الحسني
محدّث الديار الشامية

تمهيد:

ثمة رجال يموت ذكرهم، وتندثر أسماؤهم وتُمحى، بمجرد موتهم، فكأنهم كانوا عابري سبيل في هذه الحياة، لم يتركوا وراءهم أثراً يدلّ على عبورهم هذه الدنيا، مهما طالت أعمارهم.

وهناك رجال يكونون ملء سمع الدهر وبصره، لا يمرّ يوم من أيامهم، من دون أن يخلّف أثراً حميداً ينضاف إلى آثار حميدة أخرى، تخلّد ذكر صاحبها في هذه الحياة.

ومن هذا النمط الرائع من الرجال، علاّمة الشام، ومحدّثها الأكبر، الشيخ بدر الدين الحسني الذي نقدم جوانب من حياته الحافلة بالعلم والصلاح والسلوك الإسلامي المثالي الذي بلغ به منزلة لم ينلها أحد في عصره، فكان أكبرُ حاكم في البلاد منذ أيام الأتراك حتى يوم وفاته، وأشدُّهم جبروتاً وطغياناً يأتي إليه، ويجثو أمامه على ركبتيه، في غرفته المتواضعة في دار الحديث بدمشق، في هيبة دونها أيّ هيبة.

وقد اشتهر في بلاد الشام كلها وهو ما يزال فتى صغيراً، فتحدث الناس عن عالم مغربي شاب، لا نظير له في الورع، وفي تبحره في علم الحديث.

ولهذه الشهرة ظن بعض الناس أنه بلغ المئة من السنين، بينما هو لم يتجاوز السابعة والثمانين، فطال عمره بأيام الصبا، حتى طبّق الخافقين ذكره وشهرته، ولمع اسمه في بداية القرن الرابع عشر الهجري لمعاناً غطّى على كل

شهرة، فقصده كبار العلماء في عصره ومصره وغير مصره، من أرض الكنانة، ومن البلاد الشامية، والتركية، والعربية، والأجنبية من مسلمين وغير مسلمين، وسارت بعلمه، وفضله، وشهرته، وجميل أخلاقه وأفعاله الركبان.

الميلاد والنشأة:

ولد الشيخ بدر الدين محمد بن الشيخ يوسف المغربي المراكشي في دمشق عام ١٢٦٧هـ-١٨٥١م وهو من أصل مغربي، من ذرية الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان أحد أجداده قد انتقل إلى مصر، وفي قرية بيبان من محافظة البحيرة بمصر، ولد أبوه الشيخ يوسف، ثم رحل إلى تونس، وتعلم في جامع الزيتونة، ثم عاد إلى الشرق، وأقام في دمشق، واشتهر بالمغربي، وكان الشيخ يوسف من كبار علماء دمشق، وقد نشأ الفتى بدر الدين في أحضان ذلك العالم العامل العابد، على العلم والتقى والصلاح والسلوك المستقيم، حتى كان لنا منه ذلك العالم الرباني، كبير المحققين، وأعظم المحدّثين في عصره.

عاش ثمانين عاماً للعلم وبالعلم، وللناس، والأمة، حتى صار المرجع في كل فن، وفي كل أمر خاص أو عام، فقد كان عجيباً في علمه، وإحاطته، واستقامة ذاكرته التي لم تؤثر فيها الأيام، وصار فهرساً حيّاً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب، لا يشغله شيء عن القراءة، إلا أن يكون نائماً، أو في صلاة، أو درس، ما فارق الكتب، وما أحبّ من دنياه سواها.

صفته:

كان ربعة، نحيلاً، أشقر الشعر، أصلع الجبهة، قليل شعر الوجه، خفيف العارضين، مستدير الوجه، في جبهته ارتفاع من أثر السجود، أزرق العينين، فيهما حدّة، وفي وجهه نور، وعليه سيماء المهابة والنجابة، أبيض البشرة، لينّها، حتى قيل في يديه: إنهما كالحرير ليناً، والفضة بياضاً.

وكان قوي البنية، لم يشكُ مرضاً سوى مرة واحدة في شبابه، أصابه فيها

اليرقان، ومرة أخرى قبيل وفاته، ولم يستعمل نظارة، وبقي جهوري الصوت، خفيف المشية، لم يستعمل في مشيه عصا، إذا التفت التفت جميعاً.

يلبس من الثياب الجيّد النظيف، ولا يلبس الذي يميّزه عن غيره. يلبس ثوباً قطنياً أبيض مشقوق الوسط، معلّماً بخطوط زرق من النوع الذي يسميه الدمشقيون (الصايا) أو (الديما) يتركه مفتوحاً ولا يزرّه عند الرقبة، ليضع فيه منديلاً، ويشدّ عليه في وسطه نطاقاً عريضاً من الشال الخفيف العادي، وعلى الثوب جبّة من الجوخ الأسود الجيّد، وكلاهما لا يتجاوز نصف ساقه، اتباعاً للسنّة الشريفة، ويتعمّم بعمامة كبيرة صفراء مطرّزة تُعرف في الشام بـ(الأغباني) يكوّرها فوق طربوش بدون تكلف.

ويلبس جوربين سميكين أبيضين، وبابوجاً أصفر، تزينه نظافة واضحة.

طبائعه وأخلاقه:

كان للشيخ في سائر أحواله طبائع وأوضاع خاصة لا يتخلّى عنها؛ فهو منظم؛ ينظّم عمله، ويرتب أوقاته، فلا يغيّر منها شيئاً، ولا يقدّم ولا يؤخّر، فكان من الممكن معرفة الوقت الذي يمّر به من الطريق الفلاني، والوقت الذي ينزل فيه من غرفته في أثناء النهار. وهكذا سائر أوقاته.

كان يؤثر الصمت، فإذا تكلم أوجز، فهو لا يحبّ كثرة الكلام، ولا الثرثرة، ولا التشدّق، لأن في ذلك إضاعة للوقت في غير فائدة، وهو حريص جداً على الوقت الذي هو الحياة.

وما كان الشيخ يحب التكلف والتصنع في أي أمر من الأمور، ولا قصّ القصص الفارغة، وسرد الأخبار التافهة، والحوادث اليومية التي تجري مع سائر الناس.

وكان يحبّ من الناس الذكي السريع الفهم، ويضيق بالغبي والبليد، ولا يتحملهما؛ يحرص على تقديم ما يفيد الناس، واستغلال ساعات العمر

ولحظات الحياة، وتقسيم الأوقات، وتخصيص كل قسم لعمل مفيد، وكان يراقب نفسه، ويحاسبها على خواطرها وهواجسها، وملاحظة كل خطوة تخطوها، وكل كلمة تفوه بها، وكل سطر تخطّه.

كان حادّ الذكاء، متوقد الذهن، قويّ الذاكرة، يتذكر بسهولة جميع ما مرّ به من حوادث، وبقي هكذا إلى أن لقي ربّه راضياً مرضياً إن شاء الله.

وكان صادقاً، صريحاً، جريئاً في الحق، لا يعرف المداهنة والملق والغيبة والنميمة والكذب وسواها من الأمراض التي تخدش الدين والمروءة، دائم الصمت والتفكُّر، ولا يسمح في مجلسه بغيبة أو نميمة، وإذا غضب قال في ألم: «لا حول ولا قوة إلا بالله يابا» و(يابا) هي الكلمة التي تدور على لسانه في الرضا والغضب.

وكان تقياً، شديد الورع، لا يفتي أحداً بحكم فقهي في المعاملات الخاصة إلا في حالات خاصة، ويحيل سائليه إلى تلاميذه.

وكان متواضعاً، لا يرى لنفسه فضلاً على أحد في علم أو خلق، وكان يقول: «التواضع أن ترى نفسك دون كل جليس» ومن شدّة تواضعه، أنه كان لا يصلي إماماً بأحد، ويأتمّ بتلاميذه، ولا يتصدر في المجالس، بل كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، وكثيراً ما كان يجلس قرب باب الغرفة. وكان يقول: «أقرب أبواب الوصول إلى الله: التواضع» و«من رأى نفسه خيراً من أحد، فليس بمتخّلص من الكِبْر» ولهذا لم يكن يمكّن أحداً من تقبيل يده، رغم حرص تلاميذه على تقبيلها.

وكان يمنع الناس من القيام له،ولا هو يقوم لأحد إلا نادراً، كأن يكون القادم عليه من آل البيت، أو من ذوي الفضل في الدين.

ولا يمكّن أحداً من خدمته، ولم يستعن طوال حياته بأحد، ولا بعصا.

يأخذ نفسه بالعزائم، فلم يمسح على الخفين قط، وكان يكسر الجليد الذي يغطّي بركة داره، ويتوضأ من مائه، ويبالغ في وضوئه.

وكان زاهداً في هذه الدنيا التي أقبلت عليه فعافها وانصرف عنها إلى ما يصلح به آخرته، فقد ترك له أبوه ثروة تمكنّه من حياة الرفاه، فزهد بها، كما زهد بالجاه والمنصب والوظيفة الرفيعة.

وكان يتحرج من قبول الهدية، وكان يكافئ عليها بما هو أكبر منها.

وكان كريماً جداً، يكرم ضيوفه ويبالغ في إكرامهم، ولا يسأله أحد شيئاً إلا أعطاه، وإذا أحسّ بأحد حاجة ولم يذكرها، انفرد به وأعطاه، وكانت له صدقات مستورة لا يعلمها إلا بعض تلاميذه الذين يستخدمهم في إيصالها إلى مستحقيها.

وكان مع أهله كما قال الرسول العظيم ﷺ: (خيركم خيركم لأهله) يرشدهم برفق ولين، ويأكل مما يشتهون، ويوسّع عليهم، ويلبّي رغباتهم، وإذا غضب لشيء قطّب جبينه، وبيّن رأي الشرع في ذلك الأمر، دون ضرب أو شتم، أو صياح، يصل الأرحام، والأصدقاء والمعارف، وربمّا زار غير المسلمين، ويتودّد للناس، ويهتم بأمورهم، ويحاول إدخال السرور إلى قلوبهم، والتخفيف من أعباء الحياة عن كواهلهم، بالكلمة الطيبة، والنصح والإرشاد.

وكان يتودّد إلى الشباب خاصة.

وكان طيّب السريرة، حسن الظنّ بالناس، يلتمس لهم الأعذار، ويبش لهم، ويرحّب بهم، ويبدؤهم بالسلام، وابتسامته الودود لا تفارق محيّاه المشرق بالأنس.

كان يصوم الدهر ولا يفطر إلا في الأيام التي يحرم صيامها.

وكان يكثر من الصلاة، ومن الذكر، ومن الصلاة على النبي الكريم ﷺ، وكان يجمع بين العلم والذكر، يتقرب بهما إلى الله تعالى.

وكان يلازم صلاة الضحى، فما تركها في سفر أو حضر، ولا في يوم

وفاته، فقد توفي بعد أدائها بنحو ساعة.

وبكلمة: كان عالماً عاملاً ربانياً، ومن سادة العلماء العبّاد على الزمان.

من أبرز صفاته:

اهتمامه بالفقراء والمحتاجين، والعمل لرفع الظلم عنهم، وإنصافهم.. كان يقّدم لهم، ولا يأخذ منهم، وشتان بين من يثري على حسابهم، ومن يعطيهم عطاء من لا يخشى الفقر.

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، إذا أرادوا أن يكونوا ذوي أثر في حياة الجماهير..

كان يضع أكياس السكر والرز بجانب باب داره، ليأخذ المحتاج منها ما يشاء.

وكان يزور الفقراء والمساكين والمساجين، يباسطهم، ويأنس بلقائهم، ويطلب منهم الدعاء، وينصحهم، ويزور دور الأيتام، ويمسح رؤوسهم، ويطلب منهم أن يدعوا له، ويقدّم لهم الهدايا في الأعياد.

علمه:

إذا عرفنا دار الحديث الأشرفية بدمشق التي تخرّج فيها كبار العلماء، كابن الصلاح، وأبي شامة، والنووي، والحافظ المزي، والسبكي، وابن حجر، هؤلاء العلماء الذين عمروها بالعبادة والذكر والعلم، ثم عرفنا أن الشيخ بدر الدين تخرج في هذا الصرح العلمي المؤثل، يزول العجب مما وصل إليه علم هذا العالم الرباني الذي كان خير خلف لهم، فقد حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة. وحفظ طائفة كبيرة من المتون في شتى العلوم الشرعية والعربية بلغت عشرين ألف بيت، ثم درس تلك العلوم دراسة تحقيق وتدقيق على والده العلامة الشيخ يوسف، وعلى علماء دمشق، وخاصة العلامة الشيخ أبا الخير الخطيب.

وبعد أن نال حظاً وافراً من تلك العلوم الإسلامية، انجذب بنور قذفه الله في قلبه إلى علم الحديث، فتبحّر فيه، حتى غدا منقطع النظير في حفظ الكثير الكثير منه، بسنده ومتنه، وبتعدد طرقه ورواياته، وقد حبّب هذا العزلة إلى نفسه، ليخلو إلى الحبيب: علم الحديث، يقضي الليالي معه في غرفته بدار الحديث، التي ما كان يغادرها إلا للنوم، وكان نومه قليلاً. . كان يقرأ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد، فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل، ثم يهبّ إلى وضوئه، ليتهجّد ما شاء الله له أن يتهجد، ثم يجلس إلى كتب الحديث، حتى حفظ الصحيحين بأسانيدهما، وطائفة كبيرة من كتب الأسانيد والسنن.

كان الشيخ مولعاً بالمطالعة منذ كان فتى، وشدّة حبّه للمطالعة جعلته يعتزل الناس، ويؤثر الكتاب على الاختلاط بهم، ينكبّ عليه، ويلتهم ما فيه من ثمرات العقول، يجالسه ويناجيه ويضمّه إلى صدره، فإذا اضطر إلى زيارة ما، اختصرها في بضع دقائق، وربما قضى الزيارة دون أن يجلس، وإذا تكلم أوجز، وربما تكلم بنصف كلمة، وأكملها بإشارة، لأنه يؤثر الصمت على الكلام إلا مضطراً.

وكان معلّم نفسه وأستاذها، يخلو إليها وإلى الكتب الكبيرة، يطالعها، ويفكر فيما يقرأ، ويتأمل، ويحفظ، وقد أوتي ذاكرة عجيبة ساعدته في حفظ الكثير من كتب الحديث والمتون وسواها مما تقع عليه عيناه، وتطوله يداه.

وكان غرامه باقتناء الكتب المطبوعة والمخطوطة لا يضاهيه إلا غرامه بالصيني.

كان يشتري الكتب النادرة بأثمان باهظة، حتى بلغ به الأمر أن يشتري كتاباً بخمس مئة دينار ذهبي. كان الكتاب جليسه، وأنيسه، وحبيبه، وصاحبه الأثير، وصديقه الصدوق.

وكانت مطالعاته موزعة بين العلوم الشرعية، والعلوم العربية،

والرياضيات، والكيمياء وسواها من العلوم العصرية التي جعلت مكتبة تقوم في صدره ورأسه، كما تحتوي الأقراص المضغوطة الآن آلاف الكتب والمجلدات الضخمة، أو كما وصفه العلامة محمد رشيد رضا بأنه دائرة معارف.

مكتبة منقطعة النظير، بما تحويه من علوم ومعارف قلما تجتمع لرجلٍ.

وكان لديه كتب نفيسة، مخطوطة ومطبوعة، في الحساب، والهندسة، والجبر، وكتبٌ مترجمة، مما يندر وجودها لدى غيره من العلماء، وفي المكتبات.

تآليفه:

في هذه الخلوة مع نفسه، وقد امتدت سبع سنين، بين الثالثة عشرة والعشرين من عمره المديد المبارك- ألّف كتبه ورسائله، وكتب حواشيه، وقد زادت على أربعين.

من فتاواه:

سئل الشيخ عن الدعوة إلى الإسلام في البلاد الأوربية، فأجاب مستغرباً هذا السؤال، وكأنه لا يحتاج إلى جواب، لوضوحه وبديهته. قال:

- هذا فرض على المسلمين. وإنما شُرع الجهاد لهذا الغرض.

وسئل عن حكم تعلم اللغات الأجنبية، فأجاب:

- تعلُّم اللغات الأجنبية يكون فرضاً، لأجل الترجمة، ونصيحة العباد، بتعليمهم ما ينفعهم.

ثم أيّد فتواه من الحديث النبوي، مما يحفظه من صحيح البخاري وغيره، وأكّد لزوم الترجمان في القضاء، إذا لم يعرف الحاكم لغة أحد الخصمين، وذكر حكم الأئمة الأربعة في الاكتفاء بترجمان واحد لأجل الترجمة، أو لزوم ترجمانين اثنين لذلك، باعتباره شاهداً.

وكان يرى ضرورة السفر إلى أوربا لتحصيل العلم النافع الذي يحتاج إليه المسلمون، ويشجّع على السفر.

كما كان يرى وجوب الاطلاع على العلوم الحديثة التي يستفيد منها المسلمون، فقد سبقنا الأوربيون وتفوّقوا علينا فيها وبها، ووجب علينا تحصيلها.

تدريسه:

درّس في دار الحديث، العلوم الرياضية على اختلاف فروعها، مثل عمليات الحساب، ونظريات الهندسة المسطحة والمجسّمة (الفراغيّة) ومعادلات الجبر، كما كان يدرّس الحديث، والتفسير وغيرهما من العلوم الشرعية والعربية، وكان يضع إلى جانب المجلدات الضخمة، عدداً من الأشكال الهندسية، كالكرة ,والأسطوانة، والمخروط، والموشور، وسواها من الأدوات.

كما كان يدرّس الكيمياء، ويعدّ فيها بعض المباحث، وفي تجارب الطبيعة، وكان يتمتع بمرانة علمية غريبة في هذا الموضوع.

أما طرائقه في التعليم، فكانت على ثلاثة أشكال، ولكل شكل مكانه:

الأول: يبدأ من بعد طلوع الشمس إلى ما بعد صلاة العصر. كان فيها يقرأ الطالب في الكتاب الذي يدرّسه، وقد يقرأ الشيخ نفسه، وكلما انتهى من قراءة مسألة، عاد إليها الشيخ شارحاً، وموضّحاً، ومقرراً، وحالاً لمشكلاتها، ويناقش الطلاب فيها، حتى إذا انتهى الوقت، أشار الشيخ إليهم لينصرفوا.

ومكان هذا الدرس، غرفته في دار الحديث، وكان الطلاب يؤمونها، فكان يجتمع في الدرس الطالب والطالبان والعشرة، ولا تخرج مجموعة إلا وتدخل مجموعة أخرى.

الشكل الثاني: هو درسه في المسجد الأموي تحت قبة النسر كل يوم

جمعة، من بعد صلاة الجمعة إلى العصر. وهذا الدرس آية الآيات، وأعجوبة الأعاجيب في تنوع موضوعاته، وتشعّب أغراضه، وتسلسل أحاديثه، وغزارة مادته، وجليل فوائده، على حدّ وصف الأستاذ محمد المبارك الذي كان يحضره، كان الشيخ يستفتحه بحديث يسرده بسنده ومتنه، ثم يشرحه، ويبين مرماه وهدفه وما يستنبط منه من الأحكام، وما يتصل به من شتَّى الموضوعات، مستنداً في كل ما يورده من المعاني والأفكار والأحكام، إلى الأحاديث التي يعزوها إلى مراجعها، مع ذكر سندها، ورواتها، وهو في كل ذلك، لا يعتمد على ورقة أو كتاب، مع فصاحة وبلاغة وحسن بيان، فقد كان جهوري الصوت، يملأ صوته فضاء الأموي، وتتردد أصداؤه في جنباته، فيسمعه ويعيه سائر مستمعيه.

ودرسُه هذا، مع تشعّب موضوعاته، وكثرة استطراداته، مرتبط الأجزاء، متسلسل الأفكار، تربطه وحدة في الموضوع، بحيث لو جُمع لخرجت منه عدّة أبحاث طلية متسلسلة.

وأعجب ما يتجلى في هذا الدرس، الذاكرة العجيبة التي حباه الله إياها.

وكان الشيخ يختار موضوعات هذا الدرس الأعجوبة، مما له علاقة بأحوال الناس، ومما يشغل بالهم، وتهمّهم معرفته، أو أنه كان يرى وجوب تنبيههم إليه.

وكان الشيخ، في هذا الدرس، يرتفع عن مستوى العوام، ولكنهم كانوا يفهمونه ويستوعبونه، كما يستفيد منه المثقفون والخواص.

الشكل الثالث: يكون في داره الواسعة التي تُفتح لقاصدي درسه من بعد صلاة المغرب، فيدخلها من شاء، ليجلس أنّى شاء، ثم يأتي الشيخ ويجلس إلى جانب الباب، ولا يسمح بقيام أحد لمجيئه، ثم يأمر المعيد بالقراءة، فيقرأ إلى أن يشير إليه الشيخ بالتوقّف، أو تشكل على أحد مشكلة، فيقف ليسمعوا جميعاً حلّ الإشكال، بإيجاز أو إسهاب، وربما أفاض الشيخ في

الكلام، وقد تُوجَّه إليه أسئلة كثيرة، فيجيب عليها، وربما أعرض عن بعضها، وخاصة إذا كان خارج الموضوع الذي هو فيه، وربما أجاب بقوله: لا أعلم، وهذا الجواب من أعظم ميزاته، ودليل على تواضعه وصراحته.

غرفته:

كانت الغرفة التي يجلس فيها الشيخ، ويستقبل فيها طلابه وبسطاء الناس، وكبار زواره من الولاة والقادة الأتراك المرعبين، كناظم باشا، وجمال باشا (السفاح) ومن الأمراء والملوك، كالملك فيصل الأول، ملك سورية، ومن الحكام والجنرالات الفرنسيين المحتلين، من أمثال غورو، وويفان وساراي، وجونفيل، ومن أمثال مندوب البابا في الفاتيكان، وسواهم من كبار الكتّاب، والصحفيين، والشعراء، والعلماء، وطلبة العلم، والوجهاء..

كانت تلك الغرفة صغيرة، ذات رفوف خشبية تكدّست فوقها الكتب العربية والإسلامية..

غرفة صغيرة، ضئيلة النور، مفروشة بالبسط والحصر، وجلود الغنم، وكلها من صنع أبناء دمشق، وسقفها الواطي اصطفت فوقه أعمدة الحور من أشجار غوطة دمشق، وجدرانها بيضاء مصقولة بالجصّ..

رحلاته:

كان الشيخ يؤثر البقاء في دمشق، ولا يغادرها إلا مضطراً.

رحل مرّة إلى مدينة (حمص) سنة ١٢٩٠هـ بعد خروجه من خلوته فأقبل عليه أهلها إقبالاً شديداً، وقرأ بعضهم عليه.

ورحل إلى مصر، وهو في الخامسة والعشرين والتقى بعض علمائها، كالشيخ الأشموني، رفيق أبيه في طلب العلم، والشيخ إبراهيم السّقا، علامة مصر وشيخ الأزهر، ولعله أخذ علم الحديث عنه واستجازه.

ورحل إلى الحجاز حاجاً ومعتمراً، والتقى بعض علمائه.

مكانته:

احتلّ الشيخ قلوب تلاميذه ومريديه وعارفي علمه وفضله، وعلت مكانته لدى العامة والخاصة من المشايخ والعلماء والوجهاء والحكام في بلاد الشام، حتى إن بعض العامة من أهل دمشق، حين اشتدّ بغي الحكام الأتراك من (الاتحاديين) الظالمين المنحرفين، عرضوا على الشيخ البيعة بالخلافة، والثورة معه على أولئك الظلمة، ولكنّ الشيخ أبى ذلك، وزجرهم.

أمّا عند الحكام، فقد تبوّأ مكاناً عليّاً، وكانت له هيبته في نفوسهم جميعاً.. كانوا يقبلون عليه، وكان زاهداً بهم، لا يسعى إليهم، ولا يرغب في زيارتهم إياه، وإذا دعوه ليكرموه اعتذر وأبى، وكان يكاتب الملوك والأمراء والحكام في سائر الأقطار العربية والإسلامية، يحثّهم على العدل، وإحقاق الحق، ويبين لهم سوء العاقبة بترك الشريعة، واتّباع الأهواء، والظلم.

دعاه السلطان عبد الحميد لحضور حفلة كبرى تقام في عاصمة الخلافة، وأرسل إليه الصدر الأعظم نائباً عنه ليدعوه، وركب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) بارجة حربية وجاء إلى بيروت، ومنها إلى دمشق، وذهب بصحبة الوالي إلى غرفة الشيخ ليدعوه، وتلطّف الوالي بالشيخ لقبول الدعوة، ولكنّ الشيخ اعتذر قائلاً للصدر الأعظم والوالي:

«يابا ما في إذن».

وعاد نائب السلطان خائباً.

وبعد خروج الصدر الأعظم والوالي بساعة، جاء وفد من أهل قرية (الهامة) أرسله رجل صالح يقال له: الشيخ أحمد السوسي، وهو رجل فقير يؤمّ أهل الهامة، ودعا الشيخ إلى الهامة، فلبّى الدعوة فوراً، وخرج مع الوفد.

وتكرر الاعتذار مع السلطان رشاد حين دعاه إلى العاصمة، كما تكرر مع إمبراطور روسيا: القيصر نيقولا.

وكان جمال باشا (السفاح) يهابه، ويحاول استرضاءه، وكان الشيخ يحذره من الظلم ومن التمادي فيه، وعندما أعدم جمال السفاح شهداء أيار، حزن الشيخ حزناً شديداً عليهم، وعافت نفسه الطعام أياماً، وأصيب بحمّى لازمته حوالي أربعين يوماً، وكان إذا صحا سأل من حوله:

- شنقهم جمال؟ أعدموهم؟

واشتدت عليه الحمَّى حتى خيف على صحته وحياته.

كان يهتم بالمسلمين حيثما كانوا، ويحزن على ما يصيبهم.

وما كان يزور الحكام، وإذا احتاج إليهم في شأن عام، أرسل إليهم رسولاً من تلاميذه، يستقبله الحاكم بالتجلة والاحترام، وينفّذ ما أمر أو أوصى الشيخ بتنفيذه.

«وممّا يروي عامة الناس في مدينة حلب، من عجيب تأثير الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله تعالى، أنه عندما زار مدينة حلب، ألقى في النساء درساً خاصاً في المسجد الأموي، حضرته ألوف من النساء، فدعاهنّ بقوة إلى نوع من الحجاب، ويبدو أنه ربط بين الحجاب الشرعي، وبين نية المستعمر إخراج المرأة المسلمة عن دينها وحيائها وسترها، فخرج النساء في مدينة حلب في اليوم التالي، يلبسن من الملاءات البيضاء السابغة، وكان حجابهم باللون الأسود».

المحرك الأول للثورة:

عاصر الشيخ أواخر العهد العثماني، وشهد الانحرافات والمظالم على أيدي الاتحاديين المشبوهين، وشهد ظروف الحرب العالمية الأولى، وكانت قاسية مريرة، فيها ظلمٌ، وقتلٌ، وفقرٌ، وجوعٌ، فكان يأسى لحال الناس،

ويسأل عن أسعار أقواتهم، وهمومهم، ويتصل بالحكام ليدفع عنهم ألوان الظلم والقهر.

وعندما قرر الفرنسيون احتلال سورية، أرسل ولده الشيخ تاج الدين، وتلميذه المفتي الشيخ عطا الكسم لقتال الغزاة الفرنسيين في (ميسلون).

ولما وصل الجنرال الفرنسي الغاشم (غورو) إلى دمشق، وأراد مقابلة الشيخ، رفض الشيخ مقابلته، وحضّ الناس على عدم دفع الضرائب للفرنسيين، وعدم التعامل معهم، وكان يعلن في دروسه العامة، أن الجهاد صار فرض عين على كل من يستطيع حمل السلاح واستعماله.

ثم قام بجولته المشهورة على المحافظات السورية، بصحبة تلميذه الواعظ النجيب الشيخ علي الدقر، وكان الشيخ يطوف المدن السورية، متنقلاً من مدينة إلى أخرى، ومن بلدة إلى أخرى، حاثاً على الجهاد، وحاضّاً عليه، وكان يقابل المجاهدين، ويغذّيهم بآرائه، وينصح لهم بالخطط الحكيمة، فكان أباً روحياً للثورة والثائرين المجاهدين.

وكان من تلاميذه المجاهدين الأبطال: الشيخ محمد الأشمر وحسن الخراط اللذان يأتمران بأوامره، وينفذان تعاليمه، ويعملان بنصائحه في المعارك التي خاضها المجاهدون في الغوطة ودمشق. وكان خادم الشيخ بدر، عبد الله الأفغاني، يشترك بالحملات، ثم يرجع إلى (دار الحديث) من أجل خدمة البدر.

«إن البطولة الحقة، والجهاد الحق، إنما كان من الإسلام، وبالإسلام، وبطريق الإسلام الذي كان متمثلاً في قائد الثورة الشيخ بدر الدين الحسني وتلامذته الأتقياء الأصفياء المجاهدين». كما قال الأستاذ شوقي أبو خليل.

وقدّر الرائد إحسان هندي في كتابه (كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨-١٩٤٨ دراسة عسكرية تاريخية) الدور الكبير الذي نهض به الشيخ بدر الدين، في الثورة السورية عامة، وفي ثورة المجاهدين في دمشق وفي

الغوطتين خاصة، وهو لا يقل أهمية ووطنية عن أدوار الذين حملوا السلاح، فقد كان الشيخ المحرك الأول للثورة في أوساط تلاميذه ومريديه، حتى بلغ الأمر بالشيخ علي الدقر أن ينهي إحدى خطبه في جامع السنانية بدمشق بقوله:

«يا إخواننا. اللص دخل الدار، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم، ومالكم، وعرضكم.

ولمّا سأله أحد المصلين: ومن هو هذا اللص يا شيخي؟

أجاب الشيخ: فرنسا».

في أيامه الأخيرة:

كان الشيخ حتى آخر نفس من أنفاسه الطاهرة، محتفظاً بكامل عقله ووعيه وجميع حواسه، فكان يتحدّث إلى عائديه وطلابه بطلاقة.

وفاته:

توفي الشيخ صباح يوم الجمعة، الثامن والعشرين من شهر حزيران ١٩٣٥م ونعاه المؤذنون من فوق المآذن الكثيرة في دمشق، كما طار نعيه إلى أنحاء العالم الإسلامي، فبكته دمشق.. رجالها ونساؤها وأطفالها، وتجمعت دمشق أمام بيته، وفي الحارات والطرق والشوارع المحيطة به.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم الحزين، بدأت الجنازة المهيبة، وتقدَّم النعش عدد كبير من رجال الشرطة والدرك بالسلاح الكامل المنكس، والعلماء، والمشايخ، وسار خلفه نائب رئيس الجمهورية السورية، والوزراء، وكبار رجال الحكومة، ورؤساء الطوائف المسيحية، وصلّى الناس على الجثمان الطاهر في المسجد الأموي الكبير الذي ضاق وصحنه الواسع، والشوارع المؤدية إليه بالمصلين والمشيعين.

وبعد الصلاة على جثمان الشيخ، تابع الموكب سيره إلى مقبرة (باب الصغير) حيث ووري الثرى في مثواه الأخير في هذه الدنيا الفانية.

وقد أبّنه في المقبرة الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي ورثاه بقصيدة، وقال في كلمته:

«إن الشام قد فقدت محدّث الدنيا وعلّامة العصر الذي حفظ علوم الإسلام وفلسفته حقّ حفظها، فكان لها، خلال تسعين عاماً، الحافظ الأمين. مات الرجل العظيم الخالد على الدهر.. مات التقيّ النقيّ الناصع الذي لم ينله شيء من أوزار الدنيا، لأنه كان كالسحاب، ولا ينال السحاب عثير التراب».

ثم تحدّث عدد من العلماء.

وحمل الناس أكثر من مئتي إكليل من الزهر إلى القصر الجمهوري، من جهات شتّى، ولم تُحمل مع الموكب، تنفيذاً لوصية الشيخ الراحل بأن يكون تكفينه وتشييعه بصورة شرعية بعيدة عن أيّ مخالفة شرعية.

ونكّست الأعلام على جميع الدوائر الرسمية.

حفلات التأبين:

أقيمت للشيخ حفلة تأبين كبرى على مدرج جامعة دمشق، بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته، وشُكّلت لجنة كان من أعضائها كبار علماء دمشق، كالشيخ بهجت البيطار، والشيخ المجاهد محمد الأشمر، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ الدكتور معروف الدواليبي، والأديب نوري الحكيم.

وخطب في الحفلة الشيخ عبد القادر المغربي، رئيس المجمع العلمي العربي، والشيخ بهجت البيطار، والأستاذ عز الدين التنوخي، والشاعر خليل مردم بك، وسواهم، وتليت كلمات لكبار رجالات العالم الإسلامي.

وقد سجّلت الصحافة وقائع تلك الحفلة الكبرى على صفحاتها الأولى. وقد وصفته -بحق- الجمعية السورية العربية «بإمام الأتقياء والمجتهدين، وعمدة الفصحاء والمحدّثين، شيخنا الإمام الأعظم» كما أقيمت له حفلة تأبين أخرى في حلب.

وفي باريس أقيمت للشيخ حفلة تأبين كبرى. أقامتها الجاليتان: العربية والإسلامية في فرنسا، للتعبير عن عواطفها تجاه (عالم الإسلام الأوحد) وألقيت فيها كلمات وقصائد، استمع إليها الجمهور الحزين في قاعة المحاضرات في المعهد الإسلامي في باريس، وحضرها سفراء الدول العربية والإسلامية، ومندوبون عن الدول الأوربية، وغطتها الصحافة العربية، وكان مندوبوها هناك، وكذلك الصحافة الفرنسية خاصة، والأوربية عامة.

المراجع:

١- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري / الجزء الأول. محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة.

٢- رجال من التاريخ: علي الطنطاوي.

٣- ذكريات: علي الطنطاوي.

٤- الإسلام وحركات التحرر العربية: شوقي أبو خليل.

٥- كفاح الشعب العربي السوري ١٩٠٨-١٩٤٨: إحسان هندي.

٦- عالم الأمة وزاهد العصر. محمد رياض المالح.

٧- العارف بالله الشيخ بدر الدين الحسني: محمد عبد الرحيم.

٨- الأعلام: خير الدين الزركلي.

٩- الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة. د. محمد حسن الحمصي.

١٠- رسالة المسجد في سورية. د. عبد المجيد البيانوني.

١١- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق -المجلد ١٣- الأعداد: ٥ و٦ و٧ و٨ لعام ١٣٥٤هـ.

١٢- مجلة حضارة الإسلام -السنة ٤- العدد: ٦.

* * *

الإمام
بديع الزمان النورسي
باعث الإسلام في تركيا الحديثة

تمهيد:

قلة قليلة تلك التي تعرف شيئاً ذا بال عن الشيخ المجاهد العالم العامل بديع الزمان النورسي، وهو من هو علماً ومكانة في تاريخ تركيا الحديثة التي شهدت وما تزال تشهد تطورات خطيرة منذ بداية القرن العشرين، وما تزال آثاره حتى الآن يتفاعل بها المجتمع التركي المعاصر، الأمر الذي حدا بي إلى كتابة هذا التعريف الموجز ليكون بمثابة المدخل إلى شخصيته.

المولد:

ولد سعيد النورسي الملقب بـ (بديع الزمان) في قرية (نُوْرس) الواقعة شرقيَّ الأناضول في تركيا عام (١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧م) من أبوين صالحين كانا مضرب المثل في التقوى والورع والصلاح، ونشأ في بيئة كردية يخيم عليها الجهل والفقر، كأكثر بلاد المسلمين في أواخر القرن الماضي، وبدايات هذا القرن. وإلى قريته (نُوْرس) يُنْسَب.

علمه:

وقد بدت عليه أمارات الفطنة والذكاء منذ طفولته، ولمّا دخل (الكُتّاب) وتتلمذ على أيدي المشايخ والعلماء بهرهم بقوة ذاكرته، وبداهته، وذكائه، ودقّة ملاحظته، وقدرته على الاستيعاب والحفظ، الأمر الذي جعله ينال الإجازة العلمية وهو ابن أربع عشرة سنة بعد أن تبحّر في العلوم العقلية والنقلية

بجهده الشخصي، فقد حفظ عن ظهر غيب، ثمانين كتاباً من أمّات الكتب العربية كما حفظ القرآن الكريم في وقت مبكر من حياته الخصبة الحافلة.

عكف على دراسة العلوم العصرية، أو العلوم الكونية الطبيعية، (رياضيات، وفلك، وكيمياء، وفيزياء، وجيولوجيا) والجغرافيا والتاريخ والفلسفة الحديثة وسواها من العلوم، حتى غدا عالماً فيها، ومناظراً فذّاً للمختصين بها، وصار له رصيد ضخم من المعلومات، مكّنه من الانطلاق من مرتكزات علمية سليمة.

كان طالب العلم سعيد النورسي شديد الاحتفال والاشتغال والتعلّق بالفلسفة والعلوم العقلية، وكان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها، كأكثر أهل الطرق الصُّوفية، بل كان يجهد لإنقاذ عقله وفكره من بعض الأسقام التي أورثتها إياه مداومة النظر في كتب الفلاسفة.

مع القرآن الكريم:

في عام ١٨٩٤ تناهى إلى سمعه أن وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) وقف في مجلس العموم البريطاني، وهو يحمل المصحف الشريف بيده، ويهزّه في وجوه النواب الإنكليز، ويقول لهم بأعلى صوته:

«مادام هذا الكتاب موجوداً، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان. لذا، لا بدّ لنا من أن نعمل على إزالته من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به».

فصرخ العالم الشاب سعيد النورسي من أعماقه:

«لأبرهننّ للعالم أجمع، بأن القرآن العظيم شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها».

رؤيا صادقة:

ورأى النّورسيُّ رسولَ الله ﷺ في الحلم، وسأله أن يدعو الله له: أن

يفهّمه القرآن، ويرزقه العمل به، فبشّره الرسول الكريم ﷺ بذلك، قائلاً له:

«سيوهب لك علم القرآن، شريطة ألا تسأل أحداً شيئاً».

وأفاق النورسيُّ من نومه، وكأنما حيزت له الدنيا.. بل.. أين هو من الدنيا، وأين الدنيا منه.. أفاق وكأنما حيز له علم القرآن وفهمه، فقد آلى على نفسه ألا يسأل أحداً شيئاً، استجابة لشرط رسول الله ﷺ، وقد وهبه الله ما تمنَّى، وصار القرآن أستاذه ومرشده وهاديه في الدياجير التي اكتنفت تركيا الكمالية.

بديع الزمان في مهبّ الأعاصير:

نستطيع تمييز مرحلتين في حياة الإمام سعيد النورسيّ:

الأولى: مرحلة سعيد القديم، وتبدأ من مولده حتى نفيه إلى بلدة (بارلا) عام ١٩٢٦ و هذه المرحلة هي مرحلة الإعداد الذاتي لنفسه، ومرحلة العمل الفردي، وخوض المعارك السياسية، مدافعاً عن الخلافة، وعن القرآن والإسلام، مهاجماً أعداء الإسلام وأعداء الخلافة وأعداء القرآن.

- وفي هذه المرحلة سافر إلى إستانبول عام ١٨٩٦ ليقدم مشروعاً لإنشاء -جامعة إسلامية- حديثة في شرقي الأناضول -بلاد الأكراد- وأطلق عليها اسم (مدرسة الزهراء) لتكون على منوال (الأزهر) في مصر، غير أنها تختلف عن الأزهر بتدريس العلوم الحديثة إلى جانب العلوم الشرعية والعربية، وذلك من أجل النهوض بالأكراد المسلمين المهملين الذين يفتك بهم الجهل والفقر والتخلف. ولكنّ النورسي لم يلق قبولاً من السلطان عبد الحميد ومن وزير داخليته.

- وفي عام ١٩٠٧ سافر مرة أخرى إلى إستانبول، للغرض ذاته، وقابل السلطان عبد الحميد، وانتقد الاستبداد ونظام الأمن واستخبارات القصر (يلدز) فأثار عليه حاشية السلطان، وأحالوه إلى محكمة عسكرية.

وكان النورسيّ في منتهى الشجاعة في التعبير عن رأيه أمام القضاة

العسكريين، الأمر الذي جعل رئيس المحكمة يحيله إلى الأطباء النفسانيين، للتأكد من سلامة قواه العقلية، وكانت لجنة الأطباء مؤلفة من طبيب تركي، وآخر أرمني، وثالث رومي ومن طبيبين يهوديين (!!!) وبعد تداولها بشأن سعيد قررت وضعه في مستشفى (طوب طاش) للمجانين (!!!).

وعندما حضر طبيب نفساني إلى المستشفى، لفحص قواه العقلية، بادره النورسيّ بحديث رائع عميق يأخذ بالألباب، فما كان من الطبيب إلا أن يكتب في تقريره:

«لو كانت هناك ذرّة واحدة من الجنون عند بديع الزمان، لما وُجد عاقل واحد على وجه الأرض».

مع وزير الداخلية:

ثم أحيل النّورسيّ إلى وزارة الداخلية، وكان الحوار التالي بينه وبين وزير الداخلية الذي حسب أن النورسي كسائر من عرف يمكن شراؤه بثمن بخس، فلطالما اشترى الوزراء علماء بدراهم معدودة، فكان الوزراء والعلماء السائرون في ركابهم، كارثة على الشعوب والمبادئ والقيم.

قال له الوزير في فرح وطمأنينة: إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

قال بديع الزمان في شموخ: لم أكن أبداً متسول مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضونه عليّ ليس سوى رشوة السكوت.

قال الوزير مهدداً: إنك بهذا تردّ الإرادة السلطانية، والإرادة السلطانية لا تردّ.

أجابه بديع الزمان بتحد: إنني أردّها، لكي يستاء السلطان ويستدعيني عند ذلك أستطيع أن أقول له قولة الحق.

قال الوزير متوعداً: إن العاقبة ستكون غير سارة.

قال بديع الزمان في استهانة: تعددت الأسباب والموت واحد، فإن أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علماً بأنني عندما جئت إلى إستانبول كنت واضعاً روحي على كفي.. اعملوا ما شئتم، فإني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتباً، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلا بترك المصالح الشخصية فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

ذعر الوزير من كلام الشيخ، ومن صرامة موقفه، فقال له في لين:

- إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حالياً.

فتساءل بديع الزمان: إذن فلمَ يتأخر نشر المعارف، ويُستعجل في أمر المرتّب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة؟.

مع قره صو:

- ثم ذهب بديع الزمان إلى (سلانيك) مقرّ يهود الدونمة ومشتقاتهم من جمعية (الاتحاد والترقي) و(الماسونية) وسواهما، والتقى عدداً من شخصيات (الاتحاد والترقي) الذين كانوا يطمعون في كسب النورسيّ العبقري إلى صفهم، وكان ممن التقاهم: (عما نوئيل قره صو) رئيس المحفل الماسوني، وعضو مجلس المبعوثان (أي النواب) العثماني، وكان قره صو يطمع في النورسيّ، ولكنّ المقابلة بينهما لم تطل، لأن قره صو فرّ هارباً من اللقاء، وهو يقول:

«كاد هذا الرجل العجيب - النّورسيّ- يدخلني في الإسلام، بحديثه».

و(قره صو) هذا هو أول صهيوني ماسوني عمل على خلع السلطان عبد الحميد وإلغاء الخلافة.

شموخ الإيمان:

- وفي هذه المرحلة اتّهم النُّورسيُّ فيمن اتّهم بحادثة ٣١ مارت (١٣/ ١٩٠٩/٤) وسيق إلى المحاكمة، ورأى في الساحة خمسة عشر رجلاً معلّقين على أعواد المشانق، ظنّاً من القضاة أن هذا المنظر سوف يرهبه.. قال له الحاكم العسكري خورشيد باشا:

- وأنت أيضاً تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يطالب بها يشنق هكذا (مشيراً بيده إلى المشنوقين)..

فقام بديع الزمان سعيد النورسي وألقى على سمع المحكمة كلاماً رائعاً نقتطف منه:

«لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام، فقد قلت: إنني طالب علم، لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلاّ بملة الإسلام.. إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه (السجن) في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة لا لتسمعوا أنتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله: ألا لقد حان للسرائر أن تنكشف، وتبدو من أعماق القلب، فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها.

إنني متهيّء بشوق لقدومي للآخرة.. وأنا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين عُلّقوا في المشانق. تصوّروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب إستانبول ومحاسنها، فاشتاق إليها.. إنني مثله تماماً في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا يعتبر عقوبة. إن كنتم تستطيعون فعاقبوني المعاقبة الوجدانية. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، أمّا الآن فإنها تعادي الحياة، وإذا كانت الحكومة هكذا؛ فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم..».

وفي جلسة واحدة فقط صدر حكم ببراءة بديع الزمان سعيد النورسي من تلك المحكمة الرهيبة التي شنقت العشرات.

المجاهد:

- أسس بديعُ الزمان (الاتحادَ المحمديّ) في سنة ١٩٠٩ رداً على دعاة القومية الطورانية، والوطنية الضيقة، كجمعية الاتحاد والترقي، وجمعية تركيا الفتاة.

- انضمّ إلى (تشكيلات خاصة) وهي مؤسسة سياسية عسكرية أمنية سرّيّة، شُكّلت بأمر السلطان محمد رشاد قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، من أجل المحافظة على أراضي الدولة العثمانية، ومحاربة أعدائها. وكان قد انضمّ إلى هذه المؤسسة كثير من المفكّرين والكتّاب، وكان النورسيّ من أنشط أعضاء قسم (الاتحاد الإسلامي) فيها، وأصدر مع عدد من العلماء (فتوى الجهاد) التي تهيب بالمسلمين أن يهبّوا للدفاع عن الخلافة.

- وفي هذه المرحلة سافر إلى مدينة (وان) عام ١٩١٠ وبدأ يلقي دروسه ومحاضراته، متجوّلاً بين القبائل والعشائر الكردية، يعلّمهم أمور دينهم، ويرشدهم إلى الحق.

- وفي سنة ١٩١١ سافر إلى دمشق، وألقى في المسجد الأموي خطبته الشهيرة باسم الخطبة الشامية التي وصف فيها أمراض الأمة الإسلامية، ووسائل علاجها.

- وفي سنة ١٩١٢ عُيّن بديع الزمان قائداً لقوات الفدائيين الذين جاؤوا من شرقي الأناضول، من الأكراد خاصة.

في الأسر:

- وفي سنة ١٩١٦ تمكّنت القوات الروسية من الدخول إلى مدينة (أرضروم) التركية، وقد تصدّى النورسيّ وتلاميذه المتطوعون للقوات الروسية، وخاضوا عدة معارك ضدّها، ثم جرح النورسي جرحاً بليغاً، ونزف نزفاً شديداً كاد يودي بحياته، الأمر الذي اضطرّ أحد تلاميذه إلى إعلام القوات الروسية بذلك، فاقتادوه أسيراً، وبقي في الأسر في (قوصطرما) سنتين

وأربعة أشهر، ثم تمكّن من الهرب من معسكرات الاعتقال، إثر الثورة البلشفية في روسيا.

عزة المؤمن:

وذات يوم قدم هناك إلى المحكمة الحربية بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي.

أما قصة ذلك فهي:

كان خال القيصر القائد العام للجبهة الروسية (نيكولا نيكولافيج) يزور معسكر الأسرى فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا (سعيد النورسي). لاحظ القائد العام ذلك، فرجع ومرّ ثانية أمامه.. فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف أمامه وجرت هذه المحاورة الطريفة بينهما بوساطة مترجم للقائد:

- الظاهر أنك لم تعرفني؟

- بلى.. لقد عرفتك. إنك نيكولا نيكولافيج، خال القيصر، والقائد العام في جبهة القفقاس.

- إذن فلمَ تستهين بي؟

- كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وبماذا تأمرك عقيدتك؟

- إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيماناً، والذي يحمل في قلبه إيماناً هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو أنني قمت لك لكنتُ إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإنني لم أقم لك.

- إذن فإنك بإطلاقك عليّ صفة عدم الإيمان، تكون قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

أمام المحكمة:

شُكّلت المحكمة العسكرية، وقُدّم إليها سعيد النورسي بتهمة إهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي.

ويسود حزن في معسكر الأسرى ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحّين عليه أن يعتذر للقائد الروسي ويطلب العفو منه، إلاّ أنه رفض ذلك بإصرار، قائلاً لهم:

«إنني أرغب في الرحيل إلى الحياة الأخرى، والمثول بين يدي رسول الله ﷺ. لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام، وفي يوم التنفيذ تحضر ثُلّة من الجنود على رأسها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام، ويقوم سعيد النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسيّ:

- أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير.

ثمّ يقوم ويتوضأ ويصلّي ركعتين.

وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

- أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصداً إهانتي ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك، لذا فقد أبطلت قرار المحكمة، وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك، وأرجو المعذرة منك مرة أخرى.

في إستانبول

- في ١٩٨١/٨/٣١ عُيّن عُضواً في (دار الحكمة الإسلامية) التي كانت تضم كبار العلماء والشعراء والشخصيات. وقرّرت الحكومة له مرتباً، ولكنه ما كان يأخذ منه إلا ما يقيم أوده، والباقي ينفقه على طباعة رسائله العلمية

التي كان يوزعها مجاناً.

- وبعد أن احتلّ الحلفاء (الإنكليز والفرنسيون) العاصمة إستانبول، ألّف النورسي كتابه (الخطوات الست) وحكم عليه الحاكم العسكري الإنكليزي بالإعدام على هذا الكتاب، وعلى نشاطه المعادي للقوات المحتلة، وأراد محبّوه إنقاذه، فدعوه إلى (أنقرة) فأجابهم:

«أنا أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة، وليس من وراء الخنادق. وأنا أرى أنّ مكاني هنا أخطر من الأناضول».

في أنقرة

- دُعي إلى أنقرة سنة ١٩٢٢، واستُقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، ولكنه لاحظ أنّ أكثر النوّاب لا يصلّون، كما أنّ مصطفى كمال يسلك سلوكاً معادياً للإسلام، فقرّر أن يطبع بياناً تضمّن عشر مواد، وجّهه إلى النواب، واستهله بقوله:

«يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وكان من أثر هذا البيان الذي أُلقي على النواب، أنّ ستين نائباً قاموا لأداء فريضة الصلاة، والتزموا بالدّين، الأمر الذي أغضب مصطفى كمال فاستدعى النورسي وقال له:

«لاشكّ أننا في حاجة ماسّة إلى أستاذ قدير مثلك، ولهذا دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك السديدة، ولكنّ أوّل عمل قمت به هو الحديث عن الصلاة.. لقد كان أول جهودك هنا هو بثّ الفرقة بين أهل المجلس».

فأجابه بديع الزمان، مشيراً إليه بإصبعه في حدّة:

«باشا.. باشا.. إنّ أعظم حقيقة تتجلّى بعد الإيمان: هي الصلاة، وإنّ الذي لا يصلّي: خائن، وحكم الخائن مردود».

عندها فكّر مصطفى كمال بإبعاده عن العاصمة، فعيّنه واعظاً عاماً

للولايات الشرقية، وبمرتّب مغرٍ، ولكن النورسيّ رفض الوظيفة والراتب، لأنه عالم رباني، وأنىّ للعالم الرباني أن تغريه المناصب والأموال!.

- كتب النورسي ونشر في هذه المرحلة عدّة كتب ورسائل منها: إشارات الإعجاز - والسنوحات - والطلوعات - ولمعات - وشعاعات من معرفة النبي ﷺ وسواها باللغة العربية.

المرحلة الثانية من حياته:

في عام ١٩٢٣ غادر النورسي مدينة أنقرة إلى مدينة «وان» حيث انقطع للعبادة في إحدى الخرائب المهجورة على جبل «أرك» ولم يدرِ شيئاً عن الأعاصير التي تنتظره.

وجاء من يدعوه إلى تأييد ثورة الشيخ سعيد بيران ضد الحكومة الكمالية العلمانية المعادية للإسلام، فأبى تأييدها، لأنها تؤدي إلى اقتتال المسلمين فيما بينهم، وإراقة دمائهم، وهذا لا يجوز شرعاً. ولكنّ هذا الموقف السلبي من ثورة الشيخ سعيد، ، وذلك الانقطاع للعبادة، لم ينجياه من غضب حكومة أنقرة العلمانية -كدأب الحكومات العلمانية مع الحركات الإسلامية ورجالها- فقد أمرت بالقبض عليه، ونقله إلى إستانبول، ومن ثم إلى مدينة «بوردور» ثم إلى «بارلا» في جو بارد من شتاء عام ١٩٢٦ القارس، فقد كان الجو بارداً، ومياه البحيرة متجمدة وأحد جذافي القارب الذي يحمله إلى منفاه في المقدمة يكسّر الثلوج بعصاً طويلة في يده، ليفتح بذلك طريقاً للقارب الشراعي.

وفي «بارلا» بدأت المرحلة الثانية من حياة بديع الزمان، وهي المسماة مرحلة «سعيد الجديد» وقد كانت حافلة بالاتهامات والملاحقات والمطاردات والسجون والمعتقلات والمحاكمات والمنافي، مما لم يمرّ في حياة إنسان وهو صابر محتسب، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، شعاره في ذلك:

«أعوذ بالله من الشيطان والسياسة» التي أنجبت هؤلاء السياسيين

العلمانيين الظالمين الذين ليس لهم إلّ ولا ذمة.

وفي هذه البلدة «بارلا» صنع له أحد النجارين غرفة خشبية صغيرة غير مسقوفة، وضعت بين أغصان شجرة الدلب العالية حيث كان النورسي يقضي فيها أغلب أوقاته في فصلي الربيع والصيف، متعبداً لله، متأملاً متفكّراً، وعاكفاً على تأليف رسائل النّور طوال الليل، والناس يسمعون همهمات العالم العابد المتهجد، ولا يستطيعون الاختلاط به ومحادثته، والإفادة من علمه، لأن هذا محظور عليهم وسوف يكلفهم كثيراً.

أمضى النورسي في «بارلا» ثماني سنوات ونصف السنة، ألّف فيها أكثر رسائل النّور، وهو يعاني من عدّة أمراض، ولا يشتهي الطعام، بل كان يكتفي من الطعام بكُسيرات من الخبز مع قليل من الحساء «الشوربة» ولا يقبل هدية ولا تبرعاً ولا زكاةً من أحد. كان -كما قال عن نفسه- يعيش على البركة والاقتصاد، لأن الاقتصاد والقناعة يعنيان الانسجام التام مع الحكمة الإلهية، والتوافق الكامل معها، وإن من لا يقتصد مدعو للسقوط في مهاوي الذلة ومعرض للاستجداء والهوان، كما أن الاقتصاد سبب حازم لإنزال البركة، وأساس متين للتعايش الأفضل، و"لقد كفاني -هذه الأشهر الستة الماضية- ستة وثلاثون رغيفاً قد خبز في كيلة من الحنطة، ومازال الخبز باقياً، ولا أعرف متى ينفد».

كان يتناول وجبتين في اليوم، يأكل فيهما ما يقوم بأوده، ويحفظ نفسه من الهلاك.

وفي هذه المرحلة كان يؤلّف ويكتب باللغة التركية المكتوبة بالحروف العربية، ويأمر تلاميذه بالكتابة بالحروف العربية، حفاظاً عليها من النسيان، فقد كان أتاتورك ألغى الكتابة بالحروف العربية واستبدل بها الحروف اللاتينية، وكانت هذه الجريمة من أكبر جرائم أتاتورك الذي جيء به لينفذ تعاليم سادته من اليهود والصليبيين.

وقد أسهمت النساء المسلمات العفيفات الصالحات المجاهدات بنسخ الرسائل -الكتب- التي كان يمليها بديع الزمان على بعض تلاميذه في غفلة من الرقباء لأنه كان منفياً وموضوعاً تحت الرقابة، ثم يقوم هؤلاء بتهريبها إلى النساء، ليسهرن في استنساخها، ويقضين الليالي في ذلك، حتى إذا أنجزنها، سارت بها ركبان طلبة النور في طول البلاد التركية وعرضها، حتى عمت سائر المدن والقرى التركية.

ورسائل النور هذه تدعو إلى إنقاذ الإيمان، وعودة الإسلام إلى الحياة، وعودة المسلمين إلى دينهم، وقرآنهم، وتحكيم شرع الله في سائر أمورهم وأحوالهم.

وتصدّى بها للعلمانيين والقوميين والسياسة الميكيافيلية القائمة على التزلف والنفاق والمصالح الشخصية. السياسة التي نحّت الدين جانباً، وولّى أصحابها وجوههم نحو أوربا، والسير في ركابها. ولهذا رأيناه في هذه المرحلة، يقف - بكل قوة- في وجه التيارات الإلحادية الشاملة، برغم ضراوة الهجمة وشراستها، وبرغم ما تعرّض له من نفي وسجن واعتقال واضطهاد، وتضييق.

وهذا يعني، أن شعاره في هذه المرحلة: «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة» لا يعني أنه تخلّى عن السياسة فعلاً، بل أراد به حماية تلاميذه من شرور الأشرار من السياسيين العلمانيين السائرين في ركاب الصهيونية والماسونية وبناتها الفاجرات، ومع ذلك، لم ينج هو ولا تلاميذه من الملاحقة والمحاكمات والسجون التي أطلق عليها النورسي وتلاميذه اسم: المدرسة اليوسفية، أسوة بسيّدنا يوسف عليه السلام.

وقد جاء في قرار اللجنة المدقّقة لرسائل النور في مدينة (دنيزلي):

«ليس لبديع الزمان فعالية سياسية، كما لا يوجد أيّ دليل على أنه يؤسس طريقة صوفية، أو قائم بإنشاء أي جمعية، وإن موضوعات كتبه تدور كلّها

حول المسائل العلمية والإيمانية وهي تفسير القرآن الكريم». وصدق الله العظيم ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

- عندما أطلق سراحه في الخمسينيات، كان في السابعة والسبعين من العمر، وكان يقول لزائريه أو الذين يرغبون في زيارته:

كلّ رسالة - من رسائل النور- تطالعونها، تستفيدون منها فوائد أفضل من مقابلتي ومواجهتي بعشرة أضعاف.

وكان قد طلب أكثر من مرّة من تلاميذه طلبة النور، ألا يربطوا الرسائل بشخصه الضعيف، فيحطّوا من قيمتها، لأنّ للإنسان أخطاء وعيوباً قد سترها الله عليه.

كما كان يدعو تلاميذه إلى عدم التعلّق به، لا في حياته، ولا بعد مماته، فذلك له أضرار جسيمة على الدعوة.. أمرهم أن يتعلقوا بالأفكار الواردة في رسائل النور، وهي أفكار إسلامية صريحة نقية صافية.

- وكان النورسيّ (الذي يحب معالي الأمور، ويسمو بنفسه وروحه وعقله عن السفاسف والترهات) يحبّ أعالي الجبال، وأعالي الأشجار الباسقة الشاهقة، وكان يفضل الصلاة على الصخور المرتفعة، وكان يقول لتلاميذه:

«لو كان فيَّ قوة شبابكم هذا، لما نزلت من هذه الجبال».

لقد كان النورسيّ أمة في رجل، وربّى تلاميذه بالقدوة، وحياته كانت أكبر كرامة.. إنه رجل عصر المصائب والبلايا والمهالك -كما قال عن نفسه- وهو عصرنا، وقد هيّأ الأدوية الناجعة للجروح الإنسانية الأبدية، وقدّمها إليها خلال رسائله وكتبه التي هي من نور القرآن العظيم، تدعو إلى تطهير النفس، وصقل الروح، وغرس الإيمان والإخلاص في النفوس.

وفاته:

توفّي بديع الزمان النورسيّ في الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٧٩ هـ الموافق للثالث والعشرين من شهر آذار ١٩٦٠م تاركاً موسوعة علمية، أدبية، إيمانية ضخمة تسدّ حاجة هذا العصر، وتخاطب مدارك أبنائه، وتدحض أباطيل الفلاسفة الماديين، وتزيل شبهاتهم من أسسها، وتثبت حقائق الإيمان وأركانه بدلائل قاطعة، وبراهين ناصعة، جمعت في ثمانية مجلدات ضخام، هي : الكلمات - المكتوبات- اللمعات- الشعاعات- إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز- المثنوي العربي النوري- الملاحق- صيقل الإسلام. وقد ترجمت إلى اللغات العربية والإنكليزية، والألمانية، والأردية، والفارسية، والكردية والفرنسية، والروسية وغيرها، ودُفن في مدينة (أورفه).

وبعد الانقلاب العسكري في تركيا في ٢٧/ ٥/ ١٩٦٠قام الانقلابيون العسكر بنقل رفات الإمام النورسيّ إلى جهة غير معلومة.

وقد وصف شقيقه الشيخ عبد المجيد النورسيّ نقل رفات أخيه بديع الزمان في مذكراته، بعد خمسة أشهر من وفاته، فقد قالوا له:

«سنقوم بنقل رفات أخيك الشيخ سعيد النورسي من أورفه».

«وقاموا بهدم قبر بديع الزمان، وقلت في نفسي:

«لا بدّ أن عظام أخي الحبيب قد أصبحت رماداً، ولكنْ ما إن لمست الكفن، حتى خيّل إليَّ أنه قد توفّي بالأمس. كان الكفن سليماً، ولكنه كان مصفراً بعض الشيء من جهة الرأس وكانت هناك بقعة واحدة على شكل قطرة ماء».

رحمه الله رحمة واسعة، كفاء ما قدّم للإسلام والمسلمين عامة، وفي تركيا خاصة، فقد كان -وما زال وسيبقى إن شاء الله تعالى- باعث الإسلام في تركيا الحديثة.

المصادر والمراجع: بعض كتبه.

العلماء العزاب: للشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

ذكريات عن سعيد النورسي: أسيد إحسان قاسم.

بديع الزمان النورسي: إحسان قاسم الصالحي.

النورسي متكلم العصر الحديث: د. محسن عبد الحميد.

سعيد النورسي رجل القدر: أورخان محمد علي.

من نجوم الإسلام: ٣ : عبدالله الطنطاوي.

* * *

المجاهد الشيخ البشير الإبراهيمي

إذا ذكرت الجزائر واستعمارها، وجهادها من أجل التخلص من الاستعمار الفرنسي المتوحش.

وإذا ذكر رجالاتها البارزون الذين قادوا نهضتها، وأسسوا لتحررها من أوهاق التخلف والجهل، وانتشالها من دركات الانحطاط التي كانت تتردى فيها بفعل الاستعمار.

تبادر إلى الذهن ثلاثة رجال، وأي رجال، إنهم:

الشيخ عبد الحميد بن باديس.

والشيخ البشير الإبراهيمي.

والأستاذ الفضيل الورتلاني.

ولا يستطيع دارس للجزائر في القرن العشرين، إلا الوقوف عند هؤلاء الرجال الذين كانت لهم أدوارهم الكبيرة في النهوض بالجزائر خاصة، وبالشعب العربي والأمة الإسلامية عامة.

نشأة الإبراهيمي:

ولد محمد البشير الإبراهيمي في الثالث عشر من شوال ١٣٠٦هـ الرابع عشر من حزيران ١٨٨٩ في قرية أولاد إبراهيم، جنوب مدينة سطيف شرق الجزائر، وهو من حفدة إدريس بن عبد الله، مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وأسرته أسرة علم وفضل ودين، اشتهرت بها من قديم.

صفاته:

إنه شيخ وقور، حاد النظرات، أبيض اللون، مربوع القامة، عريض

الجبين، ذو لحية خفيفة مستديرة، حلو الصورة، ظريف المنطق.

وكان مهيباً يحترم العلماء، ويخدمهم ويؤثر مجالسهم على مجالس سواهم، وكان متسامحاً مع الإخوان والبسطاء، أنوفاً عيوفاً شامخاً مع المستكبرين.

وكانت له حافظة نادرة كأنها مسجل لا يفوتها حرف مما يلقى عليها، إلى جانب ذكاء حاد، وعقل حصيف، وذرابة لسان، وفصاحة بيان، وقوة جنان، جعلت منه خطيباً مفوهاً يهز المنابر، وكان من أوفى الأوفياء لإخوانه وأصدقائه وتلاميذه، يقف إلى جانبهم في الملمات.

تحصيله العلمي:

كان والده أول من اعتنى به وبتعليمه مبادئ القراءة والكتابة، وتحفيظه القرآن الكريم، ثم أدخله كتَّاب القرية، وهو ابن ثلاث سنين، ليتعلم قراءة القرآن الكريم ويحفظه، ثم تولاه عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، عالم الجزائر في عصره في علوم النحو والصرف واللغة والفقه، بحيث لا تكون للإجازات العلمية قيمتها الحقيقية في هذه العلوم إلا إذا كانت ممهورة بتوقيعه، وكان طلاب العلم يؤمون مسجده الحافل بهم، لينالوا مما عنده من علوم، وهو يقوم بإيوائهم وإطعامهم.

تسلمه عمه هذا، وكان في السابعة من عمره، ووضع له نظاماً تعليمياً صارماً، وحدد له ساعات النوم والراحة، واستجاب الطفل النابغة لما يريده منه عمه، وساعدته ذاكرته العجيبة على حفظ القرآن العظيم، ثم ألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي في النحو، وألفية الحافظ العراقي في السير والأثر، مع جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقزويني، ورقم الحلل لابن الخطيب، وأكثر رسائل البلغاء الأندلسيين من أمثال: ابن شهيد، وابن برد، وابن الخطيب، مع دواوين المشارقة، كالمتنبي، وأبي تمام، والبحتري، وديوان الحماسة، وحفظ كثيراً من أشعار ابن الرومي، والشريف الرضي،

وحفظ المعلقات، والمفضليات، وأكثر كتب اللغة، مثل كتاب الفصيح لثعلب، وإصلاح المنطق لابن السكيت، وسواها من المتون والقصائد والكتب التي قرأها وحفظها وهو فتى، ومنها موطأ الإمام مالك وبذلك كان استثناء بين ملايين الفتيان، يشير إلى مستقبل علمي مشرق للفتى الإبراهيمي المبشر بالنبوغ المبكر.

واستمر الفتى في تحصيله العلمي، وارتحل وسافر ولقي العلماء والأدباء من أجل ذلك، حتى صار عالماً بالحديث الشريف وروايته، وكان يعطي الإجازات في ذلك، ومفسراً له لمحات وإبداعات جديدة في علم التفسير، وكان معلماً بارعاً للتاريخ العربي الإسلامي يتطرق إلى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق، هذا إلى جانب العلوم اللغوية والشرعية الأخرى، والعلوم العصرية التي كان العلماء يجافونها ويبتعدون عنها، مثل علم النفس.

وكان الذي يرى الإبراهيمي ويسمعه يراه آية من آيات الله، وقد حيزت له سائر العلوم.

المعلم:

فوجئ البشير الفتى بوفاة عمه العالم المربي صاحب الفضل الكبير عليه، وهو في الرابعة عشرة من عمره المبارك، فانبرى الفتى للتدريس، وفرح الوالد بابنه الذي غدا أستاذاً وشيخاً يعلم الناس، فتبرع بإيواء الطلاب الذين يعلمهم ابنه الفتى وبإطعامهم، كما كان يفعل أخوه المكي المتوفى، واستمر على ذلك حتى بلغ الفتى العشرين من العمر.

في مجامع اللغة العربية:

لقد طبقت شهرة الإبراهيمي الآفاق الثقافية والأدبية العربية والإسلامية، وعرف في الأوساط السياسية زعيماً ومجاهداً كبيراً، وعرضت عليه مناصب رفيعة، كمشيخة الأزهر، فأباها كلها في شمم، ورضي منها العضوية في المجامع اللغوية العربية، كالمجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية

حالياً) سنة ١٩٤٥، ومجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٥٤م ومجمع اللغة العربية في بغداد، وكانت ثقة المجمعيين به، وبعلمه، وحفظه، وروايته، وأدبه بلا حدود.

رحلاته:

١- رحلته إلى المدينة المنورة:

هاجر والده مع أسرته إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨م هرباً من الاستعمار الفرنسي وبقي ولده البشير في الجزائر يتابع رسالته التربوية والتعليمية، ثم حن الولد إلى أبيه وأمه، فغادر الجزائر عام ١٩١١م وقد أربى على العشرين من عمره، وكله شوق إلى أسرته وإلى العب من مناهل العلم والدين في الحجاز، مهبط الوحي، وحاضنة الحرمين الشريفين حيث العلماء وكتب العلم.

مر في رحلته بتونس وليبيا، ومصر التي أقام فيها ثلاثة أشهر أمضاها مع العلماء، يرتاد مجالسهم في الأزهر وسواه، ويزورهم في بيوتهم، وليس له من أرب سوى التزود مما عندهم من ألوان العلوم الشرعية والعربية والأدبية، وقد أفاد منهم علماً وأدباً غزيرين، وبهر من لقيه منهم بما حواه صدره ورأسه، وأقروا لهذا الشاب الجزائري بالنبوغ المبكر.

وصل إلى المدينة المنورة أواخر عام ١٩١١م وانطلق إلى حلقات العلم، واختار من بين علمائها من وثق به وبعلمه، وإلى المكتبات العامة والخاصة التي وجد فيها ضالته من الكتب المخطوطة والمطبوعة، وأكبَّ عليها يلتهمها التهاماً، وكان في المدينة يعلم الناس، كما يتعلم من علمائها الثقات.

وفي هذه المرحلة تفتح ذهنه للأعمال العامة، فشارك بآرائه في الحالة السياسية التي تسود الدولة العثمانية، وعلاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم المدني.

٢- رحلته إلى دمشق:

وصل الإبراهيمي إلى دمشق بداية عام ١٩١٧م والتقى كبار العلماء الذين

رحبوا به، وخاصة الشيخ محمد بهجت البيطار، وفي دمشق سطع نجمه، وانشدّ الناس إلى دروسه في المسجد الأموي، فاتصل به واليها المستبد جمال باشا السفاح، وأراد أن يكون في خدمته، يخدم سياسته بلسانه وقلمه، واستطاع الإبراهيمي التخلص من السفاح بحيلة لطيفة، ولكنه استجاب لأمره بأن يكون أستاذاً للغة العربية في المدرسة السلطانية ولم يمض على تدريسه فيها إلا القليل، حتى ذهب السفاح والدولة العثمانية، وصار التعليم في تلك المدرسة كله عربياً، وصار الإبراهيمي أستاذاً للآداب العربية، وتاريخها، وتطورها، وفلسفتها في ذلك المكتب أو المدرسة التي كانت أشبه بالمعهد، وكان الإبراهيمي مستمراً في إلقاء دروسه وخطبه في الجامع الأموي، وفي الندوات العلمية، والمجالس الأدبية، والمنتديات السياسية التي تتناول الأوضاع السياسية في سورية وفي الوطن العربي، وقد طلب منه الملك فيصل الأول أن يعود إلى المدينة المنورة ليتولى إدارة المعارف فيها، فأبى، لأنه كان قرر العودة إلى وطنه الجزائر.

والحق.. كان للإبراهيمي دوره في بناء صرح النهضة في سورية، وكان هو سعيداً بإقامته فيها. يقول «.. فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أقرّ عيناً، وأسعد حالاً».

وكان يوم مغادرته دمشق يوماً مشهوداً سفح فيه أصدقاؤه ومحبوه وتلاميذه الدموع. قال: «ويا يوم الوداع ما أقساك، وإن كنت لا أنساك، لا أنسى بعد ثلاثين سنة، ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة، والأستاذ الخضر "محمد الخضر حسين" يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء.. يقدمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات، ما زلت محتفظاً بها احتفاظ الشحيح بماله..».

٣- رحلته إلى مصر:

وزار مصر مرة أخرى عام ١٩٥٢ن واستقر بها، وعندما اندلعت ثورة

التحرير في تشرين الثاني ١٩٥٤م تضاعف نشاط الشيخ في القاهرة، فكان يلقي الخطب والمحاضرات، ويقدم الأحاديث الإذاعية في إذاعة صوت العرب، شارحاً قضية الجزائر، وجرائم الاستعمار الفرنسي، وداعياً إلى مؤازرة الجزائر في محنتها بالاستعمار الهمجي، وكان يدبج المقالات العلمية والأدبية والفكرية في المجلات والصحف، كما شارك في تشكيل ندوة أدبية اجتماعية فلسفية شرعية في القاهرة، وأطلقوا عليها اسم (ندوة الأصفياء) ضمت عدداً من كبار الأدباء والشعراء والنقاد، من أمثال أحمد حسن الزيات، والشاعر محمد علي الحوماني، والكيلاني، والشوباشي، ودراز، ووافي، وسواهم، وفي هذه الندوة ألقى البشير محاضرته القيمة (مشكلة العروبة في الجزائر).

من مؤلفاته:

١- بقايا فصيح اللغة العربية في اللهجة العامية في الجزائر.

٢- النقايات والنفايات في لغة العرب.

٣- أسرار الضمائر العربية.

٤- التسمية بالمصدر.

٥- الصفات التي جاءت على وزن "فعل" بفتح العين.

٦- نظام العربية في موازين كلماتها.

٧- الاطراد والشذوذ في العربية.

٨- رسالة في ترجيح أن الأصل في الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.

٩- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.

١٠- ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.

١١- حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام.

١٢- شعب الإيمان.

١٣- عيون البصائر في خمسة أجزاء.

١٤- كاهنة أوراس (رواية).

١٥- رواية الثلاثة: وهي مسرحية شعرية تقع في ٨٨١ بيتاً.

١٦- ملحمة شعرية في ستة وثلاثين ألف بيت في تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري والاستعمار.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

التقى الشيخان: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي في المدينة المنورة عام ١٩١٣ وكان لقاؤهما مباركاً، أمضيا فيه العديد من الليالي وهما يتدارسان ما آلت إليه أحوال الجزائر، بسبب الاستعمار الفرنسي، وقد هداهما تدارسهما هذا إلى وضع الأسس الأولى التي قامت عليها جمعية العلماء المسلمين بعد ثمانية عشر عاماً (١٩٣١م) وبذلك يكون الشيخان منظري فكرة تأسيسها، ومطبقيها في الجزائر مع الشيخ العربي التبسي.

وقد كان لهما تأثيرهما الكبير في الحياة السياسية والاجتماعية، وكان إشهار الجمعية بعد عام من الاحتفالات الكبرى التي أقامتها السلطات الاستعمارية في الجزائر، بمناسبة مرور مئة عام على احتلالها، وخطب فيها خطيبها أمام ممثلي الدول الذين حضروا تلك الاحتفالات وقال:

« ..ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار».

الأمر الذي عجل بظهور جمعية العلماء المسلمين هذه، لتكون بالمرصاد لتلك الدعاوى التي زعمت أن الشعب الجزائري العربي المسلم، قد مسخ.

انطلقت الجمعية بعلمائها وأبنائها في تعليم الجزائريين لغتهم العربية، ومبادئ دينهم الإسلامي الحنيف، سواء من كان منهم في الجزائر أو في فرنسا.

واستمرت الجمعية في نشاطها حتى عطلتها السلطات الاستعمارية عام ١٩٥٦م.

وعندما توفي ابن باديس في ١٦/٤/١٩٤٠م اجتمع المجلس المذكور، وانتخب الإبراهيمي رئيساً للجمعية، مع أنه كان منفياً في (آفلو) في الجنوب الوهراني.

وقد تحرك الإبراهيمي -بعد عودته من منفاه- حركة هائلة في طول البلاد وعرضها، مبشراً ونذيراً، يخطب، ويحاضر، ويدرس، ويعلم، لا يعرف كلالاً ولا مللاً، يفتتح المدارس والمساجد، وقد بنيت كلها على طراز إسلامي موحد، بأموال الشعب، وبأيديه الطاهرة، ويقيم الحلقات فيها، ويدعو الناس إلى التمسك بدينهم ولغتهم، وينفرهم من الاستعمار وحضارته وفساده وانحلال أخلاقه، وكان له أكبر الأثر في توعية الناس وتعبئتهم ضد الاستعمار وثقافته، محرضاً على التحرير، وكان شعار الجمعية: «الإسلام ديننا -الجزائر وطننا- العربية لغتنا».

تصديه للاستعمار:

احتلت فرنسا بلاد الجزائر عام ١٨٣٠ ومنذ ذلك الحين، دأبت على فرنسة الجزائر، فأعلنت حرباً شعواء على دينها، ولغتها، وأعرافها وتقاليدها، وفرضت اللغة الفرنسية لغة رسمية للبلاد، زاعمة أن الجزائر جزء من فرنسا، وعليها أن تتمثل لغتها وقيمها وفسادها ومواخيرها، وقد وصف الإبراهيمي الاستعمار الفرنسي بقوله:

«جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت..».

وجاءت فرنسا بجيش من المبشرين الذين يعملون لتنصير المسلمين، وقد قال (لوفبيو) كاتب الجنرال (بيجو) -أحد الجنرالات البارزين في الحملة الفرنسية على الجزائر-:

«إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين».

وقال: «آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح، أما العرب، فلن يكونوا ملكاً لفرنسا، إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً».

يقول الإبراهيمي:

« ..فقد حولت -فرنسا- بعض المساجد الكبرى كنائس، وعمرتها برجال الكنيسة المسيحيين، وناهيك بمسجد (كتشاوة) العظيم الذي حولته (كاتدرائية) عظمى في العاصمة».

وكان من سياسة المستعمرين تمزيق الوحدة الوطنية، بإثارة النعرات القبلية والطائفية، وتهديم دور الثقافة والعلم، إلى غير ذلك من ألوان التخريب التي تصدى لها الإبراهيمي مع إخوانه في جمعية العلماء المسلمين الأمر الذي أثار الاستعمار عليه، فضايقه، وعندما اندلعت الحرب الكونية الثانية، طلبت منه إدارة الاحتلال إلقاء سلسلة أحاديث في الإذاعة الجزائرية، يشرح فيها ويؤيد موقف فرنسا من تلك الحرب، لاستمالة الرأي العام الجزائري نحوها، فأبى الإبراهيمي ذلك، فعاقبته بالنفي إلى قرية (آفلو) في الجنوب الوهراني، ووضعته تحت الإقامة الجبرية في ٦/ ٤/ ١٩٤٠م كما أوقفت ابن باديس عن ممارسة نشاطه في قسنطينة، وقد توفاه الله بعد عشرة أيام من هذه القرارات الجائرة، ولم يشهد الإبراهيمي تشييع جنازة أخيه ورفيق دربه، رحمهما الله تعالى.

وقد تعرض الإبراهيمي للسجون والمعتقلات بتهم شتى، أهمها التحريض على الثورة ضد الاستعمار، وتعرَّض لصنوف العذاب فيها، في كل مرة اعتقل فيها، وكان من أهم القضايا التي تصدى فيها للاستعمار وتحداه: تفنيد مزاعمه وشبهاته حول الإسلام والمسلمين، ودعوته إلى اللغة العربية وعاء الإسلام، والإسلام واللغة العربية هما أهم ما يميزان الشخصية الجزائرية، ويحميانها من الفرنسة والتغريب والتمزيق، ويحررانها من الاستعمار.

قضايا المسلمين:

لم يقتصر جهاد الإبراهيمي ضد الاستعمار على وطنه الجزائر، بل كان يطوف بعقله وجسمه وقلمه بقاعَ العالم الإسلامي، وينتصر لقضايا العروبة والإسلام في كل مكان، في مصر، وفي بلاد الشام، وفي كشمير وأندونيسيا والعراق، وبلاد المغرب العربي كلها، وكانت قضية فلسطين على رأس اهتماماته.

القضية الفلسطينية:

لقد شغلته هذه القضية في وقت مبكر، وعرف خطورة الصهيونية على فلسطين وعلى العالمين: العربي والإسلامي، وشكل مع مجموعة من إخوانه (جمعية إعانة فلسطين) عام ١٩٤٨م، وشكلت لجنة مالية لجمع الهبات والتبرعات تحت إشراف الإبراهيمي، جمعت تسعة ملايين فرنك قديم، وسُلّمت إلى السفير المصري في باريس، ليقوم بتسليمها إلى جامعة الدول العربية، وقامت الجمعية بنشاط واسع لصالح القضية، وبعثت نحو مئة مجاهد ليشاركوا إخوانهم المجاهدين في فلسطين، وكتب الإبراهيمي مقالات نارية رائعة في نصرة الفلسطينيين، نشرها في مجلة (البصائر) عام ١٩٤٨م ومنها (تصوير الفاجعة) و(موقف قرار تقسيمها) و(العرب واليهود في الميزان عند الأقوياء) و(عيد الأضحى وفلسطين) وسواها من المقالات التي شرحت القضية، وفضحت اليهود والصهيونية، ونددت بتخاذل العرب تجاهها.

وحضر الإبراهيمي المؤتمر الإسلامي في القدس ممثلاً للجزائر، وكان في اللجنة التي شكلها المؤتمر برئاسة الشيخ علي الطنطاوي، من أجل الدعاية لفلسطين، وكلفت اللجنة بالطواف على العالم الإسلامي لتعريف المسلمين بالقضية، ودعوتهم إلى دعمها مادياً ومعنوياً.

وفاته:

كان الشيخ يحنّ إلى وطنه الجزائر، ويتطلع إلى عودة كريمة إليه، وقد

تخلص من الاستعمار الفرنسي، ورجع محرَّراً إلى أحضان العروبة والإسلام، وكانت كتاباته تعبّر عن ذلك الحنين، ويضرع فيها إلى الله القدير أن يستجيب دعوته، وقد استجيبت دعوته، ورجع الفارس إلى عرينه، أواخر عام ١٩٦٢ ليلقى الله بعد ظهر الخميس: ٢٠/ ٥/ ١٩٦٥ ودُفن في مدينة الجزائر العاصمة، في مقبرة سيدي محمد، في التالي لوفاته، وشيعته الجموع من شعب الجزائر الذي أحبّه، وبكاه، ورثاه العديد من الخطباء والشعراء. رحمه الله رحمة واسعة.

المراجع:

- البشير الإبراهيمي: نضاله وأدبه - محمد مهداوي.
- الصداقة بين العلماء - محمد بن إبراهيم الحمد.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها: د. محمد رجب البيومي.
- ذكرياتي ج١ وج٥: علي الطنطاوي.
- أعلام وأصحاب أقلام: ج٣، أنور الجندي.
- الموسوعة الحركية، فتحي يكن.
- سجل ذكرياتي: محمد محمود الصواف.
- الأعلام للزركلي.

* * *

الشيخ عبد العزيز بن باز
العالم المجدّد

المولد والنشأة:

ولد الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في مدينة الرياض، في الثاني عشر من شهر ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ الموافق عام ١٩١٠م في بيت علم وفضل وجدّ في طلب الرزق الحلال عن طريق الزراعة، والتجارة.

توفي أبوه وهو طفل صغير، ولهذا فإنه لا يعرفه ولا يتذكر ملامحه.

وتوفيت أمه عام ١٣٥٥هـ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وبموتها فقد الكثير. وهو الكفيف الذي أصيب بالعمى قبل موتها بست سنين، (في مستهل المحرم ١٣٥٠هـ)، ومن في الناس كالأم.

تعليمه:

أول ما بدأ به الفتى عبد العزيز، هو تعلُّم القرآن العظيم، تلاوة وحفظاً، فقد حفظه عن ظهر قلب قبل البلوغ، واستمرّ الشيخ عبد العزيز يحيا في كنفه طوال حياته، فالقرآن هو أنيسه، ومعلمه، وهاديه، ومكوّنه.

ثم تلقى العلوم العربية والشرعية على أيدي عدد من علماء الرياض، وخاصة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالى- فقد قرأ عليه الحديث الشريف، والعقيدة، والفقه، والنحو، والفرائض، والتفسير، والتاريخ، والسيرة النبوية.. نحواً من عشر سنين (١٣٤٧ - ١٣٥٧هـ).

وتابع الشيخ عبد العزيز تحصيله العلمي ذاتياً، حتى صار واحداً من كبار العلماء، بإجماع كبار علماء المسلمين في العالم.

كان الشيخ عبد العزيز فقيهاً حنبلياً في أول طلبه العلم، ولكنه كان واسع الأفق، يأخذ بالرأي الأرجح ذي الدليل الأقوى، كما يأخذ بأقوال الفقهاء، ما دامت أدلتهم من الكتاب والسنة هي الأقوى. فهو فقيه حنبلي، ولكنه غير مقلد.

كان الشيخ عالماً من علماء العصر الذي يحيا فيه، يطالع الصحف، وينقل إليه مساعدوه ملفاً كاملاً عن أخبار العالم الإسلامي، فما كان يفوته حدث مهم، وكان يطلع على ما تنشره وسائل الإعلام، وإذا رأى ما يوجب الردّ عليه، بادر إلى الردّ، لا يخشى في الله لومة لائم، مهما كان صاحب الرأي كبيراً، وهذا ما عرفناه في عدد من الوقائع، مثل رسالته إلى الكاتب الكبير محب الدين الخطيب، رئيس تحرير مجلة الأزهر التي رأى الشيخ عبد العزيز أنها نشرت ما يستوجب الرد، لأن فيها ما يخالف ما دلّ عليه الكتاب والسنة.

والذي يطالع كتابه (نقد القومية العربية) يعرف مدى اطلاع الشيخ على ما يجري حوله وما يضطرب من أفكار خارجة على الإسلام، وفيها من الضلال ما يستوجب الردّ عليه وفضحه.

استفاد الشيخ، في كتابه هذا، من كتب الشيخ محمد الغزالي، والشيخ أبي الحسن الندوي، ومن رسالة التعاليم للإمام الشهيد، رحمهم الله جميعاً، بل لم يكتف بكتب الفكر الإسلامي، فنقل بعض النقول عن الفكر الغربي، مما يدلّ على اطلاعه على ما يترجم من تلك الكتب.

وهذا ما نراه في مطالبته العلماء والمسؤولين، من إعادة النظر في المناهج التي رآها متأثرة بالفكر القومي.. تصدّى لتلك المناهج، وعمل على تغييرها بحيث تكون متفقة مع عقيدة الأمة وإسلامها.

ميادينه العلمية:

كانت العقيدة على رأس اهتماماته، صال في ميدانها وجال، دروساً، وخطباً، ومحاضرات، وكتابات، لتكون عقيدة المسلمين هي عقيدة السلف

الصالح، المستمدة من الكتاب والسنة فالعلم بها وتعليمها، هما العمل المفضَّل لديه، فعليها تقوم سائر العلوم الشرعية الأخرى، وفي صحتها صحة لسائر علوم الدين، وفي فسادها فساد كل تلك العلوم.

وبعدها تأتي علوم التفسير، والحديث، والفقه الحنبلي، غير أنه -كما تقدم- لا يتقيد بالمذهب إذا ظهر له الدليل على خلافه، فالاجتهاد في تقصي الأدلة مفضل عنده، لأن واجب العلماء أن يأخذوا بالدليل من الكتاب والسنة، وفي هذا طمأنينة للقلب، وراحة للضمير، لأنه يأخذ الحكم عن الله ورسوله، لا عن الرجال.

ومنهج الشيخ في بحوثه، يعتمد على ظاهر النص، والتزامه في كل ما يتصل به، ويرى أن النصوص قد تتفاوت في دلالاتها، وهذا يعطيه، كما يعطي غيره من العلماء، حقّ الاجتهاد فيه.

ولهذا نرى الشيخ يحترم رأي مخالفيه، ويقرر أنه لا يجوز للمسائل الخلافية الصغيرة أن تكون عامل تفريق بين المسلمين.

كتبه:

لقد تفوّق الشيخ على نفسه في كثير من الأمور، فلم يستكن للعاهة التي ألمت به، بل تجاوزها كما تجاوز غيرها، ولم تمنعه عاهة العمى عن الخوض في المضامير التي يخوضها المبصرون، ومنها تأليف الكتب، فقد ألف الشيخ وكتب ونشر أكثر من ستين كتاباً ورسالة. ولكنه لم ينشر كل ما كتبه، على أهمية ما كتب وألّف، لأنه يرى أن قيمة النتاج عائدة إلى مدى خدمته للشريعة، ومن ثم للأمة والعباد.

ومن كتبه المطبوعة:

١ - الفوائد الجلية، في المباحث الفرضية.

٢ - نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع.

٣ - الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتّاب.

٤ - الجواب المفيد في حكم التصوير.

٥ - موسوعة الشيخ عبدالعزيز بن باز في خمسة مجلدات.

٦ - الأجوبة المفيدة عن بعض مسائل العقيدة.

٧ - التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة وعلى ضوء الكتاب والسنة. وهذا الكتاب أحبّ كتبه إليه، لما فيه من شرح، وتوضيح لكثير من المسائل التي يخطئ بها كثير من المسلمين، فوضحها لهم، وحذّرهم منها، ونبّههم إليها.

الشيخ خطيباً:

من سمع الشيخ يخطب، شهد له بالبلاغة، والتأثير في سامعيه الذين يقرؤون الصدق والإخلاص والعلم والثقافة الأدبية واللغوية فيما يسمعون، فلديه قدرة كبيرة على ترتيب أفكاره، بحيث لا يشذّ عنها في استطرادات غير مفيدة، ويلحظون ضبطه لعواطفه، حتى لا تطغى على عقله، فتضيع بعض المعاني التي يريد أن يبثّها جمهور مستمعيه، ولا يتجاوز -في سائر خطبه- مفهوم الحكمة والموعظة الحسنة، فيراعي مشاعر المخالفين له في لين، ولا يكون من المنفّرين.

ويلحظ سامعه سلامة لغته وأسلوبه من الخطأ الذي ابتلي به كثير من الخطباء والوعاظ وحملة الشهادات العليا الذين تدور الأخطاء النحوية على ألسنتهم ما دارت ألسنتهم.

ومن أجمل ما اتصفت به خطابته، بُعدها عن التكلف المقيت، فكان أسلوبه الخطابيّ سلساً عذباً، وبليغاً مسدَّداً.

وكذلك كان الشيخ في محاضراته التي كان يركز فيها على الموضوعات الحيوية التي يمسّ بها القلوب والعقول معاً، وكان -عقب كل محاضرة-

يجيب على أسئلة السائلين إجابات واضحات تكون مكملات للمحاضرة.

شمائله:

كان الشيخ من العبّاد، يحافظ على السنن، ويؤدي من النوافل ما شاء الله له أن يؤدي، صلاة، وقياماً، وصياماً.. كان يقوم الليل إلى قريب الفجر، يصلّي، ويستغفر، ويدعو، ويبكي، فقد كان سخي الدمعة، ويقرأ أوراده، ويحرص أن يبقى لسانه رطباً بذكر الله، وكذلك عيناه المطفأتان.

كان عالماً يعمل بما علم، يخاف الله في سرّه وعلنه، فلا يترخّص لنفسه، بل يأخذها بالعزائم.

وكان الشيخ يكثر من الذكر والدعاء والبكاء لدى سماعه القرآن، أو سيرة أحد الصالحين، ويطيل البكاء وهو يروي أو يسمع حديث الخليفة الصديق: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.. وحديث كعب بن مالك في تخلّفه عن غزوة تبوك، وحديث أبي عبيدة والتمرات والحوت، وسواها من الحوادث في سيرة السلف الصالح.

وكان الشيخ تقياً، ورعاً، مسارعاً إلى فعل الخيرات، مواظباً على الطاعات منذ الصغر، وكان المسجد مكانه المحبّب إليه منذ أن بلغ الثالثة عشرة، وكان مخلصاً دينه لله وحده، لا يرجو حمداً وشكراً من أحد لعمل عمله، أو خدمة أداها، فلم يكن من الذين يحبون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا، ولا بما فعلوا، وكان حليماً، جلداً على العمل، يتحمل من الأعباء ما تضوى له وتنوء به أجساد الشباب، همته العالية تتجاوز ضعف الشيخوخة والشيبة، ويتمتع بذوق رفيع، ما أحوج العلماء والدعاة، والمشايخ إليه حتى لا يكونوا منفّرين، وبإحساس مرهف، وكان جواداً من الأجواد، يجود بماله، ووقت راحته، من أجل قضاء حوائج طلبة العلم الذين يفدون إليه من كل فج عميق، يجيب على أسئلتهم، ويحل لهم إشكالاتهم العلمية، ومن أجل قضاء حوائج الفقراء والمساكين، كان يكتب شفاعة لهذا، ويعفو عن ذاك، ويقدم المال إلى

المحتاج إليه، ومن عنايته بالفقراء، أنه كان يخصص لبعضهم رواتب ومساعدات من ماله الخاص حتى بلغ به الأمر أن يخصص مبلغ ألف ريال يرسلها إلى امرأة فقيرة في مجاهل إفريقية، فإذا لم يجد المال، استلف راتباً أو أكثر من رواتبه من أجل ذلك، أو ردهم رداً جميلاً.

ومن تواضعه أنه كان يعنى بالعوام الذين يقبلون عليه، ولا يكادون يفارقونه حتى في طعامه الذي يشاركونه فيه، بل في سائر أحواله، وهو صابر عليهم، ولكلٍّ مشكلته، فهذا يستفتي، وذاك يستجدي، وكان يغضب من أصحابه إذا زجروهم، ويذكرهم بالحديث العظيم (ابغوني ضعفاءكم) حتى وهو على فراش الموت، كتب شفاعة لواحد منهم.

وكان مجلسه مجلس أنس وعلم وذكر، وهو ملتقى الخواص من طلبة العلم، يأتونه لحل ما يشكل عليهم من المعضلات العلمية، فيجيبهم، ويستفيدون من إجاباته، كما يفيدون من سكينته ووقاره، وكثرة صمته، وقلة كلامه ومراعاته لأدب الحديث، وأدب المجلس، فلا يرفع صوتاً، ولا يقهقه، ومن مكارم الأخلاق التي حباه الله إياها: العدل مع مخالفيه في الرأي، وثباته على المبدأ، واستقامته على الحق، وسعة أفقه، وبعد نظره، وثقته العظيمة بالله تعالى، وزهده بالثناء، وتقشفه، وحرصه على السنن، وبشاشة وجهه، وطلاقة محياه، وعفة يده ولسانه، فلم يسمعوه ينتقص أحداً، ولا يعيب طعاماً، ولا ينهر خادماً، ولا يمدح نفسه، ولا يحب أن يمدحه أحد بما فيه، فكيف بما ليس فيه؟

يحسن الظنّ بالناس، ويشتدّ في وفائه لمشايخه وأصدقائه وذوي رحمه، يتفقد أحوالهم، ويقوم بحقوقهم، ويعينهم على متاعب الحياة، لا يعرف الحسد والحقد، ويقابل الإساءة بالإحسان، وغيرته على الدين شديدة، يثور لانتهاك حرمات الله، ولوقوع الظلم على المسلمين ويحب أهل العلم، ويسأل عن أحوالهم، ويكاتبهم، ويتناصح معهم.

وهو دقيق في مواعيده، وهذه الخصلة قلّ من يحافظ عليها من المشايخ والعلماء، وهذا مما يؤسف له جداً. . وهو متفائل دائماً، حتى عندما كانت دموعه تخضل لحيته لسماع خبر مفجع نزل بالمسلمين في أقصى الأرض.

وكان يؤمن بالشورى، وينفذها مع العاملين معه، وليست مجرد ادعاء، كما هي عند كثير من العلماء والزعماء والقادة.

وينكر البدع، ويعدّها عدواناً على حقائق الوحي، وتغييراً لدين الله، وفيها إبعاد للمسلمين عن حقيقة الإسلام العظيم.

وللشيخ ذاكرة قوية أعانته كثيراً في حياته العلمية والعملية.

ومن شمائل الشيخ: دفاعه عن الدعاة حيث كانوا، ولو كان على خلاف معهم في الرأي.

حتى الصوفية، كان منصفاً معهم، وكان يقول عنهم: هم مسلمون فيهم خير وفيهم شر، ونحن نأخذ ما عندهم من خير ونشجعهم على فعله، وننكر ما عندهم من شر ونحذرهم منه.

وكان الشيخ جريئاً في انتقاد الظلم والانحراف، ومواقفه مشهودة في استنكاره إعدام الشهيد سيد قطب، رحمه الله تعالى، وفي إنكاره على القذافي تطاوله على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وكذلك موقفه الجريء من الظالم الهالك سياد بري الذي أحرق عشرة علماء لأنهم استنكروا تطاوله وتطاول زبانيته الشيوعيين في الصومال على شريعة الله.

ولا ينسى العلماء، والطلاب خطبته الجريئة أمام الملك فيصل -رحمه الله تعالى- عندما زار الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ومعه مجموعة من الأمراء. . تحدث الشيخ عن الإعلام السعودي، ودعا إلى ضرورة صيانته من المزالق التي زلق فيها الآخرون الذين لا يستشعرون أي مسؤولية نحو الإسلام، وقد سلك في خطبته هذه مسلكاً حكيماً، عندما جمع بين اللطف والقوة في صراحته المعهودة.

بناء الأجيال:

كان الشيخ يرى أن الأجيال المعاصرة تتعرض لأخطار عظيمة لم ينهض العلماء لتلافيها، مثل مناهج الدراسة التي لا ترتكز على قواعد الإسلام، ولهذا كان لابد من إصلاح هذه المناهج بتحويلها إلى منطلقات إسلامية تتولى بناء شخصية الطالب، وتحصينه من الغزو الفكري وما يعقبه من ضياع عقدي وثقافي، وبالتصور السديد لمهمته في هذه الحياة، والتي من أجلها خُلق، وعلى تحقيقها يجب أن يقف حياته، ألا وهي إعلان حقائق الإسلام، فهي النور الذي لا سلام ولا سعادة إلا في تحققها في المجتمع.

ويؤكد هنا على المعلم الصالح الذي يجب اختباره بعناية.

ويرى أن مسؤولية العلماء تجاه الأجيال الجديدة مسؤولية كبيرة، تفرض عليهم أن يبذلوا كل ما لديهم من طاقات لهذه الغاية، ويؤكد الشيخ على الجانب الإعلامي من وظيفة العلماء الذين يجب أن يكونوا على علم بشتى التيارات الحديثة، وعلى إلمام باللغات التي تحمل هذه التيارات، على أن يسبق ذلك، التضلّع من علوم القرآن، والتزود بمختلف الأدلة العقلية والنقلية، والقرآن العظيم أنجع وسائل الدعوة إطلاقاً، لأنه يخاطب الإنسان كله، عقله وعواطفه ونفسه، وفيه الأدلة المقنعة للفطرة، بأن النظام الإسلامي هو وحده الموصل إلى السعادة في الدارين.

ويرى الشيخ تحصين الأجيال من أخطار البدع والخرافات التي لا تقل أثراً عن أخطر التيارات الهدامة، لأنها تحجب حقيقة الإسلام، وتشوّه ملامحه، فتنفر منه النفوس التي تجهله.

مع المسلمين:

كان الشيخ مهتماً بأمور المسلمين في سائر أنحاء الأرض، محباً لهم، متابعاً لأخبارهم، يمدّهم بالمال، وينصحهم، ويحاول حل مشكلاتهم، وكان يصطفي المتفوقين والأذكياء من المدرسين والخريجين، وينتدبهم لخدمة

الدعوة في بلادهم وغير بلادهم، وخاصة في الهند، وباكستان، والبلدان الإفريقية، ويمدّهم بالكتب التي يراها ضرورية لهم، وبالمصاحف. علماً بأنه لم يغادر المملكة إلى أي بلد من بلدان العالم العربي والإسلامي.

وعندما كان رئيساً للجامعة الإسلامية، كان يجمع الطلاب في مجموعات، ويطلب من كل مجموعة أن تتحدث عما يجري في بلادها، ثم يتساءل عن العمل لحل مشكلاتهم، والتخفيف عنهم.

وكان يستقدم كبار الدعاة في العالم الإسلامي، ليدرّسوا في الجامعة الإسلامية، ويختار منهم أعضاء في رابطة العالم الإسلامي، وفي مجلس الأمناء.

وكان يتألم ويبكي لما يجري في مصر وسورية والعراق، وكوسوفو، وفي الفلبين، وكشمير، فقد كان يواكب الأحداث، ويتعامل مع المستجدات بجرأة يفتقر إليها كثير من العلماء والعاملين في الحقل العام.

ويشهد كل من عرفه، أنه لم يقصّر تجاه أحبائه المسلمين الذين أحبوه، وكانوا يسألون عنه، لما عرفوا من علمه، وإخلاصه، وحبه الخير لهم، والجهاد من أجل نصرتهم.

وفاته:

توفي الشيخ عبدالعزيز في مدينة الطائف، يوم الخميس في ٢٧/ ١/ ١٤٢٠هـ -١٣/ ٥/ ١٩٩٩م وصُلّي عليه في الحرم المكي الشريف، في يوم الجمعة ٢٨/ ١/ ١٤٢٠هـ- ١٤/ ٥/ ١٩٩٩م، ودفن في مقبرة العدل في مكة المكرمة. وشارك الملك فهد بن عبدالعزيز، مع عدد من الأمراء، وحوالي مليون مسلم في تشييع جنازته. كما صُلِّيتْ عليه صلاة الغائب في جميع مساجد المملكة العربية السعودية، وفي عدد من المساجد في البلاد العربية والإسلامية.

رحم الله الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقد كان فذاً بين الدعاة

والعلماء العاملين.

المصادر والمراجع:

- جـوانب من سـيرة الإمـام عبـد العـزيز بن بـاز. رواية للشـيخ مـحمـد الموسى، وإعداد محمد بن إبراهيم الحمد.

- الصداقة بين العلماء: محمد بن إبراهيم الحمد.

- علماء مفكرون لقيتهم -الجزء الأول- محمد المجذوب.

- فضائية (اقرأ).

- من أعلام الـدعوة والحركـة الإسلاميـة المعاصـرة: المستـشار عبـدالله العقيل - الجزء الأول.

- أحاديث العلماء عنه في مجالسنا.

- ذيل الإعلام -المجلد الثاني- أحمد العلاونة.

* * *

الشيخ عبد العزيز الثعالبي
رجل الجهاد والفكر والنهضة

تمهيد:

إنه مجاهد كبير، وعلم من أعلام الوطنية والإصلاح، وداعية من أبرز الدعاة إلى العروبة والإسلام في عصره الذي تميز بظهور عدد من العمالقة الذين وقفوا في وجه الطوفان القادم مع الاستعمار الغربي، احتلالاً للبلاد، وتشويهاً لقيم العروبة والإسلام، وتدميراً للنفوس بتدمير أخلاقها، وغزواً ثقافياً عمل على تخريب المجتمعات العربية والإسلامية، بإحلال قيم مكان قيم، ونهب الثروات، وإفقار الناس.

إنه من جيل الرواد الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين وهو جيل فريد في تكامل شخصيته.. فهو جيل السياسة، والجهاد، والاقتصاد، والإصلاح الاجتماعي، والديني، جيل التضحية بكل شيء في سبيل المثل التي يدافع عنها، والأرض التي احتلها الأجنبي، ويسعى هو وإخوانه من أجل تحريرها، وتحرير الشعب العربي المسلم الذي يستذله ويضطهده.

كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي مجاهداً فذاً يقاتل على أكثر من جبهة، وفي أكثر من ميدان.. يقاتل طغياناً غربياً شرساً متوحشاً لا يرحم، وتحمّل في جهاده هذا الكثير من الأذى، اعتقالاً، وتعذيباً، ومحاكمات، ونفياً، ومصادرة، وتشويهاً للسمعة، ولم يعبأ بما أصابه من ألوان الإيذاء، لأنه يجاهد في سبيل الله، ومن أجل هذه الأمة، من أجل دينها، وقيمها، وأرضها، وثرواتها، وكرامتها.

المولد والنشأة:

ولد الشيخ عبد العزيز الثعالبي في مدينة تونس عام ١٨٧٤م في أسرة علم وفضل ودين وجهاد، ومن أصل جزائري، وترعرع في رعاية جدّه المجاهد عبد الرحمن الثعالبي الذي كان من مجاهدي الجزائر ووجهائها المعروفين، فتخلّق بأخلاقه، وتشبّع بمبادئه وقيمه.

كان جدّه عبد الرحمن هذا، مجاهداً قاتل الفرنسيين الذين غزوا بلاده (الجزائر) عام ١٨٣٠ وأصيب برصاصات في صدره، وكان له دور متميز، رفض إغراءات كبيرة حاول الاستعمار إغراءه بها، كمنصب قاضي القضاة، ثم غادر مدينته (بجاية) إلى تونس، مخلّفاً وراءه بيته وعقاره وأمتعته، وأهله، ووطنه.

حفظ عبد العزيز القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، ودرس النحو والعقائد والآداب قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة الذي أمضى فيه سبع سنين، وتخرج فيه عام ١٨٩٦ حاملاً شهادة التطويع، ثم تابع دراسته العليا في المدرسة الخلدونية، ثم انخرط في الحياة العامة، مجاهداً في سبيل الله، كما كان جدّه، ومن أجل النهوض بشعبه التونسي، وأمته العربية والإسلامية التي نامت قروناً حتى ملّ منها الكرى.

السياسي

غزت فرنسا البلاد التونسية بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، واضطر (الباي) إلى توقيع معاهدة (باردو) وإعلان الحماية على البلاد في ٢١/ ٥/ ١٨٨١ ولم يعترف الشعب التونسي بهذه المعاهدة، وهب يدافع عن أرضه وكرامته، ولكن الوحشية الفرنسية نكلت به، حتى اضطرته إلى الهدوء لأنه لم يعد من الممكن له، الاستمرار في المقاومة المسلحة، ولكن إلقاء السلاح لا يعني السكوت على الاحتلال والاستعمار، فقد اضطلع عدد من العلماء والمفكرين والسياسيين بالعمل السياسي لتحرير الوطن، وكان في

طليعة هؤلاء: الشيخ عبد العزيز الثعالبي رحمه الله.

وقد اعتبره الفرنسيون عدوهم الأول، وحق لهم ذلك، فمنذ أن غزا الفرنسيون بلاده التونسية وهو في السابعة من عمره، لم تفارق ذاكرته ما وعته من ذلك الاجتياح الهمجي لجيش همجي جاء ليحتل ويقتل وينهب ويغتصب ويسكر ويعتدي على الحرمات، كما لم ينس الدموع التي غسلت لحية جده المجاهد، وهو يرى الفرنسيين يحتلون تونس، بعد أن احتلوا بلده الجزائر.

ولهذا اندفع إلى المشاركة في العمل السياسي منذ يفاعته، وعندما ألف بعض المجاهدين في تونس أول حزب يدعو إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي، وتحرير تونس (عام ١٨٩٥) انخرط الثعالبي في صفوفه، ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي، وكتب في الصحف، وخطب وحاضر داعياً إلى الاستقلال والحرية، فضيقت السلطات الاستعمارية الخناق عليه، حتى اضطرته إلى الهرب من البلاد عام ١٨٩٧ وبعد عودته من منفاه بعد أربع سنين، حاولت إغراءه ففشلت، فاعتقلته عام ١٩٠٦ ودبرت مؤامرة خسيسة ضده، زعمت للناس أنه كافر، فتجمهر الرعاع، وهو مقيّد في طريقه إلى المحكمة، وهم يهتفون: اقتلوا الثعالبي الكافر. يا للعجب!!

ثم عرف الشعب الحقيقة، فثار ضد الاستعمار الكاذب الظالم، فأفرجوا عنه بعد حين، ثم أعادوا اعتقاله وطرده خارج البلاد عام ١٩١٢ فأضربت البلاد التونسية كلها ثلاثة أيام، احتجاجاً على اعتقاله ونفيه، ووقفت جميع الأعمال، فألح عليه المستعمرون أن يعود إلى بلاده، فأبى ما لم يعدل الوضع السياسي للبلاد. فوعدوه بذلك ولكن بعد حين، لأن الحرب على الأبواب، فعاد قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤

وبعد انتهاء الحرب، استأنف الثعالبي نضاله، وسافر إلى باريس لشرح قضية بلاده، فقبضوا عليه سنة ١٩٢٠ وكانوا ينقلونه بين السجون التونسية والفرنسية، ثم نفوه من البلاد في آب ١٩٢٣

وكان الثعالبي يؤمن بالعمل الجماعي، فانخرط في حركة تونس الفتاة التي تدعو إلى الاستقلال التام قبل كل شيء، ثم رأس حزب الدستور الذي اتخذ خطة أقل وضوحاً من خطة حركة تونس الفتاة، ولعل قادة حزب الدستور كانوا يرون في هذا الغموض سياسة تسمح لهم بقطع مرحلة يتمكنون فيها من إعادة تنظيم أنفسهم.

كانت حياته السياسية حافلة بالأحداث الجسام، فقد أمضى زهرة عمره بين السجون والمنافي والمحاكم والرحلات.

رحلاته:

كانت رحلته الأولى عام ١٨٩٧، ورحلته الثانية الطويلة عام ١٩٢٣ وسائر رحلاته الأخرى، كانت رحلات قسرية وبعضها كان نفياً من الاستعمار المحتل، أو فراراً من بطش حاكم جائر غادر، وبعضها من أجل إيقاظ العرب والمسلمين وتخليصهم من جمودهم، وتخلفهم، وتمزقهم..

ففي رحلته الأولى قصد طرابلس الغرب، ثم بني غازي، ثم سافر إلى الآستانة عن طريق اليونان وبلغاريا عام ١٨٩٨ واتصل برجال الدولة العثمانية، وشرح لهم قضية بلاده، ثم غادرها إلى مصر لأول مرة، وشرح قضية بلاده، ثم غادرها إلى الآستانة ثانية، وطالبها بتعزيز صلاتها بتونس، وبفتح أبواب المدرسة الحربية في وجه الطلاب التونسيين. ثم عاد إلى تونس عام ١٩٠٢ ثم كانت رحلته الثانية إلى الشرق...

كانت دار الأمير محمد الحبيب، وقت الحرب العالمية الأولى، شبه مركز لرجال الحركة الوطنية التونسية، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي يعملون منها وهم آمنون من أعين الرقباء والمخبرين، وكانت أوراقهم ووثائقهم كلها محفوظة في دار الأمير (الحبيب)، ولكن هذا الأمير انقلب على الثعالبي ورجاله، وخشي هؤلاء من بطشه، فقرر الحزب أن يسافر الثعالبي إلى الشرق، فسافر عام ١٩٢٣ واستمرت رحلته هذه حتى عام ١٩٣٧

زار في أثنائها مصر، وسورية، والعراق، والحجاز، والهند، وأندونيسيا وغيرها من البلدان، وقام بدعاية قوية في الأوساط العربية والإسلامية لصالح القضية التونسية، وشارك في مؤتمر فلسطين عام ١٩٣١ وانتخب عضواً في لجنته التنفيذية.

ورحل إلى الجزائر، وإلى المغرب الأقصى، وإلى إسبانيا، وفرنسا، وسويسرا، والصين، والإمارات العربية، وغيرها من البلاد التي ما زارها للسياحة والاستجمام، بل من أجل بلاده، ومن أجل قضايا العرب والمسلمين، والله وحده يعلم، كم عانى في تلك الأسفار من الضائقات المالية، ومن ألوان العنت الأخرى.

وكان الثعالبي -حيث حل- محترماً من كل من زاره، لما عرفوا من زهده بما في أيدي الناس، وانصرافه عن مصالحه الشخصية إلى المصالح العامة، ولما لمسوا عنده من علم وعقل وذكاء ودهاء وفضل وتضحية وبعد عن الأضواء، وإيثار العام على الخاص.

وقد حفلت الصحافة العربية عامة، والمصرية خاصة، بأحاديثه، وأخباره، ومقالاته التي سجل فيها مشاهداته، وتجاربه، ولقاءاته برجالات العالم الإسلامي، وأثار فيها كثيراً من القضايا والأبحاث عن المجتمع الإسلامي، وأحواله، وما يتصل به من شؤون السياسة والتعليم والاقتصاد، وأرسل شيخاً أزهرياً إلى الهند لدراسة قضية (المنبوذين) هناك، وكتب تقريراً تاريخياً مهماً عن الهند، كشف فيه كثيراً من الحقائق الغائبة عن المسلمين في البلاد العربية وغيرها، منها أن غاندي سرق الحركة الوطنية من المسلمين، وجازت خدعته على العرب الذين كانوا يروجون له ولحركته دون أن يعرفوا أنهم مخدوعون. والسبب في اهتمامه بقضية المنبوذين في الهند: إنساني، ودعوي، أراد أن يرفع عنهم الظلم، كما علم أنهم يفكرون بترك الديانة الهندوسية، فاتصل بهم، وبحث معهم مشكلاتهم، وطمع في إسلامهم، وقدم لهم ما يسهل

دخولهم في الإسلام.

وكان في مصر، يسعى إلى تحقيق مشروعه الكبير، في التأسيس لثقافة إسلامية خالصة صافية متحررة من الشوائب الأجنبية، كما دعا إلى إنشاء عصبة أمم إسلامية.

إنه لم يضع وقتاً في رحلاته، بل كان صاحب رسالة يسعى إلى تأديتها وتحقيقها، بالتعاون مع المخلصين من أبناء العروبة والإسلام في كل مكان يحل فيه.

داعية الإصلاح والتربية:

كان للثعالبي مجموعة من الآراء يرى أنه لا بد منها من أجل النهوض بالشعب، ومقاومة سائر ألوان الجمود والتخلف، حتى يكون جديراً بتحرير بلاده، قادراً على طرد الغزاة.

كان يرى أن سبيل المقاومة لطرد الغزاة إنما يكون في تأسيس ثقافة عربية إسلامية، وتصعيد الثقة بهذه الأمة التي هي من أعظم أمم الأرض، وأقدرها على مواجهة الأحداث.

ولهذا ركز على تكوين جيل من الشباب المسلم، قادر على العمل في سائر الميادين الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتربوية، والدينية، ودعاهم إلى التحرر من سائر أشكال التخلف والجمود، وكان يطوف في المدن والأرياف، ليلقي دروساً وخطباً تشرح ما ينبغي أن يكون عليه الشعب من أجل النهوض.

كان يدعوهم إلى إصلاح نفوسهم، لتصلح أحوالهم، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، حتى يستبدلوا الحسن بالسيء، وهذا لا يكون بغير العلم والتربية، فلا بد من الجامعات التي تقوم على أسس علمية منهجية سليمة في الإحياء والتجديد، بدلاً من تلك المتزمتة التي لا تخرج إلا ذوي عقول آلية تتحرك بإرادة غيرها.

وكان يدعو إلى التخصص، فالعالم يتخصص في التعليم، والاقتصادي بالاقتصاد، وهكذا.. وكان يدعو إلى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولا يتسامح في جعل الطبيب قاضياً، والفقيه مهندساً..

وكان يدعو إلى المؤسساتية، وترك الأعمال الفردية.. فلا بد من العمل الجماعي، والجهود الاجتماعية، وإنشاء المؤسسات. وكان يدعو إلى دراسة الماضي لنعتبر ونستفيد من الأخطاء التي ارتكبها الأجداد، وأدت بالأمة إلى ما هي عليه الآن من تخلف أطمع بها مَنْ دونَها.

ودعا الشباب ورباهم على نبذ كل رثٍّ بالٍ عفا عليه الزمن، وكان يقول: يكفينا أن نحتفظ من ماضينا: بالدين، والأخلاق، واللغة العربية الفصحى.

واهتم الثعالبي بتكوين كوكبة من الشباب المسلم، يجيد اللغة الفرنسية، لشرح قضية بلادهم، واستجاب هؤلاء الشبان، فنشروا مقالات كثيرة في عدد من الصحف الفرنسية، ثم أنشأ الثعالبي لهؤلاء الشبان صحيفة باللغة الفرنسية للدفاع عن القضية التونسية عام ١٩٠٧

وكان الثعالبي يؤمن بالوحدة العربية ويسعى إلى تحقيقها، ويقول للناس: إن تونس جزء من الأمة العربية.

وكان لا يعترف بالحدود المصطنعة التي أقامها الاستعمار لتمزيق العالم الإسلامي، فهي لمصلحة الاستعمار، ويتمسك بها الزعماء من أجل مصالحهم هم، وهي ضد مصالح الشعوب المسلمة، فالأرض الإسلامية وطن لكل المسلمين.. وكان هذا عبر التاريخ الإسلامي، وفي سائر العهود الإسلامية، كان المسلم يتنقل من الدولة العباسية، إلى الأندلسية، إلى الفاطمية، فلا يحول دون تنقله حائل.

وكان يرى أننا أمة قوية عزيزة الجانب، ولها تأثير فعال في سير السياسة العالمية، وعلينا أن نعرف هذا، ونتحرك بحسبه.

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالحرية، ويدعو إليها بقوة وإخلاص.

نظرته إلى الغرب:

يرى الثعالبي أن الغرب استيقظ في الساعة الأخيرة التي غفا فيها الشرق، فنبذه وما أعزه، مع أنه يعرف أنه لولانا ما أدرك فضيلة، ولا عرف الأديان والفلسفة، فكان الغرب بهذا جاحداً فضل أمتنا وحضارتنا عليه.

ومع ذلك، يرى الثعالبي أنه من أجل نهوضنا، علينا أن نقتبس من الغرب كل جديد من النظم السياسية والعلمية والعسكرية، واستثمار المرافق العامة، والمؤسساتية، وأن ننأى عما دون ذلك من النواحي الأخلاقية، والسلوكية، والفكر المادي وما إلى ذلك من القيم التي لا تنسجم وقيمنا الدينية والخلقية.

قضايا الأمة:

لم يكن الشيخ عبد العزيز الثعالبي ليحصر همه فيما يعانيه وطنه من المستعمر فحسب بل كان يحمل هموم الأمة على عاتقه،ويسعى إلى تقديم ما يستطيع من عون ومساعدة لها، وهذا ما نلمسه في حياته ورحلاته ومذكراته وكتاباته ومحاضراته.

فقد وقف إلى جانب ليبيا في حربها مع الاستعمار الإيطالي عام ١٩١١، ودعا إلى تقديم العون العسكري والمادي والمعنوي لها.

وحضر مؤتمر القدس، وصار المستشار الأول للمفتي الحاج أمين الحسيني، وألقى محاضرات سياسية، ودروساً دينية فيها، ودعا الفلسطينيين عامة، والشباب منهم خاصة، إلى الإعداد والاستعداد والجهاد من أجل التحرر من ربقة الاستعمار الإنكليزي، والتصدي للخطر اليهودي القادم، ومن أجل استعادة مجد الأمة وعزتها، وكان يصور لهم الواقع أصدق تصوير، ويعتمد فيما يقول على الأدلة العقلية الفلسفية مبسطة في سلاسة مدهشة يفهمها العامي ويطرب لها، وكان يعلو بها بالمثقفين على شتى مستوياتهم الثقافية، وقد وصفته الصحف الفلسطينية بأنه ابن خلدون الجديد.

وليس هذا الوصف بكبير على رجل مفكر عملاق يقف في صف واحد

مع الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي وسواهم من العمالقة الكبار.

الصحفي:

عرف الثعالبي ما للصحافة من آثار في نفوس الناس، وفي تحويل الرأي العام، إلى جانب وسائل الإعلام الأخرى، فبادر هو إلى الكتابة في الصحف التونسية، ودعا إخوانه وتلاميذه إلى الكتابة فيها وفي الصحف الفرنسية، ثم أنشأ صحيفة باللغة الفرنسية عام ١٩٠٧ أسماها (لوتنزيان) أي التونسي، برأس مال كبير أرهقه، وكتب فيها نخبة من الكتاب التونسيين، ثم أصدر عام ١٩٠٨ جريدة باللغة العربية أسماها (التونسي) دعا فيها إلى إحياء الحكم الدستوري، وواجه بقوة، مؤامرات الاستعمار الفرنسي على اللغة العربية، فقد دعا المستعمرون إلى اتخاذ العامية التونسية لغة رسمية للمدارس والدواوين، وانتقد بعنف، قرار الحكومة التونسية المؤتمرة بأوامر الاستعمار، برصد مبلغ ضخم لوضع معجم للهجة العامية التونسية، وعارض قرار تأليف لجنة لكتابة تاريخ تونس بالعامية التونسية، وعلى نحو موال للاستعمار.

ولم يصبر المستعمرون على ما ينشر في (التونسي) فأمروا بتعطيلها.

وكان يكتب في صحيفتي المنتظر والمبشر، فأغلقهما المستعمرون الفرنسيون، وأصدر جريدة سبيل الرشاد سنة ١٣١٣هـ فأغلقها الفرنسيون بعد سنة من صدورها، وأصدرت الحكومة التونسية المعينة من الاستعمار، قانوناً جديداً للمطبوعات اشترطت فيه شروطاً تعجيزية حتى تمنع صدور الصحف الوطنية التي تدعو إلى المقاومة والتحرير والاستقلال والتمسك بالإسلام.

وأنشأ مجلة الفجر في آب ١٩٢٠ وكان يكتب في كثير من الصحف التونسية والمصرية، والشامية، والعراقية، والفرنسية، ويبث عبر قلمه السيال، أفكاره النيرة، في جرأة أدهشت قراءه.

الثعالبي كاتباً ومؤلفاً:

كان الشيخ عبد العزيز خطيباً مفوّهاً، ومحاضراً مجيداً، وكاتباً صحفياً

بارعاً، وعالماً ومؤلفاً قديراً، اتخذ من لسانه وقلمه أداتين رائعتين لكفاحه السياسي والاجتماعي والفكري، فكتب وألف، وكان لكتاباته آثارها البالغة في نفوس من تصل إليه من التونسيين والعرب والمسلمين والفرنسيين وسواهم.

ألف كتاب (روح القرآن) ثم ترجمه إلى اللغة الفرنسية، ودعا فيه إلى الإصلاح والبعد عن الجمود، فأحدث ضجة بين أبناء الجالية الفرنسية في تونس.

وله من الكتب:

- تاريخ شمال إفريقيا.
- فلسفة التشريع الإسلامي.
- تاريخ التشريع الإسلامي.
- مذكراته. في خمسة أجزاء.
- معجزات محمد رسول الله ﷺ. نُشر منهما جزءان فقط.
- محاضراته في جامعة آل البيت ببغداد. وقد نشرت في الصحف البغدادية.
- تونس الشهيدة. طبعه في باريس باللغة الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى، فاتهمه الفرنسيون بالتآمر على أمن الدولة الفرنسية، واعتقلوه ثم نقلوه إلى السجن في تونس، ومكث فيه تسعة أشهر ثم أخلوا سبيله عام ١٩٢٠

وفاته:

توفي المجاهد الكبير عام ١٩٤٤ بعد حياة حافلة بالكفاح، لم يذق خلالها طعم الراحة، ولا سعى لمصلحة ذاتية، فقد أعطى كل ما وهبه الله لقضية بلاده، ولقضايا العرب والمسلمين، ولقي الألاقي في سبيل ذلك، وقد كان كما وصفه العلامة محمد الفاضل بن عاشور:

«برز الثعالبي بعد الحرب العالمية الأولى، بما له من ماضٍ في

السياسة والإصلاح الديني والاجتماعي، فبعث معالم النهضة التونسية، وأصبح زعيم النهضة المطلق». رحمه الله رحمة واسعة.

المراجع:

- الأعلام. المجلد الرابع للزركلي.
- عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية. لأنور الجندي.
- تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي - الجزء الثاني. لأنور الجندي.
- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. الجزءان ١ و ٢. لعلال الفاسي.

* * *

القائد الشهيد الدكتور
عبد العزيز الرنتيسي

تمهيد:

نحن اليوم في زمن الجهاد والاستشهاد، والثقافة التي يجب أن تحتل الحيّز الأكبر من عقولنا وقلوبنا وتوجهاتنا وسلوكياتنا، هي ثقافة المقاومة، وما ينبثق عنها من فكر جهادي يرى الشهادة أسمى الأماني في هذه الحياة، لأنها هي وحدها التي تقود العرب والمسلمين إلى تحرير بلادهم من الاحتلالات التي شملت الكثير من أرضهم بصورة علنية، وفي وضح النهار، أما الاحتلالات المقنّعة، فشاملة، ولن ينجينا منها سوى النفير العام، خفافاً وثقالاً، جهاداً واستشهاداً، وليس من طريق للنجاة سواه، مهما تفلسف المنهزمون من الداخل والخارج.

والقائد الشهيد عبد العزيز الرنتيسي واحد من مئات الألوف الذين ساروا على هذا النهج، إلى أن نال إحدى الحسنيين، وسوف ينال السائرون على دربه نصراً أو شهادة بإذن الله وعونه.

حياته:

ولد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، رحمه الله رحمة واسعة، في قرية (يبنا) الواقعة إلى الشرق من مدينة يافا، وقرب عسقلان في ٢٣/ ١٠/ ١٩٤٧ وبعد أقل من عام، طردت العصابات الصهيونية أسرته إلى قطاع غزة، واستقرت في مخيم خان يونس.

وفي الصف الثاني الإعدادي، توفي والده، تاركاً له ثمانية إخوة وأختين،

وعاشت الأسرة حياة الفقر والشظف والبؤس، وعاش عبد العزيز طفولة معذّبة أشعرته بمسؤوليته المبكرة عن الأم والأخوات، وجعلت منه رجلاً وهو فتى.

زار مرة واحدة قريته (يبنا) فوجد أسرة يهودية تسكن بيته الذي ولد فيه، جاءت الوكالة اليهودية بها إلى قريته، وملكتها بيته وأرضه، وتجرع الشاب المرارات والحسرات، واختزنها في نفسه الثائرة، لتظهر بعد حين في حركة واعية منظمة تدرك رسالتها ووظيفتها في هذه الحياة.

تعليمه:

تعلم الطفل عبد العزيز في مدارس المخيم، وكان أحد العشرة المتفوقين في الشهادة الثانوية -الفرع العلمي- في قطاع غزة كله، مما أهّله للحصول على منحة دراسية من وكالة الغوث، لدراسة الطب في مصر.

وفي عام ١٩٧٠ حصل على بكالوريوس طب عام، وعاد إلى المخيم ليمارس مهنة الطب، ثم سافر مرة أخرى إلى مصر، وحصل على شهادة الماجستير في طب الأطفال.

في الإخوان المسلمين:

أثناء دراسته في مصر تأثر كثيراً بالشيخ محمد عيد الذي كان يدعم القضية الفلسطينية، ويتحدى السادات بخطبه السياسية الحماسية، وبالشيخ إبراهيم المحلاوي، وكانا يخطبان في مسجد السلام، ومسجد إبراهيم باشا، في القاهرة، وكلاهما من رجال الإخوان المسلمين.

ولما عاد إلى غزة، كان يحمل في نفسه وقلبه وعقله تلك الأفكار الجريئة التي قادته إلى الحركة الإسلامية، ليصبح أحد أبرز رموزها، ليس في غزة أو فلسطين وحدها، بل على مستوى العالم، فقد غدا اسمه على ألسنة الناس التي انطلقت تتحدث عن آرائه ومواقفه السديدة الشجاعة.

من مؤسسي حماس:

وهو أحد السبعة الذين أسسوا حركة المقاومة الإسلامية (حماس) أواخر

سنة ١٩٨٧ بعد قيام الانتفاضة الأولى مع الشيخ الشهيد أحمد ياسين، وعبد الفتاح دخان، ومحمد شمعة، وإبراهيم اليازوري، وصلاح شحادة، وعيسى النشار، وكتب الرنتيسي أول بيان لحماس، وكان مسؤول منطقة خان يونس آنئذ في حركة الإخوان المسلمين.

بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين، رحمه الله، اختير الرنتيسي قائداً لحركة حماس في غزة، في ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٤ فقد كان مجمعاً عليه.

قال الرنتيسي لصحفي سأله عن (صراعات) داخل حماس، حول خلافة الشيخ الشهيد أحمد ياسين، رحمه الله:

«نحن لا نتنافس على القيادة.. بل نتنافس على الشهادة».

زواجه:

تزوج الدكتور عبد العزيز من فتاة ملتزمة ولا تقل عن زوجها فاعلية ونشاطاً في الحركة الإسلامية، وله منها ستة أولاد، ذكران (محمد وأحمد) وأربع بنات (إيناس، وسمر، وآسيا، وأسماء).

ويكفي أن نعرف أنها استقبلت نبأ استشهاد زوجها برباطة جأش، وقوة جنان، وقالت:

(الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله).

ولم تقل إلا ما يرضي ربها، واستقبلت المهنئين باستشهاد زوجها في حزن كظيم.

شخصيته:

كان زعيماً سياسياً فذاً، وقائداً شجاعاً، جريئاً في قول كلمة الحق، وفي التصدي للصهاينة اليهود وغير اليهود، لم يخف من عمليات الغدر التي يقومون بها لاغتياله، ولم يخش الآلة العسكرية الجبانة التي يستخدمها الشوارين في ملاحقته وإخوانه.. كان يعد نفسه مشروع شهادة يتمنى تحقيقه،

ويسعى إليها، ولولا ضرورات العمـل، لما اختفى عن الأنظار، ولولا وجوب الحذر المأمور به شرعاً وتنظيماً، لبرز إلى أولئك الأفاقين وجهاً لوجه.

ومع ذلك، كان يستقبل الصحفيين في قاعة استقبال تقع في الطابق الأخير من مبنى صغير في شارع فلسطين، في حي الشيخ رضوان في غزة هاشم.

كانت له شخصيته الرزينة، ومنطقه الحكيم الذي يقنع به محاوره، ويعبئ به الجماهيـر، ويغيظ الصهاينة وعملاءهـم. . شخصيته شخصـية مواجهة دون مواربة، فقـد كان يرى ويطالب بضـرب أي إسرائيلي تقدر علـى ضربه في أي زمان ومكان، لأن الإسـرائيلي محـارب خسيس يتـزيا للناس بأزياء مـخادعة، وإذا تمكن منك غدر بك.

وشخصيته القوية العنيدة في مواقفها السياسية والجهادية، جعلت له سجلاً حافلاً بالكفاح في سائر الميادين، وعرضـته للاعتقال، من اليهود ومن عناصر السلطـة، مرات ومرات، وعـرضته للإبـعاد إلى مرج الـزهور، وإلى التعـذيب لدى كل من الأعداء والخـصوم الذين كانوا يسعـون للقضاء عليه بشـتى السبل والأساليب.

من صفاته:

إنه ذو قلب كبير، وصفه ابنه الكبير محمد بقوله:

«إن الصورة التي فـي أذهان الناس عن والدي، أنه الثوري الـشديد، وهذا صـحيـح، لكنـه داخل الأسـرة، صاحـب الحنـان الكبيـر، والقلـب الرؤوف الهـادئ. . كنا إذا أصـررنا على شـيء ربما لا يـريده، كان يـنزل عند رغـبتـنا ويراضـينا، خطـابه المـتشـدد في الإعلام لـم يكن في الـمنزل. وأكـثر حنـانه ومحبته كانت لأحفاده، فقد كان يحب الأطفال».

كان يربي أولاده على الرجولة بكل ما تعنـي من صفات الشجاعة والنجدة والكرم، وسواها من السجايا الحميدة.

وهو قيادي متمرس، وصاحب مدرسة في التعبير عن مواقف لم يكن يراها تحتمل التهاون.

وهو نموذج للقيادي القريب من نبض شعبه، كان ديدنه، منذ كان طبيباً لخان يونس، تقديم ما يستطيع للفقراء من أبناء الشعب، ولم ينقطع عن معايشته المباشرة للمواطنين، فكان قريباً منهم في المعتقل، وفي السجن الكبير الذي يحمل اسم قطاع غزة.

وكان ربانياً يرى المقاومة دليلاً على صدق الإيمان، وأن الإيمان وقود المعركة.

وكان قوي الأمل بنصر الله القريب، حتى وهو يعيش أقسى الظروف.

وأن هذه المرحلة القاسية التي تحتاج إلى الكثير من الصبر والتحمل، هي المرحلة الماهدة لمرحلة التمكين في الأرض إن شاء الله.

وكان مجاهداً ومشروع شهادة يسعى إليها ليظفر بالفردوس الأعلى.

وهو مقاوم تسكنه روح المقاومة، ويرفض أي نوع من أنواع الاعتراف بالكيان المسخ.

وكان صاحب نخوة ومروءة ونجدة، يضني جسمه من أجل الآخرين، وخاصة الفقراء والمحتاجين.. كان في سبعينيات القرن الفائت يذهب إلى القرى النائية في البادية مشياً على قدميه، قاطعاً العديد من الكيلومترات، وهو يحمل حقيبته الطبية، من أجل تطبيب الفقراء، وختان أطفالهم مجاناً..

وكانت له أنشطة خيرية أخرى في القرى والأرياف التابعة لخان يونس، ضمن أنشطة جماعة الإخوان المسلمين.. والإيثار من السجايا التي صاحبته منذ صغره، وحتى لحظة استشهاده، فعندما كان صغيراً اشترى حذاء مستعملاً من المخيم، وعندما قرر أخوه الذي يكبره، الذهاب إلى السعودية للعمل، ولم يكن له حذاء، آثره عبد العزيز بحذائه، وبقي حافياً. وقس على هذا..

القائد المجاهد:

كان الرنتيسي رجل السياسة والتربية والحرب معاً، حنكته التجارب المريرة، والمخاضات العسيرة التي خاضها إخوانه المجاهدون الذين سبقوه إلى الجهاد والشهادة في سبيل الله.

وهو صوت فلسطين الداوي الذي تتردد أصداء تصريحاته السديدة، وكلماته القوية، في أرجاء العالم العربي، بل والإسلامي، بل والعالمي.

كان يجاهد في سبيل الله، ويتطلع إلى تحرير بلاد المسلمين، من فلسطين، إلى العراق، فأفغانستان، وكشمير، والشيشان، والفلبين، وسواها من بلاد المسلمين، وكان يقاتل على عدة جبهات. . . يقاتل أعداء الله من الصهاينة، والأمريكان، والإنكليز، ومن يمشي في ركابهم، ويرضى أن يكون ذيلاً لهم.

صراعه مع الصهاينة:

أول مواجهة له مع الاحتلال الصهيوني كانت عام ١٩٨١ عندما فرضت عليه الإقامة الجبرية، تلاها اعتقاله، لأنه رفض دفع الضرائب للمحتلين الغاصبين، وقاد حملة توعية دعا الناس فيها إلى الامتناع عن دفع الضرائب للاحتلال ثم تتالت الاعتقالات التي بلغت خمس مرات، ومدة سبع سنين أمضاها الدكتور الرنتيسي في سجون المحتلين، وأمضى سنة في مرج الزهور عندما أبعدوه مع ٤١٧ أخاً عام ١٩٩٢

وهو أول قيادي في حماس تعتقله سلطات الاحتلال عام ١٩٨٧ وقد منعوه من النوم ستة أيام متوالية، ووضعوه في ثلاجة مدة أربع وعشرين ساعة، إلى ألوان التعذيب الوحشي الأخرى التي استمرت مدة واحد وعشرين يوماً، من أجل الاعتراف ولو بتهمة واحدة من التهم الكثيرة التي وجهوها إليه، وكان يأبى ويصبر ويحتسب.

وكان الدكتور عبد العزيز الرنتيسي بمجرد ما يؤخذ إلى أقباء التحقيق

يهاجم المحققين ويشتبك معهم باللكمات والكلمات حتى يغمى عليه من شدة ما يلقى من أهوال التعذيب.

ولم يأخذوا منه أي اعتراف، ولائحة الاتهامات ضده كانت تتم باعتراف الآخرين عليه، وليس باعترافه هو.

في المعتقل:

كان ينظم الشباب في السجن، ويرفع معنوياتهم، وكان يخدمهم، ويعظهم، ويربيهم بسلوكه وأخلاقه العالية، ويدعوهم إلى الصبر، واحتساب الاعتقال في سبيل الله تعالى، ومرة دخل أحد السجانين عليه وعلى من معه السجن، فلم يقم له عبد العزيز كما قام الآخرون، فعاقبه السجان بأخذه إلى زنزانة انفرادية، ولم يأبه القائد بذلك، واستمر في التواصل مع إخوانه، يرسل إليهم رسائله من زنزانته، وفيها ما فيها من المعاني السامية التي توقد في نفوسهم شعلة الجهاد، فكانت كلماته النابعة من قلب معمور بالإيمان، ومن عقل كبير خبر الحياة والأحياء، ذلك الوقود الذي لا يدع لشعلة الجهاد أن تخبو.

وقد حفظ كتاب الله العزيز خلال ٢٧ شهراً في زنزانته الانفرادية، وقام به لياليه الطويلة، وكان إذا أغفى وجاءت البعوضة ولدغته، يهب إلى الصلاة، ويشكر البعوضة التي أيقظته، فما ينبغي للمجاهد أن يستهلك شيئاً من وقته في غير فائدة تعود عليه وعلى قضيته بالخير.

في مرج الزهور:

وفي ليلة الإبعاد في كانون الأول ١٩٩٢، كان صوته يلعلع رافضاً أن يتفرق المبعدون في ربوع لبنان أو غيرها من البلاد العربية، مصراً على أن يكون المبعدون قبالة أرض فلسطين الغالية.

واستطاع من اليوم الأول للإبعاد، أن يجسد قضية فلسطين، وكان صوتها القوي الذي يؤمن بوحدة أرض فلسطين، فقد اختاره إخوانه ليكون على رأس

اللجنة الإعلامية، والناطق الرسمي باسمهم..

كان يعمل إلى ما بعد منتصف الليل، وإخوانه نائمون، فلم يكن ينام أكثر من ساعتين أو ثلاث فقط.

محاولات اغتياله:

يقول الدكتور عزيز دويك:

«كانت أولى محاولات اغتياله في مرج الزهور، في خيمة الإعلام، في اليوم الأول من شهر رمضان، يومها حضر شخص يتحدث العربية، ادعى أنه مترجم لصحفي ياباني، دخل الخيمة، وترك حقيبة فيها قنبلة موقوتة، انفجرت مع أذان المغرب بالضبط، وأحرقت الخيمة بأكملها.

ومن رحمة الله بنا كان الجميع خارج الخيمة على مائدة الإفطار.

سمع الجميع صوت الانفجار، وهبوا لإطفاء الحريق، وبحثوا عن الصحفي ورفيقه، فلم يجدوا لهما أثراً».

وفي ١٠/٦/٢٠٠٣ تعرض لمحاولة اغتيال، استشهد فيها اثنان من مرافقيه، وأصيب نجله أحمد بجروح خطيرة.

وفي شهر أيلول ٢٠٠٣ تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة.

وتعرض لمحاولة اغتيال أخرى في اليوم الثالث لاستشهاد الشيخ أحمد ياسين، نجا منها بأعجوبة، ولم تكشف عنها حماس إلا بعد أن أكدتها أجهزة الأمن الإسرائيلية.

سبق استشهاده أن أربع طائرات تجسس (بدون طيار) كانت تجوب سماء غزة طوال أسبوعين بحثاً عنه، وهذا يعني أنه اتخذ احتياطات أمنية كافية لتلافي جريمة الاغتيال، ولكن الصهاينة كانوا جندوا كامل طاقاتهم لرصده.

آراؤه:

يرى أن الانتفاضة سوف تستمر لأنها متمكنة من أعماق الشعب الأبي،

لأنها إسلامية القرار، ووقودها الشباب المسلم، وهي باقية ما بقي الاحتلال الذي لن يخرج بموجب هذه الاتفاقيات الهزيلة التي لا تعطي الشعب أيّ شيء ذي بال من حقوقه المشروعة.

وأن الوحدة الوطنية متينة، ولا يمكن أن تزعزعها فتنة يفتعلها عملاء وجواسيس وأصحاب مصالح شخصية لا يخافون الله في أوطانهم وشعبهم.

ولأن الشرطة الفلسطينية تعرف العدو الحقيقي الذي يغتصب الأرض وينكل بالأهل، فإنها لا يمكن لها أن تحول بين حجر الطفل والجندي المحتل.

ولن تترك الحركة الإسلامية قطعان المستوطنين والأوباش المحتلين يعرفون الراحة والأمن والاطمئنان في بلاد العسل واللبن.

كان يرفض التفاوض، ويؤكد أن خيار المقاومة هو السبيل الوحيد لتحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر.

موقفه من السلطة:

عندما تواردت الأنباء إلى مرج الزهور، عن مجيء (السلطة) إلى غزة وأريحا، وأن هذه السلطة سوف تصطدم بمجاهدي حماس، رفع صوته بالآية الكريمة:

(لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك).

وبهذا جعل الاقتتال بين الفلسطينيين خطاً أحمر، وبقيت هذه سياسته، وهي سياسة حماس طبعاً، حتى آخر يوم له من حياة الكفاح الدامي، وقد آذته (السلطة) كثيراً، واعتقلته مراراً، لمواقفه الجريئة التي لا تعرف المهادنة وخاصة موقفه من العمليات الاستشهادية، وسعت إلى التخلص منه مرات ومرات، وبأساليب شتى، والشباب المتحمس يتحداها ويردّ عليها، ولكنه كان يحتسب ذلك عند الله، ومن أجل القضية، فكان يهدئ الشباب، ويدعوهم

إلى الصبر وكظم الغيظ، لأن مهمتهم في الحياة أكبر من أولئك الصغار أمام عدوهم، المتغطرسين على أبناء فلسطين الأحرار الأبرار، ولولا مواقفه الصارمة، لسالت الدماء الفلسطينية على شفرات الفلسطينيين، ولفرح العدو الصهيوني وعملاؤه، فهم جميعاً في خندق العداء للمجاهدين ولقضيتهم، وكانوا وما زالوا يسعون إلى ذلك.

جرأته:

في صيف ١٩٨٨ أصرّ على تحميل السلطة مسؤولية اغتيال الشهيد البطل محيي الدين الشريف أحد قادة حماس العسكريين في الضفة الغربية، مما جعل السلطة تعتقله.

وهو يحمّل السلطة مسؤولية ما وصل إليه الفلسطينيون من مآسٍ وويلات، «وإذا حاولت السلطة منعنا من توجيه ضرباتنا للمحتل، فإننا لن نتصدى لها ونضربها، بل سنضرب ونضرب المحتل، ولن نوجه بنادقنا إلى أبناء شعبنا».

كانت حياته من اعتقال إلى آخر، ومن خيمة الإبعاد إلى زنزانة السجن، ومن تنكيل الاحتلال إلى ملاحقات عصابة أوسلو، ومن الانتفاضة الشعبية، إلى انتفاضة الأقصى، ومن ثورة الحجارة، إلى قوافل الاستشهاديين، كان الرنتيسي دوماً أحد أبرز صانعي الحدث، وفي بؤرته تماماً.

مواهبه:

الدكتور الرنتيسي متعدد المواهب، وذو طاقة جبارة جعلته يسد أي ثغرة تبدو له في مسيرة الدعوة، فهو، إلى جانب دراسته العلمية، وتخصصه في طب الأطفال، هو كاتب، وشاعر، وخطيب، ورجل إعلام، وداعية، وسياسي، وثائر، ومصلح اجتماعي.

وقد برزت مواهبه هذه من شبابه، ثم نمت وتطورت حتى كان لنا منه هذه الشخصية المتكاملة.

وبرز جانبه الإعلامي عندما كان مبعداً في مرج الزهور، فقد اختاره إخوانه

هناك ليكون الناطق الرسمي باسمهم، على رأس اللجنة الإعلامية، فكان يستقبل وفود الصحفيين طوال يومه وليله، يخاطب كلاً بلسانه، ويجيب على أسئلتهم، لا يكل ولا يمل، وكان مسدداً في تصريحاته، وإجاباته، والبيانات التي كان يكتبها. . وهكذا هو شأن الزعيم الذي تتولاه عناية الله وترعاه.

الكاتب:

كان القائد الشهيد عبد العزيز الرنتيسي حتى آخر أيامه، وفي ظل أقسى ظروف الحصار والملاحقة، يتابع كتابة زاويته في جريدة (الأمان) البيروتية، وفي جريدة السبيل الأردنية، وجريدة البيان الإماراتية، والوطن القطرية وسواها من المنابر الإعلامية، حتى إذا آذنت حياته بالانتهاء، وأدركته صواريخ البغي الصهيوني، تحقق ما تحدث عنه الشهيد سيد قطب رحمه الله:

«ستظل كلماتنا عرائس من الشمع، حتى إذا متنا من أجلها، دبّت فيها الروح، وبعثت فيها الحياة».

كان يكتب في عدد من الصحف والمجلات، وفي موقعه النشط على الإنترنت الذي كان يتعرض لحرب إلكترونية ضارية من قبل الاحتلال الصهيوني وعملائه.

آخر مقال كتبه للسبيل الأردنية، دعا فيه شرفاء الأمة إلى التحرك، فقد مرغت الفلوجة أنف التنين الأمريكي في طمي العراق. وقال:

«لقد تنبأنا في مقالات سابقة، أن العراق سينتصر على الأشرار من الأمريكان، وربما تنبأ غيرنا نفس الشيء، ومثل هذه الرؤى لم تكن قطعاً وفق الحسابات المادية لموازين القوى، ولو جرت وفق هذه المعايير، لما تنبأ أحد بانتصار العراق، ولكنها كانت وفق فهم واعٍ للسنن الإلهية. . .

ولكن الذي لم نتنبأ به، هو ما يجري من إذلال لأمريكا فاق كل التصورات، والحسابات، رغم أنه -أيضاً- من سنن الله. . مما أفقدها هيبتها، ويجعلها غير قادرة -بإذن الله- على الاستمرار كمصدر إرهاب وابتزاز

لشعوب العالم، فالأمر-إذن- أكبر من هزيمة».

وطالب الشرفاء أن يبذلوا جهد المستطاع، ليحطموا قيود الواقعية المهزومة.

الشاعر:

كان شاعراً، وكان إخوانه وتلاميذه المجاهدون يحفظون الكثير من شعره الذي يتغنّى فيه بالحرية، وتحرير فلسطين من الاحتلال. وهو شعر خطابي حماسي في غالبه، وذو رسالة يريد أن يؤديها، ولم يكن شعر احتراف أو عبث، وقد نشر بعض شعره في الصحف والمجلات، وبقي قسم آخر لم ينشر، منتظراً أصحاب الهمة والغيرة لجمعه ودراسته وإصداره في ديوان.

آخر يوم في حياته:

وصل الدكتور الرنتيسي إلى منزله في الساعة الثالثة قبل فجر يوم السبت ١٧/ ٤/ ٢٠٠٤ في سرية تامة.

قال ابنه محمد: «كانت زيارته لنا بعد أسبوع من الغياب لم نره فيه. طلبنا منه عدم الخروج، وقضاء ساعات معنا. وبعد إلحاحنا وافق. كان يأتي إلى المنزل بعد منتصف الليل، ويغادر قبل الفجر. وقضى ما بقي من الليل يتحدث مع العائلة المشتاقة إليه، والتي لا تراه إلا قليلاً..

جلس يتحدث عن زواج أخي أحمد الذي أصيب خلال محاولة الاغتيال، وذلك بعد أن حصل على مدخراته من الجامعة الإسلامية التي كان يحاضر فيها، وقد سدد ما عليه من ديون، واقتطع مبلغاً من المال لزواج أحمد (٢١ عاماً) وقال لنا:

«الآن أقابل ربي نظيفاً: لا لي ولا عليّ».

استيقظ الرنتيسي -صقر فلسطين- واغتسل، وتعطر، وانطلق لسانه ينشد، على غير عادته، نشيداً إسلامياً مطلعه:

أن تدخلني ربي الجنة

هذا أقصى ما أتمنّى

وقال لرفيقة دربه: أم محمد:

«إنها من أكثر الكلمات التي أحببتها في حياتي».

وقال محمد: إن مرافق والدي، السيد أكرم نصار زارنا يوم السبت بعد العصر، وتحدث مع والدي قليلاً، واتفقا على الخروج.

وقبل أذان العشاء بقليل خرج الرنتيسي برفقة ابنه أحمد الذي كان يقود السيارة ذات النوافذ المعتمة، متنكراً بلباس معين، وأوصله إلى مكان محدد في مدينة غزة، وبعد دقائق وصلت إلى ذلك المكان سيارة يقودها أحمد الغرة، ومعه السيد أكرم نصار، وبهدوء انتقل الرنتيسي من سيارة نجله إلى السيارة الأخرى التي انطلقت بسرعة، لكن صاروخين من طائرات الأباتشي الأمريكية الصنع كانا أسرع من الجميع، وصعدت الأرواح الطاهرة إلى بارئها، لتستقر في حواصل طيور خضر، ترتع في الفراديس العلى بفضل الله وكرمه.

آخر تصريح له:

قبيل استشهاده -رحمه الله رحمة واسعة- وجه مراسل خاص عدة أسئلة إليه، بعد تصريحات بوش الصغير الأخيرة، فأجاب الشهيد القائد بقوله:

«أولاً: لم تكن هناك أية مفاجأة لدينا لسماع هذا الموقف العدائي من قبل دولة فقدت كل القيم الإنسانية، حتى وصل بها الإسفاف أن تطالب صاحب الحق أن يتنازل عن حقه الإنساني في العودة إلى وطنه، لصالح المجرمين الذين أخرجوه من الوطن.

ثانياً: إن هذا الموقف الصهيوني من الجانب الأمريكي وضع حداً للرهان على سراب الحل السلمي، مما يحتم علينا أن نترجم هذا العدوان الأمريكي

إلى وحدة وطنية في خندق المقاومة، وأن نتمسك بكامل حقوقنا، وعلى رأسها حق العودة إلى الوطن، لنحيل التآمر الأمريكي على شعبنا وقضيتنا العادلة، إلى مصلحة وطنية، ونقول لأمريكا: لا يوجد بيننا من يخون الوطن، فيتنازل عن حق العودة إلى الوطن.

ثالثاً: إن استمرار تمسك السلطة بهذا السراب، والتعلق بالأوهام، من شأنه أن يغري العدوّ الأمريكي بمزيد من التآمر على قضيتنا العادلة، وشعبنا المعتدى عليه.

رابعاً: لقد لعب الموقعون على وثيقة جنيف دوراً خطيراً بورقتهم تلك، حيث مهدوا الطريق أمام الوقاحة الأمريكية المتمثلة بهذه الدعوة العدوانية على الحقوق الوطنية المشروعة لشعبنا الفلسطيني.

خامساً: إن هذا الإعلان الأمريكي يأتي في إطار الحرب الأمريكية المعلنة على الإسلام، ومنسجمة مع الإرهاب الأمريكي ضد أهلنا في العراق. وهذا يدعونا جميعاً، كشعوب عربية وإسلامية، أن نعتبر مقاطعة البضائع الأمريكية واجباً شرعياً ووطنياً. ".

قرار اغتياله:

يبدو أن تحالفاً أمريكياً -إسرائيلياً استراتيجياً قد تم بزيارة شارون الأخيرة لبوش الصغير المستعد للتضحية بأمريكا، وسمعتها، ومصالحها، وبكل شيء فيها، من أجل البقاء في البيت البيضاوي، عش الزنابير الصهيونية، ولا يريد أن يكرر خطأ أبيه الذي أحسّ بكرامته وكرامة وزير خارجيته، وبأن مصالح أمريكا وثرواتها وكل شيء فيها يجب أن توضع تحت المجهر حتى تراها تلك الزنابير، فأسقطوه وجاؤوا بكلينتون الضعيف ليحقق لهم ما أبى بوش الأب تحقيقه لهم، على الرغم من الخدمات الكبيرة والكثيرة التي قدمها -بوش الأب- لأمريكا، ثم للصهاينة.

إنهم يريدون من بوش الصغير أن يبقى صغيراً أمام الشارونات، يقدم

مصالحهم على مصالح أمريكا، وأن يضحي بكل شيء من أجل البقاء في ذلك البيت الذي سيصير أوهن من بيت العنكبوت ما دام سيده في خدمة الكيان الملعون.

وقع شارون وبوش قرار اغتيال قادة المقاومة في واشنطن، وفي طليعتهم: الشيخ أحمد ياسين، والدكتور الرنتيسي.

وجاءت جريمة الاغتيال بعد الوعد الذي أطلقه بوش في البيت الأبيض باغتيال القضية الفلسطينية، واغتيال الأمل والإرادة المقاومة.

اعتبر بوش اغتيال الشيخ الشهيد جزءاً من حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها -يا ويله ويا ويلها من حساب قريب إن شاء الله- واعتبر اغتيال طبيب الأطفال الدكتور الرنتيسي جزءاً من معركته ضد الإرهاب.

اجتمع مجلس الأمن لبحث قضية اغتياله، كما اجتمع قبل أيام لمناقشة اغتيال الشيخ الشهيد أحمد ياسين، واستخدمت أمريكا الفيتو ضد إدانة الكيان الصهيوني المجرم، لأنها شريكته في إجرامه، ولا يقل إجرامها عن إجرامه عبر العصور، منذ وطئت أقدامهم القذرة أرض أمريكا لتقتل عشرات الملايين من أهلها الأصليين، وكذلك الصهاينة... فعلوا ويفعلون.

وهكذا تمت تصفية القائد البطل بثلاثة صواريخ أطلقتها عليه طائرة الأباتشي التي قدمت الإدارة الأمريكية أسراباً منها إلى القتلة في تل أبيب، وذلك مساء السبت في ١٧/ ٤/ ٢٠٠٤ وصعدت روحه الطاهرة إلى علـيين، وهبطت أرواح أرعن البيت البيضاوي، ودبّ تل أبيب (شارون) إلى حضيض الحضيض في عالم القيم.

جنازته:

شارك أكثر من نصف مليون فلسطيني في تشييع الشهيد الرنتيسي ومرافقيه اللذين استشهدا معه، يوم الأحد ١٨/ ٤/ ٢٠٠٤ في غزة وحدها.

انطلق الموكب الحزين الثائر من مستشفى الشفاء في غزة، يتقدمه عدد من

قادة حماس وقيادات الفصائل الفلسطينية الأخرى، وآلاف المسلحين، في عروض عسكرية كبيرة، وتوجه الموكب إلى منزل الشهيد لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ثم تابع إلى المسجد العمري الكبير، من أجل الصلاة عليه.

اكتظت الشوارع التي مر فيها الموكب بالمواطنين والتحمت المسيرات بعضها ببعض، مشكلة أمواجاً بشرية ضخمة، وأدى أكثر الناس صلاة الجنازة في الشوارع المزدحمة.

وانطلقت في بيروت مسيرة عفوية حاشدة، شارك فيها طلاب وطالبات من كل الاتجاهات والمشارب، محجبات وسافرات، فيهن واحدة مكشوفة الظهر والذراعين، تتحرك قلادة الصليب على صدرها، وهي تبكي وتردد الشعارات الوطنية والإسلامية.

وقامت مظاهرات حاشدة في سائر الدول العربية، والإسلامية والأجنبية.

أصداء استشهاده:

كان لاستشهاده دوي لا يقل عن الدوي الذي أحدثه استشهاد الشيخ الجليل أحمد ياسين، وقد ترددت أصداء استشهادهما في سائر أنحاء المعمورة، ولاحقت هتافات الاستنكار واللعن لسائر الشارونات وذيولهم وعملائهم في كل مكان، أجل في كل مكان.. من أمريكا حتى الصين.. ولعل ما قاله النائب والزعيم اللبناني وليد جنبلاط أمام المؤتمر القومي العربي الذي انعقد في بيروت أثناء استشهاد الدكتور الرنتيسي، من أبرز الأدلة على تأثر سائر الأحرار في العالم. وكان مما قال:

«المواجهة الإرهاب الأمريكي -الإسرائيلي في فلسطين والعراق، ينبغي تكثيف العمليات الاستشهادية، وحرب العصابات بشتى أنواعها وأشكالها، فهم لم يرحموا أطفالنا ونساءنا وشيخنا، ولن يرحموهم، فلماذا نرحمهم نحن؟

إنها قواعد الحرب، وليست هناك حروب نظيفة وأخرى قذرة، فالحرب

حرب ويا للأسف.. فلنعاملهم كما يعاملوننا، بأساليبنا البدائية الموجعة على أرض فلسطين والعراق وجنوب لبنان وفي كل موقع عربي يمكن الاستفادة منه. ومن قال: إن التنكيل بالمرتزقة غلط؟ فليرحلوا عنا.

ومن قال: إن الغرب أساساً متحضر، كي يعطينا دروساً؟

بالأمس القريب فقط خرج الغرب من همجيته، وتاريخه في الحروب والاستعمار والاستبداد والاستغلال طويل جداً، وتاريخنا في الاستقلال لم تمض عليه عقود، وهاهم يحتلوننا من جديد، وها هو لقاء واشنطن بين بوش وشارون يؤكد وعد بلفور الأساس في إعدام شعب بأكمله، وتشريده واحتلال أرضه، فهل هذا مثل حضاري يُقتدى به، كي نرى حكامنا يتسكعون على أبواب البيت الأبيض، ويرددون كالببغاء ضرورة الحفاظ على السلام؟

السلام مع المستعمر مستحيل، فلنمحُ من قاموسنا كلمة سلام، ولنبحث عن شتى الوسائل لدعم المقاومة في فلسطين والعراق، ولنعزّز البندقية الوطنية والإسلامية في جنوب لبنان.

وبما أن إسرائيل ستنسحب من قطاع غزة، فلنفتح الترسانة العربية، وليعط المجاهدون في غزة الصواريخ المضادة للطائرات والدروع، بدلاً من إحياء دور المتآمرين أمثال الدحلان وغيره من الذين يتحملون مع اليهود، مسؤولية الاغتيالات لأشرف الرموز العربية والإسلامية».

وقد تميز رد الفعل اللبناني الرسمي على اغتيال الدكتور الرنتيسي عن غيره من ردود الفعل العربية الرسمية، وقد عبّر رئيس الجمهورية اميل لحود عن ذلك بنقطتين:

الأولى: دعوته الدول العربية إلى تحمّل مسؤولياتها في رفض الانصياع لسياسة التهديد الإسرائيلية.

والثانية: دعوته الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى إلى تحديد يوم بعنوان (يوم الغضب العربي) في كل الدول العربية لإطلاق صرخة

مدوّية وموحّـدة تدفع إسرائيل ومن يدعمهـا إلى إعادة النظر في حسـاباتها مرة واحدة، ونهائية، لأن الأمور قد تجاوزت كل الحدود المسموح بها».

المراجع:

- جريدة الأمان اللبنانية: ٦٠٣ تاريخ ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٤
- جريدة السبيل الأردنية - العدد: ٥٣٦ تاريخ ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٤
- جريدة اللواء الأردنية - العدد: ١٦٠٠ تاريخ ٢١/ ٤/ ٢٠٠٤
- موقع إسلام أون لاين.
- موقع مركز الإعلام العربي الفلسطيني.
- موقع الشهيد الرنتيسي.

* * *

الشيخ الأديب عبدالغني الدقر

تمهيد:

الشيخ عبدالغني الدقر هو علامة الشام، ومن بقايا الفصاح، عالم شرعي، وأديب لغـوي، ونحـوي صرفي، ومـحقق بـاحث، وهو داعيـة إلى اللـه على بصيرة، وبـحكمة وهدوء، عرف زمانه، واسـتقامت طريقته، فـكان قدوة لمن عرفـه من تلامـيذه الكـثر، ومن سـائر طبقـات الشعـب وفئـاته، من العلـماء، والمثقفين، والتجار وطلبة الجامـعات وأساتذتها الذين تتلمذوا على يديه، وما زالوا كذلك حتى وفاته .

وأجدني أقول -بـادئ ذي بدء- لو أن دولة تبنته، أو حزباً احـتضنه وروج له لذاع صيته في وطننا العربي،بل في الـعالم الإسلامي بأسره، واشتهر أمره، ولولا كبرياء العـلم وعفة النفس، والتسامـي على ما يتنافس عليه علـماء الدنيا -لا الدين- لكـان له شأن وأي شأن فـي عالم الفضـائيات ووسـائل الإعلام الأخرى.

بطاقة شخصية:

ولد الشيخ عبدالغني في دمشـق عام ١٣٣٥هـ - ١٩١٦م في أسرة دمشقية عريقة، لأب عالم عـامل جليل، كان الأشهر بين العلمـاء الوعاظ في عصره، هو الشيخ علي الدقر، صاحب أكبر نهضة علمية ليس في بلاد الشام وحدها، بل في العالم العربي كله، وأكثر علماء الدين في دمشق، وحوران، والأردن، وبعض المدن السورية الأخرى هم من تلاميـذه ومن خريجي معاهده ومدارسه الشرعية التابعـة لجمعيته التي أسسها عام ١٣٤٣هــ - ١٩٢٤م باسم (الجمعية

الغراء لتعليم أبناء الفقراء) وقد تخرج فيها آلاف الطلبة الذين كان منهم العلماء والأدباء، والفقهاء، والخطباء، والقضاة، والوزراء، وأساتذة الجامعات، فقد كان شيخها العالم الرباني المربي المجاهد الداعي إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الذي قضى على كثير من الخرافات والبدع التي كانت تسود المجتمعات الإسلامية عامة، والصوفية خاصة، كان وقافاً عند حدود الشرع الحنيف لا يتعداه، ولا يسمح لأحد أن يتعداه. وعلى هذا ربَّى أولاده وتلاميذه، وأولاده من تلاميذه.

أما أمه، فكانت امرأة صالحة، ولكنها ما لبثت أن رحلت عن هذه الحياة وهو في الثالثة من عمره فعاش كسير القلب بعد أن فقد حنان الأم الذي لا يعوضه أي حنان آخر، وكان شيخنا عبد الغني، الولد الثاني للشيخ علي رحمهما الله رحمة واسعة.

تعليمه:

بدأ طلبه للعلم في (الكتاب) أولاً، ثم انتقل إلى مكتب المقرئ الشيخ عزو العرقسوسي ، وأتقن قراءة القرآن الكريم على يديه، ثم انتقل إلى المدرسة التجارية، وأمضى فيها ست سنوات وحفظ الكثير من المتون التعليمية في الفقه والنحو، وكان فيها من المبرزين المتفوقين، الأمر الذي حدا بمدير المدرسة إلى تعيينه معلماً فيها، ولم يزل فتى يافعاً.

وفي الثانية عشرة من عمره المبارك، انتقل إلى حلقات أبيه في جامع السادات، وجامع السنانية، والمدرسة السيبائية، وتلقى فيها العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية من نحو، وصرف، وبلاغة، وعروض، وفقه، وحديث، وتفسير وأصول.

ثم أقبل على التهام هذه العلوم بجد وأضاف إليها كتب اللغة والأدب، فدرس كتاب الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، وكتب الجاحظ والمزهر في علوم اللغة للسيوطي، ثم عرج على كتب الأدب الحديث فقرأ

للمنفلوطي، والزيات، والعقاد، وأفاد من بعض الأدباء، واللغويين في دمشق، كالأستاذين : التنوخي، والنكدي مع أن أباه كان له رأي سلبي في كتب الأدب، وخاصة الحديث منه، فكان ينهى أولاده وتلاميذه عنها، لما يرى فيها من انحراف في التفكير، وشطط في العواطف، وإضاعة وقت، ولهذا عندما علم أن ولده عبدالغني يقرأ (النظرات) وسواها للمنفلوطي زجره وكاد يغضب عليه، ولكن غرام الفتى عبدالغني بالأدب وكتبه قد بلغ منه مبلغ العشق، حتى إنه قرأ (الكامل) على الأستاذ عز الدين التنوخي ثم قرأه مع الشيخ حسن حبنكة، ثم حفظه مع شروحه وشواهده، وكانت شواهده حاضرة في ذهنه، يستشهد بها في كتاباته ومجالسه العلمية، وفي تدريسه لطلابه الكثر.

وقرأ (أمالي) القالي على العلامة اللغوي الكبير الشيخ عبد القادر المغربي، وقرأ المعلقات وشروحها وسواها من أمات الكتب التي تتحدث عن الأدب الجاهلي، والإسلامي والعباسي، وحفظ الكثير منها ومن شواهدها ونوادرها وطرائفها، فكان مكتبة تمشي على قدمين.

وعندما التقاه العلامة محمد كرد علي، مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق، ورئيسه، وجلس إليه، واستمع كل منهما للآخر، أعجب به الأستاذ محمد كرد علي، ودعاه لإلقاء محاضرات في المجمع، واستجاب الشيخ عبد الغني لطلبه، كما كلفه بتحقيق كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر، فحقق منه الجزء السابع، وفهرس كثيراً من المخطوطات في المجمع، وفي المكتبة الظاهرية في الفقه الحديث.

وكانت له مجالس علم وأدب مع العالم الرباني الشيخ عبد الكريم الرفاعي، قرأ معه كتابي : المحلى، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، ومع الشيخ المؤرخ العلامة نايف عباس، وتدارس معه (علم البيان) تلبية لرغبة الشيخ بهجت البيطار، ومع أخيه وأستاذه الشيخ أحمد الدقر، ومع سواهم من العلماء والأدباء والشعراء كالأستاذ النحوي العلامة سعيد الأفغاني،

والشيخ علي الطنطاوي فقد تدارسوا معاً كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي وسواه.

وقد تسألون وتقولون: لم تحدثنا عن الشهادات العلمية والأجنبية، فما هي تلك الشهادات؟

وأجيب: كان الشيخ فوق كل تلك الشهادات.. لم ينل شهادة قط منها، ولم يدرس في جامعة قط، وكان أساتذة الجامعات وحملة الشهادات تلاميذ عنده، واسمعوا ما قاله أديب العربية الشيخ علي الطنطاوي فيه، وكانت له صلة وثيقة به، ومعرفة عميقة بعلمه وأدبه وأخلاقه، وكانت لهما مجالس علم وأدب وسمر قال:

(فعليكم بالبقية الباقية من أقطاب الأدب، أطلقوا أيديهم في مناهج العربية وكتبها، لا تجعلوا الشهادات وحدها هي الميزان: فإن كثيراً ممن أعرف اليوم ذوي المعرفة بالأدب العربي الحق ممن درس كتبه الكبرى، كالكامل للمبرد، والأمالي للقالي، لم يكونوا يحملون شهادة، وإن كان يقعد بين أيديهم ويتلقى عنهم حملة الشهادات من أساتذة الجامعات.. من هؤلاء الذين أعرفهم محمود محمد شاكر في مصر، وعبد الغني الدقر في الشام)[١].

لقد كان الشيخ عبدالغني ذا اطلاع واسع على الكتب؛ مخطوطها ومطبوعها وخاصة تلك التي لها صلة بالأدب واللغة والنحو والرجال، إنه قارئ من الطراز الأول، لا يكاد يضاهيه في القراءة سوى زميله العلامة الشيخ نايف عباس، يقرأ من بعد صلاة الفجر، حتى قبيل الغروب، يقرأ، ويقرأ، ويقرأ، وينتقد، ويعقب، ويستدرك ويصحح، ويقول عن نفسه: (لا أستسلم لكتاب أو رأي) حتى وصفه شيخ القراء في الشام الشيخ محمد كريم راجح، بالعالم الحر، ونقول فيه ما قاله هو في رثاء شيخه وزميله العلامة الشيخ عبد

---

(١) علي الطنطاوي – ذكريات: ٨/ ٣٠٢ .

الوهاب دبس وزيت:

(لقد كان عالماً حقاً، وحسبه من نعوت الكمال أن تكون هذه صفته، وما أندرها فيمن ينتسبون في هذا العصر إلى العلم)(١).

وكذلك كان الشيخ عبد الغنى فقد كان آية في فهم اللغة العربية، يتكلم فيخرج الحرف من مخرجه، مشتملاً على صفته، كأنه جاء -لتوّه- من خيام ربيعة ومضر.

وكان فقيهاً حراً، مع أنه شافعي المذهب، ولكنه يكره التعصب للمذهب، والمتعصبين من الفقهاء، يقدم رأيه ولا يفرضه على غيره ، يأخذ من الجميع ثم يعود إلى رأيه المصحوب بالدليل الصحيح الثابت من الكتاب والسنة المطهرة.

لقد كان الشيخ عبدالغني ألبَّ لباً، وأوسع ثقافة، وأسرع لقناً، وأحضر بديهة، وأقوم أسلوباً، وأدق بحثاً، من كثير ممن تملأ كتبهم واجهات المكتبات وتسبق ألقابهم أسماءهم، وتعلق النياشين على صدورهم، ولو شامتهم لرأيتهم في المُصَلِّين، وعبد الغني في المُجَلِّين، ولكن الأرزاق مقسومة، مالاً، وشهرة، وكتباً، ومناصب.

صفاته:

كان ربعة بين الرجال، ممتلئ الجسم، أبيض أشقر، مع حمرة حلوة تشوب بياض خديه، أزرق العينين الحالمتين، أنيقاً في لباسه وهندامه، تعلو هامته عمامة مطرزة كعمامتي أبيه وأخيه الكبير الشيخ أحمد، وهي عمامة التجار التي تكون على طربوش أحمر، تمييزاً لصاحبها من عمامة العلماء التي هي من شاش أبيض على طربوش أحمر.

وكان ظريفاً، صاحب نكتة، ضحكه ابتسام، فيه كثير من الاحتشام، وقد

---

(١) محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة - تاريخ علماء دمشق: ٢/ ٨٢٩

تفرض النكتة الباهرة ضحكة فيضحك حتى لتكاد عمامته تقع عن رأسه المزين بشعر أشقر، ويصير وجهه كقرص الشهد، بل ربما احلولى فكان أحلى وأحلى.

وكان لطيفاً دمثاً، متواضعاً مع سائر الناس، ومعنا - نحن طلابه وتلاميذه - تراه يجلس في (دار القلم) بدمشق على كرسي صغير من القش، يشرب الشاي مع أبناء صاحب الدار، وكانوا فتية صغاراً يمازحهم وينصحهم، وكان قليل الكلام، عفيف اللسان، يأمر أصدقاءه وتلاميذه وإخوانه بعفة اللسان، ويشتد على بعضهم ممن عرف بسلاطة اللسان، وتجريح الأشخاص والهيئات، وكان يكره التدخين، ويتناءى عن المدخنين، وينصحهم بالإقلاع عنه، ولقد شهدته أكثر من مرة، مع أستاذين كريمين لي ينصحهما، ويشتد عليهما في النصح، من أجل ترك التدخين، ومن أجل بذاءة اللسان.

وكان كريماً، محباً للناس، عطوفاً على الفقراء والمساكين، وعلى الأرامل والأيتام، وقد استأثر حب النبي الكريم بمجامع قلبه، وكثيراً ما رآه في رؤاه، وعندما زار قبره الشريف، فاضت عيناه بالدموع الغزار، وأُرتج عليه، فصار يتمتم وهو الكليم.

كان طلق المحيا واللسان، دؤوباً على طلب العلم، صابراً على استنباط الأحكام، وفهم ما يشكل على العلماء من أمثاله، متسامحاً مع المخالفين له في الرأي، ويتمتع بأسلوب تحليلي قائم على البرهان والدليل، وكان الكتاب جليسه وأنيسه حتى وفاته، وكان بعيداً عن الأضواء، يؤثر عليها كتابه وأصدقاءه وتلاميذه وبيته، وكان يجيد السباحة والرماية، وركوب الخيل، ويحب الصيد.

المعلم:

ذكرنا أن مدير مدرسة التجارة عينه معلماً فيها، مع أنه كان دون الثانية عشرة من العمر، ثم إن أباه الذي علمه وخبره ثم وثق بعلمه، انتدبه لتعليم

النحو، وهو في الخامسة عشرة، فدرس تلاميذه عدداً من كتب النحو، مثل الآجرومية للأزهري، وقطر الندى، وشذور الذهب لابن هشام، وشرح ألفية ابن مالك في النحو لابن عقيل.

ثم انتقل مدرساً للأدب في (معهد العلوم الشرعية الإسلامية) التابع للجمعية الغراء، وكنت واحداً من تلاميذه، وأفدت منه علماً وأدباً وأخلاقاً، ولي معه ذكريات حميمة، ما أحلاها من ذكريات قد أنشرها في غير هذا المقام، فهو الذي رغبنا في الأدب، وحببنا في اللغة العربية التي كان يعشقها كما يعشق دمشق، بل أكثر، وكان يوصينا باقتناء الكتب، ومنها كتب المنفلوطي الذي تربيت أنا على أسلوبه في بداية حياتي الأدبية، وقد أوصانا بأن يكون (مختار الصحاح) صاحبنا، وسميرنا، وأن يكون في عقولنا وقلوبنا، كما هو في أيدينا وجيوبنا، ليصحبنا حيث نكون، نديم النظر في مفرداته، لنكوِّن أسلوبنا الخاص، وليكون لنا معجمنا الخاص.

رغّبنا في قراءة الجاحظ والمبرد من القدماء والمنفلوطي والزيات من المحدثين فله -بعد الله تعالى- فضل تحبيبنا في الأدب، وعشقنا لغة القرآن العظيم.

ثم انتقل إلى ثانوية (سعادة الأبناء) التابعة للجمعية الغراء، فصار فيها مدرساً، ومديراً وآلاف الطلاب الذين أخذوا عنه العلم والأدب، يشهدون بفضله عليهم في العلم والأدب والتربية، وكانت له حلقات في جامع المرابط دامت سنوات، درَّسَ فيها تفسير الكشاف للزمخشري في إعجاز القرآن الكريم، وحلقة في كتاب الكامل للمبرد، وحلقة في الحديث، يقرأ فيها من البخاري ومسلم، مع شرح الحديث، وبيان المستفاد منه.

وكان له درس أسبوعي في منزل أخيه الشيخ أحمد، في الحديث الشريف مرة، وفي (الرسالة القشيرية) أخرى، وله درس أسبوعي في جامع الحمد يقرأ فيه من صحيحي البخاري ومسلم، وكانت له دروس أسبوعية لطلبة العلم منها

ما كان في دراسة اللغة والأدب، ومنها في دراسة الفقه المقارن، وفقه الحديث، وأصول الفقه.

وقد أسهم في تعديل مناهج المعاهد الشرعية التابعة للجمعية الغراء، وأدخل عليها العلوم الكونية من فيزياء وكيمياء، ورياضيات، كما أدخل التاريخ، والجغرافيا، واللغة الأجنبية، إلى جانب العلوم الشرعية والعربية.

والجدير بالذكر أنه كان يجمع بين الدعوة إلى الله، وبين العلم والأدب، فيمزج بينهما مزجاً عجيباً يتسلل إلى النفس والعقل والقلب بعفوية فيفعل فعله، دون أن تحس بوطأة الوعظ بل تستعذبه وتتمنى المزيد منه، وكان يزورنا في حلب، وله فيها تلاميذ ومريدون ومحبون.

الإعلامي:

كان الشيخ عبد الغني يكتب، ويحاضر، وله أحاديث في الإذاعة السورية، ومحاضرات في مساجد دمشق، وفي المجمع العلمي العربي بدمشق، وله مقالات في مجلة (الرسالة) القاهرية للزيات، وفي مجلة (حضارة الإسلام) الدمشقية للدكتور مصطفى السباعي، وفي مجلة (المرأة) للسيدة نديمة المنقاري، وفي جريدة الأيام الدمشقية، وسواها من الصحف، ولكن كرهه للأضواء والنفاق والمجاملات جعله ينأى بنفسه عنها، وقد رد في مجلة الرسالة على العقاد، وصحح له خطأً شائعاً بين الأدباء والعلماء كما رد على الشيخ العلامة بهجت البيطار. وما أدراك ما العقاد وما البيطار.

الكاتب والمؤلف:

كنت قرأت وأفدت الكثير من كتبه ولكني عندما قرأت أول كتاب له في سلسلة (أعلام المسلمين) عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قلت: سوف يتعب الشيخ من سيكتب بعده في هذه السلسلة المهمة، وتمنيت لو أنه يتفرغ للكتابة عن أعلام المسلمين بقلمه السيال، وأسلوبه المترف الأنيق، وقلت له ذلك فابتسم ابتسامته الساحرة وقال: (حبك الشيء يعمي ويصم).

قلت له: اسمح لي يا أستاذي الحبيب أن أؤكد لك أني لا أقول إلا الحق.. إلا ما أعتقد أنه الحق، ولست أطريك في هذا.

فقال: حبك لأستاذك..

قلت: لا والله مع أن حبي لأستاذي وشيخي شديد.

مؤلفاته:

- مختصر تفسير الخازن، المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل: وهو كتاب كبير، اختصره الشيخ في ثلاثة مجلدات كبيرة، من القطع الكبير، وجاء في ١٧٢٥ صفحة.

- الإمام الشافعي: فقيه السنة الأكبر، وهو الكتاب الثاني في سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدر عن دار القلم بدمشق، صدر عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م في أربع مئة صفحة من القطع العادي.

- الإمام النووي شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدثين، صدر هذا الكتاب القيم عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م عن دار القلم بدمشق، في ٢١٥ صفحة من القطع العادي.

- أحمد بن حنبل: إمام أهل السنة، صدر هذا الكتاب عن دار القلم بدمشق ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الإمام مالك بن أنس: إمام دار الهجرة، صدر عن دار القلم بدمشق في سلسلة (أعلام المسلمين) عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- سفيان بن عيينة شيخ شيوخ مكة في عصره، وهو من ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق صدر سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- الإمام سفيان الثوري: أمير المؤمنين في الحديث، صدر عن دار القلم بدمشق ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- تاريخ مدينة دمشق. طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية).

- معجم النحو، وهو (أول كتاب في النحو) أكبر من متوسط، صَنَّفَه عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، صدر عن المكتبة العربية بدمشق.

- معجم القواعد العربية في النحو والتصريف وذيل بالإملاء، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م عن دار القلم بدمشق.

- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، صدر عن دار الكتب العربية بدمشق في ٦٥٤ صفحة من القطع الكبير.

- محاضرات في الدين والتاريخ والاجتماع، وهو أول كتاب صدر للشيخ عبدالغني عام ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣ بتشجيع من (الجمعية الغراء) بدمشق..

- لمحات من الكتاب والنبوة والحكمة، صدر عن دار اليمامة بدمشق.

- صحيح الأدعية والأذكار، صدر عن دار القلم بدمشق سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٧٧م.

- قصة إبليس والراهب، صدرت عن دار الهجرة سنة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م في ٥٢ صفحة.

- الدعوة في القرآن وإلى القرآن، صدر عن دار الهجرة سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م في سبعين صفحة.

- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية- الفقه الشافعي، صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م في ٣٥٥ صفحة.

- تحقيق كتاب: قواعد الأحكام في مصالح الأنام تأليف العز بن عبد السلام، صدر عن دار الطباع بدمشق سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- تحقيق كتاب: تحرير ألفاظ التنبيه، أو لغة الفقه للإمام النووي.

- له ديوان شعر مخطوط.

وفاته:

توفي الشيخ عبدالغني في دمشق مساء يوم الخميس، الخامس عشر من شوال ١٤٢٣هـ - التاسع عشر من كانون الأول عام ٢٠٠٢م، ودفن في مقبرة باب الصغير، رحمه الله رحمة واسعة.

المصادر والمراجع:

- بعض كتبه.
- ذكرياتي: للشيخ علي الطنطاوي.
- حفل التأبين الذي أقيم له بدمشق، وأبَّنه فيه عدد من العلماء.
- رجال من التاريخ: علي الطنطاوي.

* * *

الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة

تمهيد:

إنما الناس بعلمائها، فإذا خلت أمة من الأمم، أو خلا شعب من الشعوب، أو جماعة من الجماعات من العلماء، كانت جسداً بلا روح، بلا رأس، بلا عقل، بلا قلب، ولهذا يحرص الناس على علمائهم، لينيروا لهم سبل الحياة، فإذا افتقدوهم، سارعوا إلى بذل الكثير من أجل أن يكون فيهم علماء، حتى لا يعيشوا في ظلام الجهل، وظلمات الظلم والجهالة.

وقد كانت جماعة الإخوان المسلمين حافلة بالعلماء في كل قطر فيه (إخوان مسلمون).. في مصر، وسورية، ولبنان، والعراق، والأردن، وفلسطين، والسودان، وفي الجزيرة العربية، وفي سواها من بلدان العالم العربي والإسلامي.

نشأته:

من هؤلاء العلماء الأفذاذ في سورية الحبيبة: الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة -رحمه الله تعالى- الذي شغل منصب المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين، أكثر من مرة.

وُلد الشيخ عبد الفتاح في مدينة حلب سنة ١٩١٧م - ١٣٣٧هـ في أسرة متوسطة الحال، تعود بنسبها إلى الصحابي العظيم، القائد البطل خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه.

كان أبوه (محمد بن بشير أبو غدّة) يعمل في التجارة، ويحرص على

الكسب الحلال، ويربّي أولاده عليه. .

درس في الكلية الشرعية (الخسروية) في حلب بين عامي: ١٩٢٦ - ١٩٤٢ وكان متفوّقاً على أقرانه. وكان من شيوخه فيها، العلماء: الشيخ راغب الطبّاخ، والشيخ أحمد الزرقاء، والشيخ مصطفى الزرقاء، والشيخ إبراهيم السلقيني (الجدّ) والشيخ محمد السلقيني، والشيخ عيسى البيانوني وغيرهم. رحمهم الله رحمة واسعة.

يقول الشيخ مصطفى الزرقا الذي كان من أساتذته في الخسروية:

«كنت في هذه المرحلة ألحظ شاباً ناهضاً يلازم دروسي الفقهيّة، ولا سيّما محاضراتي التي أستهلّ بها كلّ باب من أبواب الفقه، قبل النزول إلى قراءة أحكامه وشرحها، مع أنه متخرّج قبلاً من هذه المدرسة، وألحظ أنه كان حريصاً كلّ الحرص على تفهّم المسائل تفهّماً دقيقاً، ويناقش فيها.

ثم كنت أقوم بأداء درسٍ مرتين في الأسبوع في (جامع الخير) بحلب، مكان والدي، بعد وفاته -رحمه الله- فكان هذا الشابّ نفسه يلازمني فيه، ولا تفوته منه حصّة، وحضر عليّ فيه جانباً من الكتاب الفريد في بابه، وهو كتاب الموافقات للإمام الشاطبي، في أصول الشريعة ومقاصدها. .»

هذا الشاب الناهض (عبد الفتاح) كان منكبّاً على العلم، متابعاً العلماء، يحضر دروسهم، ويجلس إليهم، ويستفيد من علمهم وأدبهم وسلوكهم، ومن دينهم وتقواهم وورعهم.

لكنّ حلب وعلماءها العاملين الأفاضل، لم يرووا نهمة العلم لديه، فشدّ الرحال إلى أرض الكنانة، حيث الأزهر والعلم والعلماء، وانتسب إلى كلية الشريعة عام ١٩٤٤ ونال شهادتها عام ١٩٤٨ ثم تخصص في أصول التدريس، في كلية اللغة العربية مدة سنتين، وتخرج فيها عام ١٩٥٠

وكان من أبرز أساتذته في مصر: الشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ مصطفى صبري، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد المدني، والشيخ

محمد الخضر حسين، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ عبد الرحيم الفرغلي، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ حسنين محمد مخلوف -مفتي الديار المصرية- وسواهم من كبار العلماء. رحمهم الله رحمة واسعة.

السياسي:

بعد أن أنهى دراسته في الأزهر، عاد إلى حلب، واتخذ من التدريس مهنة له، فالتحق بوزارة المعارف السورية، مدرساً لمادة التربية الإسلامية فيما بين: ١٩٥١ و١٩٦٢ فقد استقال في هذه السنّة، ليخوض غمار السياسة من خلال مجلس النّواب (البرلمان) فقد ترشّح عن مدينة حلب لعام ١٩٦٢ عن جماعة الإخوان المسلمين، ونال ثقة الناس، وفاز بعضويته، وكان الصوت الحرّ المدوّي في أرجائه، المنادي بتطبيق الشريعة التي انتخبته الجماهير من أجلها.

توزّعت حياة الشيخ بين التربية والتعليم، وطلب العلم، والدعوة إلى الله من جهة، وبين السياسة التي اكتوى بلظاها، وأصابه الكثير من شرورها، من جهة أخرى، فعلى الرغم من ثقة الجماهير المسلمة به، واحترام السياسيين من شتى الأطياف له، ذاق مرارة السجن والاعتقال في سجن تدمر العسكري الصحراوي، على يد النظام الحاكم منذ عام ١٩٦٣، فقد اعتقل في تموز ١٩٦٦، وأفرج عنه في حزيران ١٩٦٧ بعد الهزيمة المنكرة في حرب حزيران، التي أرغمت حكام سورية على الإفراج عنه وعن إخوانه الذين اعتقلوهم معه.

العالم المعلم:

ولكنّ كفاحه السياسيّ في الداخل، وبعد أن اضطرّ إلى الخروج من البلاد مع عشرات الآلاف من المواطنين الذين فرّوا من سورية حفاظاً على أرواحهم، وأعراضهم، ودينهم، لم يكن شيئاً كبيراً إذا قيس بمحور التربية والتعليم، وطلب العلم، والدعوة إلى الله تعالى. فقد كان الشيخ، في سائر

أحواله، يدعو إلى الله على بصيرة، من خلال دروسه في المدارس الثانوية والشرعية في حلب. وفي الجامعات التي درّس فيها، فقد انتدب للتدريس في جامعة دمشق مدّة سنتين (١٩٦٢ - ١٩٦٣) في كلية الشريعة -درَّس مادة: الفقه الحنفي وأصوله، والفقه المقارن- ثم سافر إلى السعودية عام ١٩٦٥ متعاقداً مع كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود، التي بقي يعمل فيها طوال ثلاث وعشرين سنة، يدرّس في المعهد العالي للقضاء، ثم في كلية أصول الدين (الدراسات العليا) مدّة عشر سنين، ثم عمل في تدريس علوم الحديث في جامعة الملك سعود في الرياض أيضاً مدة سنتين، وتقاعد عن التدريس عام ١٤١١هـ - ١٩٩١م، وكان يدعى إلى إلقاء محاضرات في عدد من الجامعات العربية والإسلامية، وكان يستجيب لها، فقد ألقى عدّة محاضرات في جامعة أم درمان في السودان عام ١٣٩٦هـ وفي جامعة صنعاء في اليمن عام ١٣٩٨هـ، وفي ندوة العلماء في لكهنؤ (الهند) عام ١٣٩٩هـ. وفي الجامعة الأردنية. وفي سواها من الجامعات في المغرب، وباكستان، والجزائر، وتركيا.

وكان -إلى جانب التدريس- يشارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في سورية، قبل أن يغادرها، وفي المعهد العالي للقضاء، وفي كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض.

في المؤتمرات والندوات:

ولم يقعده العمل الوظيفي عن المشاركة في عدد كبير من المؤتمرات والندوات في سورية -قبل أن يغادرها- وفي العراق، واليمن، والسعودية، وقطر، والمغرب، والسودان، والهند، وباكستان، وتركيا، وأندونيسيا، وأفغانستان، وطاشقند، وسمرقند، وأوربا، وأمريكا، وكندا وغيرها.. فقد ذاع صيته في العالم الإسلامي، وفي الأوساط الإسلاميّة في كل مكان، عالماً عاملاً، ومؤلفاً كبيراً، وخطيباً مفوّهاً، ومحاضراً قديراً، ولهذا اختاره المجمع

العلمي العراقي في بغداد عضواً فيه، كما اختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ونال جائزة سلطان بروناي لخدمة الحديث الشريف.

في ميدان التأليف والتحقيق:

أمّا في مجال الكتابة والتأليف والتحقيق، فحدّث ولا حرج، فهو كاتب بليغ، ومؤلّف ضليع، وعالم محقّق، يحفظ الكثير من كتب الأدب والشعر، وقارئ نهم، عنده مكتبة ضخمة قلَّ نظيرها في المكتبات، تحوي ألواناً من كتب الحديث، والتفسير، والفقه، واللغة، والأدب، والتاريخ، وعدد من العلوم الأخرى مطبوعة ومخطوطة، وتجد فيها من الكتب النادرة مالا تجده في غيرها من المكتبات، فقد كان الشيخ حريصاً على اقتنائها، يبذل في سبيل الحصول عليها المال والجهد والوقت، ولقد صحبته مراراً في حلب وبغداد، وهو يتنقل من مكتبة إلى أخرى، لا يبالي بالحرّ القائظ، ولا بالعرق يتصبب منه، كما لا يبالي بالوقت الذي يصرفه في التنقيب عنها، وهو الشديد الحرص على الوقت الذي لا يتهاون في صرف القليل منه في غير فائدة.. وقد ألّف كتاباً في قيمة الوقت عند العلماء.

ألّف في الكتب المدرسية السورية ستة كتب، شاركه في تأليفها الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، رحمهما الله تعالى، وألّف وحقّق أكثر من ثمانين كتاباً في الحديث وعلومه، وفي الفقه، والأخلاق، والتاريخ، والرجال، وسواها.. ولكنه اشتهر بالحديث الذي ألّف فيه حوالي ثلاثين كتاباً، فهو من كبار علماء الحديث وشيوخه في عصره. ولقد ارتحل رحلة علمية على حسابه إلى بلاد الهند، ليلقى فيها علماء الحديث هناك، وما أكثرهم، وعاد من هذه الرحلة التي استمرت ثلاثة أشهر سنة ١٩٦٢، عاد بحصيلة كبيرة من هذا العلم، ومن معرفة رجاله الذين أخذ عنهم هناك، وهم من شيوخ الحديث في هذا العصر، ولقد كان يفخر بأن شيوخه هنا وهناك وهنالك، بلغوا مئة

وثمانين شيخاً، كثير منهم من الهند، كما عاد بعدد من الإجازات العلمية من أولئك الشيوخ الذين شهدوا له بالعلم، وأنّه ثقة فيما يحقّق، ويمحّص، وينقل، ويحفظ، ويكتب، ويستخلص، وقد ساعده على هذا تمكّنه من علوم اللغة العربية، ومن العلوم الشرعيّة معاً. . ويظهر هذا في الكتب التي حققها، وملأها علماً في هوامشه التي تدلّ على اطلاع واسع، وعلى علم غزير، والذي يطلع على تلك الهوامش يفيد علماً وأدباً، وأضرب على ذلك مثالاً واحداً: (رسالة المسترشدين) للإمام الحارث المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي، وعندما عمل في (موسوعة الفقه الإسلامي) في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وأكمل -طوال السنتين اللتين عمل فيهما- ما كان بقي من (معجم فقه المحلّى) لابن حزم -رحمه الله تعالى- في جزءين. . وصف الشيخ مصطفى الزرقا ما كان بقوله:

«وبعد أن عهدنا بهذا العمل الجليل الدقيق إلى بعض الأسماء البارزة التي قدّمت نفسها له. . لم نجدها قادرة عليه، ولم نجد من نعتمد عليه فيه إلا الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبا غدّة، فنهض به بهمّة، وخبرة، ودقّة علمية، وكان باكورة ممتازة اقتفي أثرها في معجمات أخرى لمذاهب أو كتب من الفقه العام، والفقه المقارن، وضعت على غراره».

منهجه النقدي:

كان منهجه في النقد -كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي بحق-: «يميل إلى الأدب النفسيّ في تخطئة ذوي الرأي، فيكتفي بإيضاح الخطأ دون تزيّد أو تهجّم». «ويذكر رأيه مؤيداً بالمصدر التاريخي الذي لا يقبل الدفع. . ويلتزم بالإيجاز الدقيق في تصحيح الأخطاء».

أقول: وقد سمعت منه أنه كان يصرف الساعات الطوال في متابعة لفظة، أو تحقيق عبارة، وكان يرسل نقداته العلمية الموجزة في تلك الهوامش، أو إلى بعض المجلات الأدبية ذات الشأن، وهي تدلّ على بصر وسداد. . ولكنّ

الشيخ -رحمه الله- قد يحتدّ ويشتدّ في بعض ما يكتب، نقداً، أو تعليقاً، أو إنشاء. . وإذا غضب الشيخ فغضبه هو الغضب. . ولكنّ هذا قليل، ومن أجل الله وما يرى أنه الحقّ المنتهَك.

مع المذهبية الفقهية:

وكان الشيخ يرى أن «التشبث بالمذاهب الفقهيّة والتعلّق بها، واجب على كلّ من لم يكن من أهل الاجتهاد والمعرفة التامّة بحكم الشريعة وفروعها وأصولها، أمّا التشبّث والتيبّس في أمر المذهب الواحد، فهذا ليس بواجب في الشرع. . بل هذا من النقص النفسيّ. . فينبغي للإنسان أن يعدل عنه، فيكون واسع الصدر، وواسع الرأي، وواسع القلب، يقدّر كلّ إمام بفضله وكرمه وعلمه ومقامه العظيم، فليس أحد من الأئمة أفضل من الآخر، وكلّهم من رسول الله ﷺ ملتمس ومقتبس».

المربي الداعية:

وكان الشيخ مربّياً، تخرّج على يديه آلاف من الطلبة الذين درّسهم في المدارس الثانوية: العامة والشرعية وفي الجامعات، وآلاف آخرون كانوا يأتون إلى مسجد الحموي، ثم إلى مسجد الكلية الشرعية (الخسروية) من أنحاء ريف حلب وأحيائها، ليستمعوا إلى خطبة الجمعة، وإلى (جلسة التفقّه في الدين) التي كان يعقدها بعد صلاة الجمعة، وإلى درسيه الأسبوعيين في مسجد سيف الدولة، ومسجد زكي باشا، بحلب، وكذلك الأمر، الذين تتلمذوا عليه في سجن تدمر من المعتقلين السياسيين.

وليس هذا بمستغرب في المدرسة اليوسفيّة، ومن تلاميذ الإمام الشهيد حسن البنا -رضي الله عنه وأرضاه- الذي التقاه شيخنا في مصر، وتتلمذ على يديه، وأفاد الكثير منه في التربية والدعوة إلى الله تعالى، وقد نقل ما أفاده إلى إخوانه وتلاميذه الكثر في سورية، عندما أنهى دراسته في مصر، وعاد إلى سورية، ليكون من الرعيل الأول في حركة الإخوان المسلمين في سورية، إلى

جانب إخوانه قادة الدعوة فيها: مصطفى السباعي، ومحمد المبارك، ومحمد خير الجلاد، وعبد الوهاب ألتنجي، وعبد القادر السبسبي، وعمر بهاء الدين الأميري، وعصام العطار، وزهير الشاويش، وحسن هويدي، وأديب الصالح، ومحمد الحامد، وعبد الله حلاق، وعادل كنعان، ومصطفى الصيرفي، وعدنان سعد الدين، وعبد الله علوان، وسواهم من رجال الدعوة الأبرار.

من سجاياه:

عرفنا الشيخ عن قرب، فقد كان أستاذنا، وشيخنا، ومرشدنا، ومربينا، وصاحب فضل كبير علينا، وذكرياتنا مع الشيخ كثيرة، لعلي أجد فسحة من الوقت لتدوينها، ولو في رواية أو عدة قصص. وخاصة تلك التي لا يعرفها الناس عن الشيخ المهيب.. فقد كان ذا روح مرحة، تؤنس جلساءه ولم يكن زميتاً.. وبعض بساتين حلب التي كنا نصحبه إليها لفطور أو غداء جماعي، وبعض سهراتنا الخاصة، ودروسنا الخاصة في بعض بيوتنا في حلب وعمان وبغداد والرياض، تشهد على خفة دمه، وحلاوة روحه، وجمال محفوظه من الشعر والنوادر والحكايات البديعة.

وقد أوتي الشيخ من السجايا والشمائل، ما حبّبه إلى كل من عرفه، من علوّ الهمّة، والصبر على طلب العلم وتحصيله، والحرص على العمل بما يعلم، وسعة الأفق، بحيث كان يصادق العلماء والمفكرين والأدباء والسياسيين من مختلف الاتجاهات والمشارب..

وكان الشيخ يتمتع بذوق رفيع في تعامله مع مشايخه ومع تلاميذه، وقد شهدته أكثر من مرة، يقبّل يد شيخه العلامة مصطفى الزرقاء، والشيخ مصطفى يحاول التخلّص من تلك القبلات، فلا يقوى على منع هذا الشيخ التلميذ صاحب الوفاء والذوق والحب الخالص لشيخه الذي علّمه شاباً، وكهلاً، وشيخاً، كما كنت أسمع التحاور بين الشيخين. ولقد شهدت الكثير

من أدبه الجمّ مع الشيخ محمد بهجت الأثري، والشيخ جلال الحنفي في بغداد، ومع بعض مشايخه الهنود الذين زاروا مدينة حلب، بدعوة منه، ومع سواهم من العلماء العاملين.

وكان شيخنا ذا حسّ مرهف، وقلب رقيق لا يتحمل سماع مأساة إلا وتعتصره، كنا مرة نستمع إلى حديث أخ قدم من حلب، وصار يحدثنا عما يلقاه إخواننا من ألوان القهر والجور، وذكر حادثة مريعة فصرخ شيخنا ووضع كفّه على أذنه، ولم يطق سماع المزيد. ولعل شكواه من أذنه هذه لازمته حتى آخر يوم في حياته.

وما زلت أذكر تطوافه على مكتبات بغداد في يوم شديد الحرّ من أيام آب اللهّاب، وعندما كنت أعرض عليه الماء، واللبن، والسوس، ليبرد عطشه، أو يبلّ ريقه، كان يأبى، وعندما سألته عن السبب قال: حتى لا أتعرّق فيتأذى الناس من عرقي.

ولعل ذوقه هذا قد دفعه إلى تأليف كتابه: (من آداب الإسلام) فهذا الكتاب على صغر حجمه، يشي بما كان عليه الشيخ من الذوق، ومن حبه أن يكون المسلم شامة بين الناس في أخلاقه، وسلوكه، فإذا كان لغير المسلمين (أتيكيت) خاص بهم، فللمسلمين (أتيكيتهم) الرفيع، المهذب، الذي يراعي الجانب الإنساني في حياة المسلم. وإني أدعو المسلمين عامة ـ والإخوان خاصة- إلى تدارس هذا الكتيّب اللطيف في حجمه، الغزير في فوائده ومادته، كما أدعو المؤلفين من الدعاة إلى الكتابة في هذا الموضوع، وأن يدعوا المسلمين إلى ذوق الإسلام، ونبيّ الإسلام ﷺ فهم في مسيس الحاجة إلى التخلق بأخلاقه، عليه صلوات الله وسلامه.

وكان الشيخ وفيّاً لدينه ودعوته وشعبه وأرضه، وفيّاً لشيوخه ولإخوانه ولتلاميذه، وفيّاً لأصدقائه ومعارفه، يزينه لسان صادق عفيف، وإحساس مرهف، وحبّ ناعم، وهيام رقيق بالجمال، إذا جلست إليه في ساعة صفاء،

أسمعك رقيق الشعر وناعم الشعور فيما يحفظ من شعر وحكايات. وكان حيّياً، يجامل الآخرين، فتؤخذ عليه بعض مجاملاته التي كنّا نراها تصبّ في خانة الدعوة إلى الله بالحكمة، فهو داعية مجاهد، ومربّ حكيم في علمه، وحلمه، وفي ذوقه السامي في مواعظه الناعمة، ودعاباته الحلوة المهذّبة، وفي أناقته في هندامه ولباسه وفي مظهره العام، وفي نظافته التي كانت شعاراً له كما لسائر الدّعاة الوعاة..

كان الشيخ من بقايا السلف الصالح، من البقايا الذين تحدّث رسول الله ﷺ عنهم، وكما كان يحبّ السّلف الصالح، كان يحبّ الخلف الصالح، ويسعى إليهم، ليتزوّد من علومهم وآدابهم وسلوكهم، ولعله الأعلم منهم والأتقى والأورع، ولكنها سجايا الصالحين، الذين تربّوا في مدرسة محمد ﷺ..

رحيله:

هذا قليل من كثير مما يجب أن يقال في هذا العالم الربّاني الذي رحل عن دنيانا في التاسع من شوال عام ١٤١٧هـ في مدينة الرياض، ودفن في (البقيع) الطاهر، في اليوم الثاني لوفاته، وشيّعه الآلاف من محبّيه، وبكى عليه الذين عرفوه والذين سمعوا به وعنه من أبناء سورية الحبيبة التي طالما حنّ إليها، وعمل من أجل عودة أبنائها البررة إليها، ولقي في ذلك ما لقي، مما احتسبه عند الله، وهمس به لمن لقيه من إخوانه وتلاميذه، تغمده الله بفيض رحمته وعفوه ورضوانه.

يا حسرة على العباد:

إن شيخنا الجليل لم يُعْطَ حقّه من إخوانه الذين كانوا يتخذون منه دريئة في الملمات، ولا من زملائه وتلاميذه من العلماء والأدباء والكتّاب.. لا في حياته، ولا بعد رحيله.. وكان الحريّ بهم أن يدوّنوا سيرته بكل ما فيها من عظات وعبر، وبالتفصيل، وأنا أشعر بتقصيري تجاه شيخنا الجليل، وتجاه

أستاذي وموجّهي الشاعر الكبير عمر بهاء الدين الأميري، وتجاه الكثير من مشايخي وأساتذتي الفضلاء الذين سبقوني إلى الدار الآخرة.. إنني، وإننا لا يعوزنا الاعتذار عن التقصير، بكثرة المشاغل، وضيق الأوقات، وتعدد الواجبات، وهذا كله صحيح، وصحيح أيضاً برمجة الأولويات.. وترجمة أساتذتنا يجب أن تكون من الأولويات.. هذا كلام نقوله بعيداً عن التنفيذ، ولله المشتكى.. وإلا.. فأين جهودنا في هذا الباب؟ أين الرسائل الجامعية التي وجّهنا طلاب العلم لكتابتها عن عظمائنا في العصر الحديث؟

إن (غيرنا) أشطر منا، ولا أقول: إنهم لأساتذتهم وأفكارهم أكثر وفاء منا.. ولا يستطيعون هم أن ينكروا فضل أساتذتنا، ولكنهم في واد مغاير لشوامخنا، ومن مشارب هيهات أن ترقى لمشارب مشايخنا، ومن حقّهم أن يغزلوا غزلهم، ويسبحوا في مسابحهم، ومن حقنا والواجب علينا أن نقدّم ما عندنا من سير رجالاتنا ما يجلو بعض الغموض، ويزيل التعتيم والإجحاف اللذين لحقا بقممنا.. ولعلّي أفعل.. ولعلّ غيري يكون السبّاق في هذا المضمار. ولا حول ولا قوة إلا بالله القوي المتعالي.

المصادر والمراجع:

- بعض كتب الشيخ.
- موقعه على الأنترنت.
- من أعلام الدعوة: للمستشار عبدالله العقيل.
- ذيل الأعلام: لأحمد العلاونة.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها: د. محمد رجب البيومي.

* * *

القائد الأمير عبد الكريم الخطابي
رجل الجهاد والتحرير

تمهيد:

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ منهم المجاهد الكبير الشيخ محمد عبد الكريم الخطابي، أحد رجال السلسلة الذهبية في الجهاد والتحرير والنهوض في أواخر القرن التاسع عشر، وأواسط القرن العشرين، فقد قدم هذا المجاهد الكبير كل ما لديه من طاقات في الدفاع عن أرضه وشعبه وإسلامه ولم يأل جهداً في البذل والعطاء في سائر ميادين الكفاح الدامي، والإصلاح، حتى صار هذا الشيخ علماً من أعلام الجهاد، وقدوة في التضحية بالمال، والراحة، والوقت، والروح، وزعيم ثورة عرفت باسمه في شمال المغرب، بل هو «أحد أولئك الذين يولدون زعماء في أزمنة مختلفة بين الأمم، ليكونوا مصيرها، ويتركوا آثارهم في تاريخ العالم».

المولد والنشأة:

ولد الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي -وهذا هو اسمه- في مدينة (أغدير) المغربية، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين تطوان ومليلة، عام ١٢٩٩هـ- ١٨٨٢م في بيت علم وجهاد، من قبيلة (ورياغل) إحدى كبريات القبائل البربرية في جبال الريف.

وهو من حفدة السلالة الإدريسية وينتسب إلى السلالة العمرية الكريمة، سلالة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حفظ القرآن الكريم وهو فتى يافع، ثم أرسله أبوه إلى جامع (القرويين)

في مدينة (فاس) وبعد أن أنهى تعليمه فيه، عاد إلى الريف، وأقام في (مليلة) وتولى منصب القضاء فيها.

الكفاح الدامي:

شب الأمير في ظروف الصراع بين شعبه المغربي من جهة، وبين الغزاة من الإسبان والفرنسيين من جهة أخرى. فقد امتد احتلال الإسبان من مليلة وتطوان، إلى شفشاون، فأظهر عبد الكريم -والد الأمير محمد- معارضة لهم، وكان من وجهاء قبيلته والقبائل المجاورة، فانتقم الإسبان منه بعزل ابنه محمد من منصب القضاء، واعتقاله في سجن (كبالرزا) سنة ١٩٢٠ حيث أمضى أحد عشر يوماً في زنزانة انفرادية، ثم حاول الفرار من المعتقل في قلعة (مليلة)، فسقط من فوق سوره العالي، وكسرت ساقه، وأعيد إلى السجن، وقبع في أقبائه أربعة أشهر.

وبعد الإفراج عنه، انطلق إلى أبناء قبيلته وجمع الأنصار حوله، ثم آلت قيادتها إليه، بعد وفاة أبيه المجاهد عبد الكريم، ليخوض بهم معارك طاحنة ضد الغزاة الإسبان ثم الفرنسيين، وحقق نصراً عظيماً في معركة (أنوال) في جبال الريف، في تموز ١٩٢١ (أواخر سنة ١٣٣٩هـ) فقد استرد هذا المركز الحصين من الإسبان، وأفنى حاميته وغنم كل ما كان فيه من ذخائر ومؤن، ولم يكن مع الأمير محمد بن عبد الكريم حين هاجمه سوى مدفع واحد غنمه في معركة سابقة مع الإسبان الأعداء.

وكان من نتائج هذه المعركة المظفرة، أن اهتزت إسبانيا فزعاً من هذا القائد المحنك، وحشدت له جيشاً جديداً مؤلفاً من مئة ألف مقاتل، لتطبق به على بلدته (أغير) من الشرق والغرب.

وتصدى لهم البطل الخطابي، وتتابعت معاركه وانتصاراته المذهلة، فاستعاد مدينة شفشاون من أيدي الإسبان الذين سبق لهم أن احتلوها، وحاول استعادة تطوان من أيدي المحتلين، وأرسل من جنوده من يهدد مدينة (تازة)

وقدر جيشه بمئة ألف مقاتل، وأنشأ جمهورية الريف، فخاف الفرنسيون من امتداد الثورة الخطابية من الشمال إلى الداخل الذي يسيطرون عليه، وتحالفوا مع الإسبان لمواجهة الثائر المجاهد الشيخ محمد عبد الكريم الخطابي.

الحركة الجهادية:

ظهر التنظيم العسكري الجهادي بقيادة البطل القائد محمد عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢١ بقوة، واكتسحت بعضَ القطعات العسكرية الإسبانية بصورة مفاجئة لم يعهدها الإسبان فيما خاضوا من معارك مع المغاربة، وخاصة أبناء المدن، الأمر الذي جعل بعض الأقلام الإسبانية تنادي بالانسحاب من المغرب، قبل أن تستفحل الأمور، وتكثر الخسائر بالأرواح والأعتدة.

أسباب المقاومة:

زعم الفرنسيون الغزاة أن المجاهدين بقيادة محمد عبد الكريم، إنما يقاتلون بدوافع اقتصادية بحتة، ولكنهم لم يلبثوا طويلاً حتى يعترفوا أن الدوافع الإسلامية والوطنية هي التي تدفع أولئك الرجال إلى الاستبسال في القتال، لنوال النصر، أو الفوز بالشهادة في سبيل الله.

جهاد وسياسة:

كان القائد الخطابي يجاهد في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله، ونصرة المسلمين، ومن أجل حرية بلاده، وتخليصها من الغزاة الإسبان والفرنسيين.

وقد عانى، في جهاده المقدس هذا، ما عاناه شعبه من آلام الحروب ومصائبها، من دون أن تحبط همته، أو تلين عزيمته، أو تخور قواه.

كان يقاتل الإسبان المعتدين من جهة، ويقيم دعائم دولته الوليدة من جهة أخرى، فيطلب من الفلاحين أن يلتفتوا إلى أعمالهم الزراعية، ويعنوا

بأرضهم، ولكن دولة الفرنسيين الجائرة، بعد أن رأت جيشه وكتائبه المظفرة تسحق جيش الإسبان اللئيم، بادرت إلى التحالف مع الإسبان، وأغارت على الريف الثائر «نجدة لجارتها المخذولة، بدافع العصبية الملية، وعملاً بتقاليد السياسة الأوربية القائلة بوجوب تألب الدول الإفرنجية على الأمم الإسلامية» حسب تعبير الخطابي:

«فدولتا فرنسا وإسبانيا قد اتفقتا على أمرنا اليوم، مثل ما اتفقت من قبل دول الإنكليز والطليان والفرنسيين واليونان على إخواننا الأتراك، واحتلوا الآستانة وإزمير و. . و. . وأرادوا أن يقضوا على دولتهم الإسلامية قضاء مبرماً. .»

إنه لا يقاتل ويحارب حباً بالقتال والحرب، أو رغبة في إراقة الدماء، بل لتحرير البلاد والعباد من الغزاة الفرنسيين والإسبان.

«وأما إذاعة هاتين الدولتين رغبتهما في عقد الصلح، فما هي إلا مخاتلة ودسيسة سياسية، تتوسلان بها لإلقاء تبعة تلاشي عقد الصلح على عاتقنا، ولتضليل الرأي العام الإسلامي، ومخادعة أمّتيهما اللتين قد تدمرتا مما أنزلنا بهما من البطش والتنكيل بهذه الحرب التي أظهرنا فيها قدرتنا العظيمة، وبأسنا الشديد. ثم إنهما لو كانتا صادقتين في دعواهما، لما كنا نرى الآن تتابع سوق الجيوش وحشدها على حدود بلادنا، فمن يريد الصلح لا يزيد الحرب وطيساً، ولا يبدأ باستعمال قنابل الغازات الخانقة، ويرميها بالطيارات على الأسواق والمدن المسالمة في الليل والنهار، فتقتل النساء والصبيان الآمنين في مساكنهم. . إن من يريد الصلح لا يتكالب على حرق المزروعات، وقتل الأنعام، ظناً منه أن هذه الوسائل تميتنا جوعاً، فنذعن إلى الخضوع والاستسلام. .»

كان الخطابي واعياً لما يدور حوله من تآمر وتحالفات، ويعرف دوافعها، وما ترمي إليه، ولا يقع فريسة الخداع والتضليل. .

لقد حدد الهدف، ورسم الاستراتيجية، وأعدّ واستعد، ثم عزم وتوكل على الله. «فقدرته سبحانه وتعالى، لا يعز عليها أن تنصرنا على هاتين الدولتين الجائرتين».

كان يعلم أن الغزاة المستعمرين يزجّون بأبناء الجزائر وتونس الخاضعتين للاستعمار، في هذه الحرب، بل إن أربعة أخماس الجنود الذين يقاتلون بهم أبناء الريف المغربي، هم من الجزائريين والتونسيين ولذلك وجه رسالة إلى إخوانه هؤلاء دعاهم فيها إلى أن يمتنعوا عن قتال إخوانهم المغاربة، ودعاهم إلى الانضمام إلى إخوانهم، وتوجيه أسلحتهم إلى الاستعمار:

«يا أيها المسلمون التونسيون والجزائريون إن الأمر الذي يشق علينا تحمُّله هو أن نرى أبناءكم يساقون قهراً لمحاربتنا، كما أنه يشق علينا أن نرانا ملزمين -لأجل الدفاع عن استقلالنا- أن نتقابل في ساحة القتال مع إخواننا في الجنس والدين. إنها حالة، والله، لتتنغص منها نفوسنا حسراً، ولتتفتت منها نفوسنا كمداً. ألم يقل الله عز وجل: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه)؟

كان الخطابي يثير في أولئك الجنود الحمية العربية والأخوة الإسلامية، ويذكرهم بقول الرسول القائد ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وكان لنداءاته ورسائله هذه أثرها في نفوس من وصلت إليه من الجنود، فانحازوا إليه، وقاتلوا في صفوفه، واستبسلوا للتكفير عما ارتكبوه، واستشهدوا، رحمهم الله تعالى.

يقول لهم:

«إن في هلاكنا هلاككم، وفي خلاصنا خلاصكم، فلنكن عصبة واحدة ولنتكاتف تكاتف أجدادنا في العهد الإسلامي الأول، لمحاربة الأعداء، وسوف نوفق لإنقاذ أمتنا الإسلامية من عيشة الذل والهوان، وننال حريتنا واستقلالنا، فدولة الفرنسيين التي تجند اليوم أبناءكم بالجبر، وتسوقهم لقتالنا

بالرغم، فإن تمّ لها النصر، وتغلبت علينا في هاته الحرب -لا سمح الله- فهي ستجند غداً أولادنا حتماً، وتقودهم لمحاربتكم، إذا أنتم عمدتم يوماً ما على الانقضاض عليها، تخلصاً من نيرها الاستعماري الهالك».

كانت ثقة الخطابي بالله ثم بالأمة كبيرة، وأن الأمة العربية والإسلامية إذا هبت في وجوه المستعمرين الذين غزوها وانتهكوا حرماتها، ونهبوا ثرواتها، فإنها سوف تتغلب على أولئك الغزاة، كما جاء في الرسالة التي وجهها إلى الأشقاء الجزائريين والتونسيين الذين يساقون إلى محاربة إخوانهم المغاربة المجاهدين الثائرين، في أغدير (أوط ١٩٢٥ الموافق ٢٦ محرم الحرام ١٣٤٤هـ).

كان للمقاومة الباسلة التي قادها القائد الشيخ محمد عبد الكريم الخطابي آثارها البعيدة في إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، ظهرت في صحافة هذه الدول، وفي مباحثات قادتها السياسيين وقادتها العسكريين، وتخوُّفِ الكثيرين من امتدادات عبد الكريم وتأثيراته في القبائل المغربية، وفي الشعب المغربي كله، بل وفي الوطن العربي كله، بعد أن عرفوا إيمانه بالوحدة العربية، فقد كان في كثير من أقواله يصرح بإيمانه بضرورة الوحدة العربية، وثقته بها:

«نحن نحب السلام، ونأبى المذلة، والضيم، وقد عاهدنا الله والعرب، أن ندافع عن استقلالنا الذي يهدده الأجنبي الغاصب».

وقد رسم المعلقون والخبراء السياسيون لشخصية الأمير الخطابي صورة واضحة الملامح حين قالوا:

«إن عبد الكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه، حتى صار الناس في الهند وبغداد والقاهرة وسواها، يرون فيه قائداً جباراً، فإذا أصبح -والحالة هذه- في مركز يدعو فيه إلى الجهاد في إفريقيا الشمالية، وبلاد العرب، والأناضول، فإن إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا سوف تتعرض لأخطار جسيمة».

خطة المقاومة:

كانت للقائد الخطابي خططه الحكيمة في دخول المعارك وكسبها، مستفيداً من الخطط الحربية الغربية، ومن واقع الأرض التي ستجري فوقها، والقبائل التي سوف تعاني منها. .

كان يدرس الأرض دراسة القائد الخبير بها، فيحفر الخنادق ليستخدمها في الهجوم، وفي الانسحاب إذا اضطر إليه، ليتفادى أكبر قدر من الخسائر، ويقيم المتاريس، ويستفيد من التبّات والتلال والحواجز الطبيعية، ويرافق هذا النشاط، وقد تسبقه، دعاية نشطة في كل أسواق المنطقة، تستثير أبناء الريف ضد الغزاة الإسبان والفرنسيين. تثير فيهم حمية الرجال في الحفاظ على الأعراض، والدين، والقيم، وعلى الأرض، والأموال، والشرف، وما إلى ذلك من قيم النخوة، والمروءة، والشجاعة، والنجدة، بحيث يكونون في حالة تعبئة نفسية وروحية عالية، ترفع معنوياتهم، وليكونوا إلى جانب المجاهدين الذين يبذلون كل شيء من أجلهم. . من أجل الشعب، والأرض، والدين. . وإذا كان المجاهدون يضحون بأرواحهم، فعلى أبناء القبائل أن يعينوهم في جهادهم، ويكونوا معهم، ولا يكونوا عليهم مع الغزاة، كما يفعل الخونة والعملاء الذين باعوا شرفهم وأهلهم ودينهم للمستعمرين الإسبان والفرنسيين. .

ومن الخطط الحربية الهجومية الحكيمة للقائد عبد الكريم، أنه كان يحاصر المواقع العسكرية المعادية، دون الهجوم عليها هجوماً جدياً، بل كان يكتفي بتشديد الحصار عليها، ليترك المجال إلى تحرك النجدات إليها من القطع العسكرية، عند ذلك يتصدى لتلك الكتائب والنجدات، ويفرض عليها القتال في ظرف يلائمه هو ولا يلائمها، وعلى أرض لا تعرف عنها الكثير، فتُمنَى بخسائر كبيرة.

ولأن القائد محمد عبد الكريم حقق انتصارات مذهلة على الغزاة الإسبان

خاصة، فإن الصحف الإسبانية ومن قبيل حفظ ماء الوجه، زعمت أن هناك جنرالاً ألمانيا يعمل مستشاراً عسكرياً مع القائد محمد عبد الكريم، وأن هناك عدداً من الضباط الألمان يقاتلون مع عبد الكريم، الأمر الذي دعا الحكومة الألمانية إلى الاحتجاج والاستفسار من الحكومة الإسبانية التي اعترفت بكذب تلك الادعاءات والمزاعم الصحفية.

جمهورية الريف:

أنشأ القائد المظفر محمد عبد الكريم جمهورية الريف، ولم تصرفه أعماله الحربية عن القيام بالإصلاحات التي تحتاج إليها البلاد، وفي سائر الميادين، فنشر الأمن والاستقرار، ونظم الأمور المالية، وأصلح الإدارة، ونظم التجارة والزراعة، وأسس المدارس، وأرسل البعثات العلمية إلى أوربا، واعتنى بالأمور الصحية، وعبَّد الطرق، وربط بعضها ببعضها الآخر، وما إلى ذلك من شؤون الحكم، وأنشأ مصلحة استعلامات متقنة، كانت تأتيه بأسرار حركات الجيش الإسباني واستعداداته، وترصد الأحوال الداخلية في إسبانيا، وما فيها من تيارات مؤيدة ومعارضة للحرب.

وكان الأمير يقظاً ساهراً على شؤون هذه الجمهورية الوليدة، شديد الحذر في تنفيذ خططه التي ما كان يطلع أحداً عليها إلا عند التنفيذ.

وكان يمكن لهذه الجمهورية أن تكون مشروع نهضة واعية في بلاد المغرب، لولا تكالب الأعداء عليها من الخونة في الداخل، ومن الاستعمار في الخارج، فقد تألب عليها عدد من شيوخ القبائل الخونة، وانحازوا إلى الغزاة، وشكلوا شرخاً في الداخل استعصى على الحل، نتيجة الأطماع والحسد وحب الزعامة.

لقد فرح العرب والمسلمون بقيام هذه الجمهورية، وجاءت وفود المهنئين من مدن: فاس، ومكناس، ومراكش، وتطوان، ومن غيرها من مدن وقرى المغرب الأقصى، ومن طرابلس الغرب، ومن مصر، وفلسطين، وسورية،

والعراق، وتركيا، والهند، وسواها، وبلغت الأمير ثقة الشعوب العربية والإسلامية به وبجيشه وبجمهوريته الريفية، وقدمت له بعض الإسعافات المادية والمعنوية.

وكان يستقبل الوفود التي جاءت تبايعه وتهنئه، في غرفة لا تزيد مساحتها عن عشرين قدماً مربعاً، وارتفاع جدرانها ستة أقدام، وقد نشرت على جدرانها خريطتان إسبانيتان لمناطق الريف، أما أرض الغرفة، فمفروشة ببساط، وفيها كراسي ومنضدة من الخشب، عليها رسائل وتقارير وجرائد ومجلات عربية وأجنبية، ويجلس الأمير أمام هذه المنضدة، ولا يساعده في أعماله سوى شقيقه.

الاستسلام:

بعد أن تحالف الإسبان مع الفرنسيين ضد ثورة الريف وقائدها البطل عبد الكريم، خاض الخطابي ضد الدولتين معارك طاحنة، أجهدته وأجهدت جيشه الذي صار يقاتل دولتين وعلى جبهتين، حتى أنهك، فاضطر البطل إلى الاستسلام إلى الفرنسيين في ١٢/ ١١/ ١٣٤٤هـ-٢٥/ ٥/ ١٩٢٦م، بعد أن وعدوه بإطلاقه، ولكنهم كعادتهم، كانوا أهل غدر ولا يعرفون للوفاء بالعهود والمواثيق معنى، وكانوا قد غدروا -من قبل- بالمجاهد الأمير عبد القادر الجزائري، وبغيره من القادة قبل خمس وسبعين سنة، ونفوه وأخاه وبعض أقاربهما إلى جزيرة (رينيون) في بحر الهند شرقي إفريقية، حيث مكثوا هناك عشرين عاماً في المنفى.

نفوه إلى تلك الجزيرة النائية التي أعدتها فرنسا لنفي الأبطال المجاهدين، ومنعت عنه الصحف والمجلات والكتب، وقاسى فيها مع أهله مرارة النفي والتعذيب، ولكنه اتجه إلى العبادة طوال تلك المدة في المنفى.

اللجوء إلى مصر:

أراد الفرنسيون نقل الأمير الأسير وأهله إلى فرنسا، ليكون على مقربة

منهم إذا احتاجوا إلى اتخاذ قرار ما ضد سلطان المغرب. . أرادوه أن يكون ورقة في أيديهم يتلاعبون بها كيفما شاؤوا وشاءت لهم مصالحهم الخسيسة، فحملوهم في الباخرة، سنة ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م.

نزل الأمير عبد الكريم في عدن، واحتفل به العرب المقيمون هناك، وبعثوا، بناء على طلب الأمير نفسه، برقيات لكثير من المجاهدين في مصر، ومن هؤلاء: المجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر- صاحب جريدة الشورى- والشيخ محمد الخضر حسين- رئيس جمعية الهداية الإسلامية- والإمام حسن البنا- المرشد العام للإخوان المسلمين- وإلى سواهم، وكانت البرقيات تخبر بوصول الأمير إلى عدن، وموعد خروجه منها، والموانئ التي سيمر بها، وتاريخ وصول الباخرة إلى السويس وبور سعيد.

فبادر المغاربة المقيمون في مصر إلى تشكيل وفد لاستقباله، والترحيب به باسم مراكش كلها، ووضع الوفد نفسه تحت تصرف الأمير. كما أوفد الملك فاروق محافظ السويس لإبلاغ الأمير تحياته والترحيب به على أرض مصر، وصعد وفد من الإخوان المسلمين برئاسة الأخ الأستاذ طاهر منير رئيس الإخوان في السويس إلى الباخرة، وحيّوا الأمير، وقد أدلى الأمير إلى الصحفيين بتصريحات كثيرة، قال في بعضها: إنه لو خُيِّر لاختار البقاء في مصر، وأعرب الأمير عن رغبته بزيارة مصر، وتحية مليكها، ثم كتب رسالة إلى رئيس الديوان الملكي جاء فيها:

«وأعرب لجلالتكم عن سروري العميق بوجودي في هذا البلد العربي، بعد غيابي في المنفى عشرين سنة بعيداً عن وطني الذي هو جزء لا يتجزأ من العالم العربي، وقد شعرت وأنا هنا أنني حقاً في وطني».

ونزل الأمير إلى البر، وزار محافظة الميناء، وبلّغه المحافظ تحية الملك فاروق وشُكْره للأمير على الرسالة الرقيقة التي بعثها إليه بمناسبة مروره بالمياه المصرية، وحينئذ أعرب الأمير لممثل الملك، عن رغبته في اللجوء إلى

مصر، فراراً من الاستمرار في الأسر الفرنسي، وليتمكن من تعليم أولاده اللغة العربية، فوعده المحافظ بتبليغ طلبه للملك وللحكومة المصرية، ثم عاد الأمير ومن معه إلى الباخرة.

وفي اليوم التالي (في الثاني من حزيران) بلغه المحافظ قبول الملك التجاءه، طالباً منه أن يعتبر نفسه وأسرته في ضيافته، في قصر إنشاص.

وزاره الملك فاروق في قصر إنشاص في الخامس من حزيران، ودعاه إلى الغداء معه على المائدة الملكية، حيث استمع الملك طويلاً لحديث الأمير البطل العالمي عن الحرب الريفية، ولاحظ الملك تراجع صحة الأمير، فدعاه إلى الإقامة بمستشفى فؤاد الأول في الإسكندرية بضعة أسابيع تحت عناية الأطباء، ورعاية الملك فاروق نفسه.

وقد حبَّرت الصحافة المصرية عشرات المقالات، وعلى مدى شهرين، عن هذا البطل العالمي، وعن حرب الريف المغربي، وعن القضية المغربية وجهاد رجالها.

وقد ساء هذا الاستقبال وقبول اللجوء الحكومة الفرنسية، فاحتجت لدى الحكومة المصرية، واتهمتها بأنها هي التي أغرت الأمير باللجوء إليها.

والحقيقة أن اللجوء كان بمحض إرادة الأمير ورغبته، ولم يقنعه أحد به، لا الملك فاروق، ولا الحكومة المصرية، ولا المغاربة المقيمون في مصر، وغضبُ فرنسا كان بسبب الحد الذي وضعه الأمير في وجه مطامعها فيه، ليكون ورقة يشهرونها في وجه ملك المغرب.

كان الأمير الخطابي قد لجأ إلى مصر وقد بلغ الخامسة والستين ولكن تقدم السن لم يؤثر على مواصلة جهاده في القاهرة، فقد بادر فور استقراره في القاهرة، إلى تشكيل لجنة لتحرير كل الشمال الإفريقي من الاستعمار، وإيجاد نواة لجيش التحرير الذي كان الشرارة الأولى لانطلاق الثورة المسلحة ضد الاستعمار، واستمر في جهاده إلى أن توفي بالسكتة القلبية في القاهرة، في

السادس من شباط ١٩٦٣م-١٣٨٥هـ وهو يردد أنه يلقى الله مستريحاً بعد جهاده الطويل، فقد عاش حتى رأى الوطن العربي يتحرر من الاستعمار.

ولحبه مصر، أوصى أن يدفن في القاهرة، وكان له ما أراد، رحمه الله رحمة واسعة.

خاتمة:

لقد أعطى الأمير الخطابي بانتصاراته المذهلة، الدليل والبرهان، على أن الإنسان المسلم يستطيع أن يواجه الاستعمار، ويلحق به الهزائم المنكرة، فقد كان لانتصاراته الأسطورية، تأثير عظيم على الحركات التحررية في الوطن العربي، والعالم الإسلامي، بل في العالم كله، فانطلقت تقاتل المستعمرين وظلمهم وظلامهم، وقد كتب الكاتبون الأجانب، مقالات تحليلية، وألفوا كتباً في سيرة البطل عبد الكريم، وفي انتصاراته على دولتين لهما جيوش نظامية حديثة.. انتصر على الجيوش الإسبانية والفرنسية برجاله القليلين، وعتاده المتواضع، فلم تكن لديه طائرات ولا دبابات ولا مدرعات، وكان عنده إيمان يعمر قلبه وقلوب رجاله، وعزائم وإرادات، وأفاض الكتاب الأجانب في شرح جوانبه التنظيمية، والإدارية، والعسكرية.. كتبوا عن معاركه التي صارت تدرس في الأكاديميات العسكرية، وعدّوه صاحب مدرسة خاصة في تكتيك الحروب التحريرية، بما امتازت به من سرعة الحركة، وقوة المفاجأة، والمراوغة، انتصر بها على جيوش نظامية قوية.. وقالوا: إنه كان يتخذ القرار المناسب، وبمنتهى السرعة، تحت تأثير أي ظرف.

كان الأمير عبد الكريم يتسم بالإحساس الإنساني. كان ينشد الحق والعدل، ولهذا ثار على الظلم، وثار من أجل حق الإنسان، وكانت إنسانيته العميقة هي السحر الذي جذب إليه قلوب رجاله، وكان يكره التطرف والتعصب، ويتمسك بتعاليم الإسلام، فالدين -في نظره ونظرنا- رحمة وحركة دؤوب من أجل عدالة إنسانية تظلل البشرية جمعاء.

لم يسع إلى زعامة، ولا يحب التسلط بل نذر نفسه جندياً للحق والعدل والحرية، ووقف بصلابة في وجه كل طاغية ومستبد في الداخل والخارج.

المراجع:

- الأعلام. للزركلي.

- عبد الكريم الخطابي: حرب الريف، والرأي العام العالمي: للطيب بوتبقالت.

- الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ الجزء الأول: لمحمود عبد الحليم.

- في قافلة الإخوان المسلمين -الجزء الأول- لعباس السيسي.

- تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي: المجلد الثاني. لأنور الجندي.

- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي- لعلال الفاسي.

- عبد الكريم الخطابي. للدكتور جلال يحيى.

❋ ❋ ❋

الشهيد الشيخ عز الدين القسّام

تمهيد:

ليسوا سـواء. . من علم ولم يعمل بـما علم، ومن علم وعمـل بما علم، وجاهد في سبيل الله منذ وعى معنى كلمـة الجهاد، ومكانة الجهاد والاستشهاد في الإسـلام وعند الله الذي أمـر الرسول القـائد بالجـهاد وجعلـه ذروة سنام الإسلام كما ورد علـى لسان النبي العظيم محمـد ﷺ. . . وإلا. . . فالعلماء والمشـايخ والمثـقفون كثر، بل هم أكثـر من الهمّ على الـقلب كما يـقولون، وقليل منهم الشكور الذي يشكر ربّه علـى ما أعطاه من علم بالعمل به، وليس بمجـرد كلمات يلوكـها لسانه الـدّرب في المجالس والـمحافل والمـؤتمرات، وعلى المنابر الإعلامية والإعلانية.

ومن هنا تأتي أهمية الكتابة عن الشيخ المـجاهد الشهيد عزّ الدين القسّام، رائد المـجاهدين في بلاد الشـام في العصر الـحديث، وربما كـان رائدهم في سائر بلاد المسلمين.

نشأته:

إنه رجـل فقـير، وُلد لأبـوين فـقيـرين بالـمال والجـاه، ولكنـهمـا غنيـان بإيمانهما، عزيزان بإسلامهما، مستقيمان في سلوكهما، يخافان الله عزّ وجل، فمـا كانا يأكلان، ولا يـطعمان أولادهمـا إلاّ من الحلال الطيـب، وكلّ حلال طيب، حتى لو كان أخشن خشونة من القتاد. .

ولد محـمد عز الدين -هكـذا كان اسمه- في بـلدة (جَبَلَة) على الـساحل السوري الجميل عام ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م وعاش في كنف أبيه الشيخ الصوفي

القادري الطريقة عيشة الكفاف، وتعلم في (كُتّاب أبيه) ما تعلم مع أبناء (جبلة) من القراءة، والكتابة، والقرآن الكريم، وفهم شيئاً من العلوم الشرعية، كما أخذ عن بعض مشايخ بلدته شيئاً من العلوم العربية والشرعية والحساب، وكان متفوقاً على أقرانه في الحفظ والفهم والوعي، وآنس منه أبوه ذلك، فاستخار الله تعالى، ثم قرّر أن يعلمه في الجامع الأزهر بمصر.

في مصر:

غادر الفتى عز الدين القسّام بلدته (جبلة) إلى مصر عام ١٨٩٦ وهو ابن أربعة عشر ربيعاً، وانتسب إلى الجامع الأزهر، واستقر في (رواق الشوام) عشر سنوات، كان فيها يتلقّى العلم والثورة وتعاليم الإسلام على أيدي علماء الأزهر، ومشايخ مصر الثائرين، يستمع إليهم بعقله وبقلبه، ويعي ما يريدون أن يصبوه في قلب الفتى السوري الذي يذكرهم بمواطنه السوري الشهيد سليمان الحلبي، قاتل كليبر.. كانوا يحدثونه عن الحروب الصليبية، وعن مظالم نابليون وطواغيته، وعن احتلال الإنكليز لمصر، وجورهم، وعن ثورة أحمد عرابي، ويحدثه تلاميذ المجاهد الثائر المفترى عليه: جمال الدين الأفغاني، عن أفكار الأفغاني الثائرة، وعن سيرة حياته.. كان يتردد على مجالس الإمام الشيخ محمد عبده، المفترى عليه أيضاً، وينهل من ينابيع عقله الكبير علماً، وعقلاً، ووعياً، وفهماً لمجريات الأمور في العالم الإسلامي الذي يعيش التعاسة، ويقتات الجهل والبؤس، ويغرق في بحار التخلف..

تأثر الفتى عز الدين بتلك الأفكار الثائرة التي تحض على التمسك بالإسلام عقيدة وجهاداً، وتندد بالاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والتخلف العلمي والحضاري، والهبوط الأخلاقي، والاستعمار الغربي الذي كشر عن أنيابه، وتحفز للانقضاض على ما في بلاد المسلمين من ثروات، وفي نفوسهم من بقايا دين يجهلون حقيقة ما يريده منهم في هذه الحياة، من أجل الحياة الدنيا، والحياة الآخرة معاً..

وتأثر بمدرسة الجهاد التي أنشأها العالـم الثائر محمد رشيد رضا، فانطلق -القسام- ينهل من معين العلماء المجاهدين، ويتابع معهم أخبار العالم الإسلامي، والحركات الجهادية التي تبذل جهدها لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه، وكان القسام يواكب هذا بقراءات كثيرة وعميقة في كتب العلوم الشرعية والعربية، وكتب التاريخ، وسير العظماء، حتى اكتسب ثقافة عريضة؛ كانت أوسع من الفسحة الزمنية التي أمضاها في ردهات الجامع الأزهر.

أفاد من بطون كتب التاريخ، ومن التاريخ الحي على ألسنة العلماء الوعاة وطلبة العلم، دروساً وعبراً أسقطها على الواقع البائس المعيش، فازداد ثورة ولهيباً، وحزناً وآلاماً من حياة الخزي والهوان.

امتلأت نفسه بحقائق الإسلام وقضايا المسلمين، فجعلت منه شخصية فذة تتمثل الإسلام عقيدة وأخلاقاً، وسلوكاً كفاحياً، فكان -من بعد- حرباً على الجهل والفقر والظلم والتبعية وساذر أشكال التخلف والخرافات والبدع، وداعية إلى الالتزام بالإسلام المصفّى ملاذاً وحيداً، وقاعدة انطلاق للنهوض بالأمة، وتحدي أعدائها، والتصدي لألوان الغزو الفكري والحضاري والعسكري الصليبي- الصهيوني اليهودي.

العودة إلى الوطن:

بهذه الشخصية الثائرة على كل أشكال التخلف عاد الشاب الشيخ عز الدين إلى بلدته(جبلة) التي تغفو على الشاطئ الشامي، ويمتزج شخيرها ويضيع في أمواج البحر، دون أن تقوى تلك الأمواج على إيقاظها من سباتها، مثلها مثل كل المدن والبلدات والقرى في العالم الإسلامي الذي استنام ثم هجع في أحضان التخلف وانعدام الوعي.. ولكن شخصية القسام كانت الأقوى، فأيقظت البلدة من سباتها العميق.. أيقظتها كلمات نسيتها وذكّرها بها الشيخ الشاب بخطبه الواعية المستنيرة، وبدروسه في مسجدها الكبير الذي يؤم المصلين فيه، ويعظهم، ويخطبهم، ويدعوهم إلى إرسال أولادهم إلى

المدرسة التي يعلم فيها نهاراً، وإلى مجيء الأميين منهم، وأكثرهم أميون، مجيئهم إلى المدرسة ليلاً، ليعلمهم، لوجه الله تعالى، القراءة والكتابة والقرآن العظيم.

لم يكتف الشيخ الشاب بهذه الدعوات في المسجد الذي غدا إماماً فيه، بل انطلق يغشى المضافات والمجالس، يسهر معهم، ويتحدث إليهم، يعلمهم أمور دينهم، ويفتح عقولهم وقلوبهم وعيونهم وآذانهم على الواقع المزري الذي يرتعون فيه.. كان يهاجم الجهل والفساد والظلم الواقع عليهم، ويندد بالظالمين من أصحاب الأملاك والمزارع الكبيرة الذين يسومونهم سوء العذاب؛ يشغلونهم ونساءهم وأطفالهم في مزارعهم، ثم يلقون إليهم فتات الطعام، وبالي اللباس..

نفذت كلمات الشيخ الشاب إلى عقولهم وقلوبهم، فبادروا إلى إرسال أولادهم إلى مدرسته، وصاروا هم تلاميذ المدرسة الليلية، وصاروا يغشون دروسه وخطبه المسجدية، فأحسوا أن لهم كياناً وشخصية وكرامة، وشعروا بالظلم الواقع بهم، وتململوا، وأفصح بعضهم عن معاناته، فثارت ثائرة كبار الملاك، وعرفوا أن القسام الشيخ هو الذي حرك النيام بأفكاره التي لامست قلوبهم، وأثرت بهم، وجمعتهم حوله، فثار الإقطاعيون على الشيخ، وحاولوا الدس عليه لدى الأتراك الحاكمين، وهم من الاتحاديين العلمانيين مثلهم، وهددوا الشيخ الشاب، ولكن.. هيهات.. هيهات أن ينثني أو يتراجع من عرف الإسلام، وتشبّع بروحه التي قررت التكريم والكرامة لبني آدم..

انطلق الشيخ يستقطب الفلاحين والعمال والفقراء، بما أوتي من الصدق والإخلاص والوعي، ومن براعة الحديث، وتواضع النفس، ودماثة الأخلاق، وكياسة التعامل، واستقامة السلوك، وتوثب الروح، واستنارة البصيرة، ومن تسامٍ عما يقتتل الناس حوله، ويتزاحم الطامعون والطامحون في الاستيلاء على الحطام، ومن زهد بما في أيدي الناس، ومن تقشف في حياته البيتية،

وفي طعامه ولباسه، ومن تضحية بالمال والوقت والجهد والراحة، ومن جرأة في قول الحق، ونصرة المظلوم، ومن استعلاء على المستكبرين وأصحاب النفوذ. .

كان الفقراء -وأكثرهم من أتباع الدعوات- يرون فيه القدوة والعالم المحبوب، والصديق الصدوق. . كانوا يرونه واحداً منهم، فهو يزورهم في بيوتهم المتواضعة، وفي مزارعهم وقراهم وأماكن عملهم، يشاركهم في أعمالهم، ويؤاكلهم على موائدهم البسيطة ويحضر أعراسهم وأفراحهم، ويظهر الحزن عليهم في مآتمهم وأتراحهم ومصائبهم، ويساعد من يستطيع مساعدته منهم، يبذل جهد المقل، فأحبوه، واستمعوا له وأطاعوه، وصار مثلاً أعلى لهم، فقد كان بحق، قدوة عملية لهم، لا يكتفي بالكلام المعسول، بل يقرن كلامه بالعمل، وربما سبق عمله قوله، وبهذا تميز من سائر من عرفوا من المشايخ والوجهاء والزعماء.

جهاده:

كان الشيخ عز الدين ابن زمانه، يعرف ما يحيط به وبإخوانه المسلمين في كل مكان، وأن المسلمين أمة واحدة، وجسد واحد، إذا اشتكى شعب منهم، وجب أن يتداعى سائر شعوب المسلمين لنصرة ذلك الشعب، بعيداً كان أو قريباً. . ولهذا كان جهاده يمتد إلى المكان الذي يطوله بجهده ويده ولسانه:

١ - ضد الإنكليز في مصر. فقد سمع الكثير عن جرائمهم ومظالمهم، كما شاهد الكثير بأم عينه، وعرف الكثير من أحاديث مشايخه وزملائه طلبة العلم، فامتلأت نفسه كرهاً لهم، وحقداً عليهم، وانطلق لسانه يذمهم، ويدعو إلى محاربتهم وإخراجهم من مصر.

٢ - وعندما هاجم الطليان طرابلس الغرب، عام ١٩١١ ثار القسام، وخطب ضدهم، واستنفر أبناء الساحل السوري لقتالهم، فتجمع معه بضع مئات من المقاتلين، وجمع الأموال لشراء السلاح، وتسليح المقاتلين،

والإنفاق عليهم وعلى أسرهم، وكلهم من الفقراء.

كان القسام يقود المظاهرات في اللاذقية وجبلة وسائر المدن والبلدات الساحلية، ويدعو الناس إلى التطوع من أجل الدفاع عن طرابلس. . واختار من المتطوعين مئتين وخمسين متطوعاً، وسافر بهم إلى ميناء الإسكندرونة، وأقاموا في الإسكندرونة أربعين يوماً ينتظرون السفينة التي ستقلهم إلى ليبيا، كما وعد الخليفة العثماني وبابه العالي، ولكن الاتحاديين (القوميين العلمانيين الطورانيين الذين كانوا الحكام الفعليين للدولة العثمانية) نكصوا وتخاذلوا أمام إيطاليا، وحالوا بين الشيخ المجاهد وجنوده المتطوعين، وبين السفر من أجل القتال والدفاع عن ليبيا، فعاد الشيخ القائد بمن معه إلى (جبلة) وبنى مدرسة بالمال الذي كان جمعه، وتابع مهمته التعليمية والتربوية فيها؛ يعلم الصغار في النهار، والكبار في الليل.

٣ - وعندما احتل الفرنسيون الساحل السوري عام ١٩١٨ نادى القسّام بالثورة عليهم، وباع بيته الذي لا يملك سواه، واشترى بثمنه أربعاً وعشرين بندقية، وخرج بأسرته إلى قرية (الحفة) في جبل صهيون، وانضمَّ بمن معه من تلاميذه المجاهدين إلى الثورة التي قادها المجاهد عمر البيطار في جبال اللاذقية، وانطلق إلى القرى يدعو الناس إلى الالتحاق بالثورة لمقاتلة الفرنسيين وطردهم من البلاد التي احتلوها. . وكان المسجد منطلقه في كل قرية وبلدة ومدينة، وبهذا أعاد القسام إلى المسجد دوره ووظيفته الجهادية، كما كانت أيام الرسول القائد، وخلفائه الراشدين فمن بعدهم من القادة الفاتحين.

كان القسام حركة دائبة لا تهدأ، يتصل بقادة الثورات في المناطق السورية، ويغير على الدوريات والحاميات الفرنسية، وينسق بين المجاهدين في حلب وجبل الزاوية ودمشق، يساعده في ذلك الشيخ المجاهد كامل القصاب الذي كان يمده بالسلاح والمال، ويجعل من نفسه صلة الوصل مع

الثوار الآخرين.

وعندما علم القسام أن الفرنسيين سوف يجتاحون سورية، ويحتلون دمشق، سارع مع صاحبه الأثير (الشيخ كامل القصاب) إلى دمشق، وشارك في معركة ميسلون، وكانت معركة غير متكافئة، وعرف تخاذل الطامحين إلى الحكم، الطامعين فيه بأي سبيل، فأسرَّها في نفسه لقابل الأيام.

عاد القسّام إلى جبال اللاذقية ليتابع كفاحه الدامي ضد الغزاة الفرنسيين، ولكنه وجد المجاهدين في أسوأ حالاتهم، فقد نفد ما عندهم من زاد وعتاد أو كاد، وانقطعت الإمدادات التي كانت ضئيلة وغير مناسبة للمهمات الكبيرة التي تصدّوا لها، وغادر بعضهم إلى تركيا، واستسلم آخرون لليأس، فعادوا إلى أعمالهم محبطين. ومع ذلك، صمّم القسّام على متابعة الجهاد والقتال مع من بقي معه من المجاهدين...

حاول الفرنسيون إغراءه، ولكن.. هيهات لمن باع نفسه لله، أن يستجيب لمغريات الدنيا، فقد نوى الشهادة في سبيل الله، فماذا يستفيد من ذهب الدنيا وما فيها من مُتع ومتاع؟

وعندما لم يستجب للإغراء، ولا تمكنوا منه في ساحات القتال، رغم الأعمال الوحشية التي ارتكبوها بحق الفلاحين الفقراء الذين كانوا يتعاونون مع القسّام، ويؤوون رجاله، اجتمع (الديوان العرفي) في (دولة العلويين) وحكم على القسّام وبعض رجاله المقربين منه بالإعدام، ووضعوا مكافأة كبيرة لمن يدل عليه، قدرها عشرة آلاف ليرة..

عندها نصحه صديقه القصاب بالرحيل إلى فلسطين، لمتابعة الجهاد هناك، حيث الأرض المقدسة أسيرة محتلة من قبل الإنكليز وقائدهم الجنرال اللنبي الذي قال بعد أن احتلها: "الآن انتهت الحروب الصليبية" وتذاكرا وعد بلفور المشؤوم بإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين التي قرر الإنكليز وتعهدوا أن تكون وطناً قومياً لأعدى أعداء المسلمين والإنسانية: اليهود،

وسوف يمكّنونهم في فلسطين، والجهاد هو الجهاد في أي أرض مسلمة يجتاحها الغزاة، في مصر، وفي طرابلس الغرب، وفي بلاد الشام، وقلبُها فلسطين والقدس والمسجد الأقصى.. فالإنكليز أساس البلاء، ويجب محاربتهم وطردهم من فلسطين، قبل أن يستفحل خطر اليهود ويتمكنوا من الأرض المقدسة التي باركها الله وبارك ما حلها.

٤ - الكفاح الدامي في فلسطين:

غادر القسام عرينه في جبال اللاذقية، وتوجه إلى بيروت، ومنها إلى فلسطين، يصحبه ابنا أخيه، ورفيقا درب جهاده: الحاج عبيد، والحنفي، وسكنوا قرية (الياجور) قرب حيفا في بيوت من تنك.. كان هذا أواخر عام ١٩٢٠ ثم انتقلوا إلى حيفا، وصار إمام مسجد الاستقلال وخطيبه المفوّه الذي استقطب المصلين الذين كانوا يفدون إليه من الأحياء والقرى المجاورة، ليستمعوا إلى هذا الشيخ الوافد من سورية الشمالية، ويدور على لسانه كلام جديد لا عهد لهم به وبأمثاله.. كلام لا يعرفه كل من استمعوا إليهم من الخطباء.. كلام يتجاوز الآذان ليستقر في العقول والقلوب..

أدرك القسام أن الحرب الصليبية الجديدة ستكون أضرى من سابقاتها، وأن اليهود سيكونون طلائعها ووقودها، وهذا يعني أن يعدّ للأمر عدته، فليس هؤلاء كأي استعمار لأي بلد مسلم، لا يلبث أن يزول.. إن استعمار اليهود استيطاني خبيث، سوف يتشبث بالأرض، ويحرق ما عليها، من أجل أن يبقى فيها..

المهمة شاقة؛ فالمعركة بين علم وجهل، فاليهود غزاة جاؤوا مسلحين بأحدث أنواع السلاح، وأغنياء، ولهم أهداف بعيدة، وماكرون خبثاء، والمسلمون جهلة متخلفون فقراء، وليس معهم سلاح يقاومون به الغزاة، وزعماؤهم متناحرون على المناصب، منكبّون على الشهوات والمتع الرخيصة، يكيد بعضهم لبعض، ويتزاحمون على أبواب المستعمرين، يقدمون

لهم فروض الطاعة والولاء، وينفقون أموالهم على الغواني من اليهوديات الساقطات. .

إذن. . لا بد من وضع خطة محكمة ينفذها في كفاحه المرير، ويتعهد تلاميذه ورجاله بتنفيذها من بعد موته، لأن المعركة طويلة طويلة. . .

كان من أولويات خطته، أن يدرس الساحة التي سيتحرك عليها دراسة بشرية وجغرافية، وهذا يعني أن يكون مع الناس، وأن يقيم صلات عميقة معهم من خلال المسجد والمدرسة، فعمل إماماً وخطيباً لجامع الاستقلال، وأقام مدرسة كتلك التي أقامها في بلدته (جبلة) لتعليم الصغار والكبار، يعلمهم فيها ويعظهم ويربيهم وينقلهم إلى ساحة الوعي بدروسه بعد الصلوات، ثم عمل مأذوناً شرعياً، ورئيساً لجمعية الشبان المسلمين التي أنشأها في حيفا، وفتح فروعاً لها في عدد من القرى المحيطة بها، وبهذا كان الغطاء كافياً ليتصل بسائر الناس، وكلهم من العمال الذين يعملون في الميناء، أو من الفلاحين الفقراء الذين يعملون في أراضيهم أو أراضي المزارعين الكبار.

كان القسّام يزورهم في بيوتهم المتواضعة، ويسهر معهم ويقص عليهم القصص الهادفة من حياة النبيين والصالحين والمجاهدين الفاتحين، ويزرع في قلوبهم الإيمان الصحيح، ويثير فيهم النخوة والكرامة وإباء الضيم ورفض الظلم والبغي، فأحبه الفلاحون والعمال وسائر الفقراء. . أمّا الزعماء والوجهاء والأغنياء، فقد كانت علاقاته بهم جيدة، ولكنه كان حذراً منهم ومن صلاتهم بالإنكليز واليهود، فلم يطلعهم على ما يدور في خلده، لأن مطامحهم غير ما يدندن القسّام حوله ويدعو إليه. . وبهذا تناءى عن شرورهم وإيذائهم إلى حد ما، وأمن مكرهم. .

مدرسة القسّام:

إنها مدرسة الرسول القائد، ﷺ. . مدرسة جمعت بين التربية والجهاد، فهو يربّي أبناءها على حب الموت في سبيل الله، والجهاد من أجل نصرة

دينه، وتحرير مقدساته، وكل الأرض الشامية مباركة مقدسة، بل كل بلاد المسلمين تفرض على المسلمين أن يذودوا عنها عدوان المعتدين، وأن يبذلوا في سبيل تحريرها من أيدي الغاصبين كل غالٍ ونفيس.. لذلك رأينا القسام يبيع بيته في (جبلة) ويشتري به سلاحاً يوزعه على المجاهدين لقتال الاستعمار الفرنسي، وتحرير سورية الشمالية منه، وطرد جيشه المحتل لأرضها..

وفي حيفا وفّر ما استطاع من مال، واشترى به السلاح، ودرّب المجاهدين عليه، ثم سلحهم به.. طاف كثيراً من القرى، وتعرف إلى الناس، واصطفى منهم صفوة اعتمد عليهم، وربّاهم على الدين والفضيلة، وعلى الزهد والعفة، وعلى حب الإسلام ونبيّ الإسلام، وعلى الجهاد سبيلاً للتحرير، وعلى حب الموت في سبيل الله، وترك المظاهرات والمؤتمرات والمفاوضات للزعامات اللاهثة وراء الحلول السلمية والاستسلامية، ترك لهم الشعر والشعراء، والخطب (العصماء) والعواطف البلهاء، وأكبّ على التخطيط والعمل والتنفيذ بسرية وكتمان وعمل دؤوب لتكوين نواة حركة جهادية، وسهر عليها، ولم يضيِّع شيئاً من الوقت، ولم يبخل بمال أو جهد أو راحة عليها، فقد كان يعلم أنه في سباق مع الأعداء ومع الزمن، مع وعي تام لكل ما يتطلبه السباق من أسس علمية سليمة، ومن مبادئ إسلامية تحدّد له الغاية والأهداف والوسائل النظيفة المتاحة على أرض المعركة..

لقد بذل القسّام من الجهد والوقت والمال كلّ ما كان عنده، ولم يستبق منه لنفسه ولأسرته شيئاً.. كان يخرج مع تلاميذه ليلاً.. يخرجهم إلى الخلاء.. إلى المقالع الحجرية التي جنّد أكثر العاملين فيها، ومعه المدرّب والمدربان، ليعلموا المجاهدين فكّ السلاح، بارودة كان أم مسدساً، وعلى تركيبه، وعلى تنظيفه وصيانته، وعلى استخدامه والتصويب به.. بدأ من نقطة الصفر معهم، ليكون البناء سليماً قائماً على أسس سليمة، حتى يدوم ويستمر إلى ما شاء الله، إلى النصر والتحرير..

وكان تلاميذه يزدادون تعلقاً به، وحبّاً له ولما يدعو إليه، فقد رأوا فيه

القدوة العملية، والمسلم الحق الذي يطابقون بينه وبين ما علمهم وما عرفوا من سمات القادة الربانيين. .

كان القدوة في التضحية والبذل والعطاء. . كان لله وفي الله، فكانوا كذلك معه. ولهذا تحملوا حزمه وشدته في التدريب على السلاح في سائر الأحوال، وعلى الاخشيشان والمشاق. . يأمرهم أن يخلعوا أحذيتهم ويمشوا حفاة فوق الأشواك والصخور، وأن يتسلقوا الأشجار والجبال، فتكون المسارعة إلى طاعة الأوامر بحبّ وطيب نفس. . يأمرهم بالنوم في العراء في الليلة الباردة والمطيرة، ويمنعهم من تناول الطعام والشراب، فينامون بلا وطاء ولا غطاء، ولا طعام ولا شراب، استعداداً لما سوف يستقبلهم ويستقبلون من أيام عوابس، وليالٍ عجاف. . وكان من أقسى ما يؤمرون به، أن يناموا في بيوتهم على الحصير، وزوجاتهم ينظرن إليهم يفعلون هذا مرة أو مرتين في الأسبوع، ويطلبن تفسيراً لهذا التصرف الغريب، وكأنه هجران في المضاجع، فيسكت الواحد منهم، ولا يستطيع إفشاء السّر الذي ائتمنه عليه الشيخ القائد الآمر.

كان المبدأ الذي يعتمده القسام شعاراً وسلوكاً، ويأمر خاصته به: علنية الدعوة، وسرية التنظيم. . وعلى هذا نشط في زيارة القرى، والاحتكاك بأهلها، يلقي دروسه ومحاضراته في مساجدها ومضافاتها وفروع جمعية الشبان المسلمين التي يرأسها، وكانت كلماته تشقّ طريقها إلى القلوب فتأسرها. . تعلمهم الإسلام وما ينبغي أن يتحلى به المسلم من عزة وكرامة وإباء، وكيف يدافعون عن أنفسهم وأرضهم وعرضهم ودينهم ضد الغزاة من اليهود والإنكليز المستعمرين المحتلين، وكان -في الوقت نفسه- يعرف كيف يختار أعوانه ومساعديه ممن يتوسم فيهم الإيمان وما يستتبعه من صدق وإخلاص وتضحية وجهاد في سبيل الله. . ينظمهم، ويفكر معهم في الطريقة المثلى للتحرك في مناطقهم بسرية وكتمان، حتى استطاع أن يبثّ القيادات ويوزعهم في كثير من القرى والبلدات والمدن الفلسطينية، بل وصل تنظيمه هذا إلى مدينة اللاذقية في سورية، لتكون قاعدة التسليح فيها.

وهكذا استمر خمسة عشر عاماً يخطب ويحاضر ويحض على الجهاد، ويحث على التضحية والبذل والجود بالمال والروح، وكان يشتري السلاح سراً، ويدرب عليه من وقع اختياره عليه من الأتباع، ثم يأمر أعوانه بتدريب من يرونه أهلاً لحفظ السر والكتمان، على السلاح وعلى القتال، ويأمر من يلقاه من أصحاب الحمية والدين باقتناء السلاح، تمهيداً للقيام بثورة حدد أهدافها الثلاثة مسبقاً وهي:

١ - تحرير فلسطين من الاستعمار الإنجليزي الذي يعد العدو الأول للفلسطينيين ولسائر المسلمين، لأنه وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين عبر وعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧م وسمح بهجرة عشرات الآلاف منهم إليها، ودرب شبابهم، وسلحهم، وتغاضى عن السلاح الذي كانوا يستوردونه من أوروبا وروسيا.

٢ - الحيلولة دون تحقيق آمال اليهود في إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وإنشاء دولة يهودية على أرضها، مهما كلفهم من جهد ودماء وأموال ومتاعب.

٣ - إقامة دولة عربية إسلامية في فلسطين، تكون نواة لدولة الوحدة التي تجمع العرب والمسلمين وكان شعاره في حركته: (هذا جهاد.. نصر أو استشهاد) يدور على ألسنة المجاهدين في فلسطين.

كان الشيخ عز الدين يعمل في سرية وتكتم، ولا يطلع على خطته إلا خاصة أعوانه ومساعديه الذين كانوا يخططون معه للعمليات التي ينفذونها ضد ثكنات الإنجليز، ومستوطنات اليهود القادمين من الخارج.. كانوا ينفّذون العمليات ليلاً، ثم يعودون إلى أعمالهم نهاراً، ويستأنفون أعمالهم العادية، فلا ينتبه لهم أحد.

جهاد فاستشهاد:

كانت عيون الإنجليز واليهود مفتوحة على الشعب، ثم تركزت على

الشيخ عز الدين، وقد استدعته سلطة الاحتلال الإنجليزي وحققت معه أكثر من مرة، وكان في كل مرة مثال العالم المجاهد الشامخ بعلمه وعمامته، يقارعهم الحجة بالحجة، ولا يخشى سجونهم وما فيها من بلاء..

ولما عرف الشيخ أن وضعه قد انكشف، وعرف أعداؤه بعض ما قام به، وما يخطط للقيام به، خرج بأعوانه إلى جبل جنين، لتثوير الفلاحين وتدريبهم على حمل السلاح، ومناجزة الإنجليز واليهود، وقبل أن يتحرك الشيخ وأعوانه لتنفيذ ما انتووا القيام به، كشفت سلطات الاحتلال مكانه، فحشدت أكثر من مئة وخمسين شرطياً بريطانياً وعربياً، وحاصرته في حرش (يعبد) صباح ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥ من ثلاث جهات، وكان بإمكان الشيخ وإخوانه أن يهربوا، ولكنه أبى الفرار من المعركة التي فرضت عليه، وقرر خوضها مع علمه بأنها معركة غير متكافئة، من حيث العُدد والعَدد والتدريب والمكان، فقد كان الشيخ وإخوانه في الوادي، وكان المهاجمون المحاصِرون في الجبل.

كان القائد الإنجليزي وضع الشرطة العرب في ثلاثة صفوف أمامية، فكانوا يتقدمون الحملة، وكان قد أوهمهم أنهم يهاجمون عصابة من اللصوص وقطاع الطرق، فأمر الشيخ إخوانه بألا يقتلوا أحداً من الشرطة العرب الذين كانوا يتقدمون نحو المجاهدين، وهم لا يعرفون أنهم يقاتلون الرجل الذي يحبون.. إلى أن أحيط بالشيخ وإخوانه، فطلب قائد الحملة من الشيخ أن يستسلم وإخوانه، لينجوا من الموت المؤكد، فأجابه الشيخ الذي يرى الموت ماثلاً أمامه:

«هذا جهاد في سبيل الله، ومن كان هذا جهاده، لا يستسلم لغير الله..».

ثم التفت إلى إخوانه وهتف بهم:

«موتوا شهداء».

فمات الشيخ وأربعة من إخوانه شهداء، وجرح اثنان، وأسر أربعة، بعد ست ساعات من القتال الضاري، أظهر فيه الشيخ وإخوانه بطولة نادرة،

وكانوا أمثلة حيّة تحتذى في التضحية والإخلاص لله والأمة والوطن، وكان لاستشهاد الشيخ وإخوانه دويٌّ هائل في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة.

ودفن الشيخ عز الدين في قرية (الشيخ) قرب حيفا، ورثاه كبار الأدباء والشعراء والعلماء والسياسيين ولم يُخفِ بعض القادة الإنجليز إعجابهم بالشيخ وبطولته وجهاده.

أما بعد:

فقد تابع تلاميذ الشيخ تنفيذ خطته من بعد استشهاده، وفجّروا الثورة الفلسطينية الكبرى بعد عام من استشهاده، واستمرت برغم المؤامرات عليها، حتى عام ١٩٣٩ ثم استأنف تلاميذ تلاميذه انتفاضتهم الأولى عام ١٩٨٧ والثانية عام ١٩٩٨ والثالثة سنة ألفين، وما تزال مستمرة، شعارها ذلك الذي رفعه رائد المجاهدين الاستشهاديين في العصر الحديث: هذا جهاد.. نصر أو استشهاد.. وسيكون نصراً مؤزراً إن شاء الله القوي العظيم، مهما تكاثفت الغيوم، واسودّت المؤامرات في الداخل والخارج، وبرغم أنوف المتآمرين مع بني صهيون من الفلسطينيين والعرب والبريطانيين والأمريكان.. والله غالب على أمره، وناصر جنده الذين ربّاهم الشيخ المجاهد الشهيد عز الدين القسّام.

المراجع:

الشيخ عز الدين القسام - حسني جرار.

رواية الإصلاح والتغيير - الجزء الثاني - حسني جرار.

الوادي الأحمر - رواية عبدالله الطنطاوي.

* * *

علاّل الفاسي
العالم العامل، والمجاهد القائد

تمهيد:

علاّل الفاسي شخصية عربية إسلامية كبيرة، وداعية إلى الله على بصيرة، كان وما يزال ملء السمع والبصر، علماً، وخطابة، وفصاحة، وأدباً، وشعراً، وجهاداً دؤوباً في سبيل الله تعالى، من أجل نصرة دينه، ورفع الحيف والظلم عن أمّة نبيّه، ﷺ، ومن أجل تحرير وطنه المغربي، وسائر أوطان المسلمين الرازحة تحت نير الاستعمار الأوروبي الغاشم، وخاصة فلسطين التي كانت في قلبه وعقله وضميره، فلسطين التي اغتصبها الإنكليز أعداء العروبة والإسلام، ثم سلّموها إلى أوباش البشر، وأوشاب الخلق، بني صهيون.

الفاسي عالم مجدّد، وشخصية شمولية متعددة المواهب والجوانب، ومفكر إسلامي رحب الآفاق، بعيد الرّؤى، واضح الرؤية والأسلوب والتفكير والتنظير والتقدير، عليم بأبعاد الفكر الإسلامي وأطواره، وهو واحد من روّاد جيل العمالقة: حسن البنا، والمودودي، والندوي، والسباعي، وقطب، والنورسي، والإبراهيمي وابن باديس بنزعته الإنسانية، وتوجّهه الفكري، وأسلوبه العلمي الأدبي، وقدرته الفائقة على الخطابة والبيان، وبسلفيته الممزوجة بالحركة والسياسة والتنظيم.

ولكل ما تقدم، كان من الصعوبة بمكان، الإلمام بشخصيته الفذّة في مقال مهما طال، فقد كتب الكاتبون عنه كتباً ولم يوفّوه ما يستأهل من مكانة في سائر مجالي الحياة السياسية والجهادية والفكرية والدينية والاقتصادية والثقافية.

أسرته:

وُلد علال في مدينة فاس في كانون الثاني سنة ١٩١٠ من أسرة عربية مسلمة، تعتزّ بعروبتها وإسلامها وجهادها في سبيل الله، وهي أسرة عربية عريقة هاجرت من الأندلس إلى المغرب، واستقرت في مدينة فاس، وإليها انتسبت فقيل لها: الفاسي، وأحياناً: الفهري، نسبة إلى قبيلة بني فهر العربية المجاهدة. وهي أيضاً أسرة علم وفضل ودين، فأبوه الشيخ عبد الواحد كان من كبار علماء المغرب، وكان مدرساً في جامعة القرويين، وكان قاضياً، ومفتياً، وكذلك كان أجداده من العلماء والقضاة والمجاهدين.

تعليمه:

بدأ حياته الدراسية على يد أبيه العالم الجليل أولاً، ثم أرسله أبوه إلى (الكُتّاب) فتعلّم فيه مبادئ العلوم العربية، وحفظ قسطاً من القرآن الكريم، ثم درس في جامعة (القرويين) إلى أن نال شهادة العالِمية عام ١٩٣٢، وكان فيها من المتفوقين، ذلك أنه لم يكتف بالكتب المقرّرة، وهي مهمة وكثيرة وكبيرة، بل أضاف إلى المقرّر ما كان يجده في مكتبة أبيه العامرة بالكتب، فيدرسها بعمق، حتى تحصّلت لديه ملكة علمية قادته إلى التضلع بعدد من العلوم العربية والتاريخية، والشرعية، والفلسفية، جعلت منه عالماً دقيقاً في أبحاثه، ومفكراً من كبار المفكرين الإسلاميين و خطيباً مفوّهاً ناصع البيان، شاعري الفكرة ، عذب الأسلوب.

المؤثرات في تكوينه:

١- أبوه العالم المجاهد، وأسرته المتدينة، وأصوله العريقة في عروبتها وإسلامها وعلمها وجهادها..

لقد عُني أبوه بتربيته التربية العربية الإسلامية التي يرضى عنها الله تعالى، وتؤهّله لخدمة دينه ووطنه وشعبه وأمته، ويكون بها ماجداً وعاملاً لاستعادة أمجاد أمته وإسلامه.. ربّاه على الشجاعة والإقدام وعدم الخوف إلا من الله

العزيز الجبار، وربّاه على الجود والكرم أخي الشجاعة ، وعلى الجرأة في قول الحق، والاتزان في إصدار الأحكام بعد تأنٍّ ورويّة. . وربّاه على الاستقامة في السلوك، والتعمق في الفكر، وعدم الشطط في أيّ شأن من شؤون الحياة. . ورباه على الصدق. . صدق اللسان، وصدق الجنان، وصدق اللهجة والعاطفة، وعلى عفّة اللسان والقلم واليد، وعلى الأمانة والإيثار وحبّ الناس، وخاصة الصالحين منهم، وعلى الحدب على الفقراء والمساكين، والتواضع لهم، وعلى التقشف في العيش، وسعة الصدر للأصدقاء والخصوم معاً، وعلى الدأب في العمل، وإتقان ما يوكل إليه منه. .

ربّاه على حبّ الوطن، والجهاد في سبيل إنقاذه من براثن الاستعمار مهما كلّفه ذلك من ثمن، وعلى مقارعة الظالمين من المستعمرين وأعوانهم وعملائهم، وعلى الإخلاص في القول والعمل، وعلى سائر مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام. .

كانت شخصية علاّل كالأرض العطشى تتشرب كل ما يُلقى فيها من غيث الله، فتشبّع الطفل والفتى والشاب علاّل وارتوى من كل هذه المعاني، وكان كما أراد له أبوه أن يكون، وكما تريده أمته أن يكون، وبذلك كسب رضى الله عزّ وجلّ، ورضى أبناء شعبه وأمته.

٢- بيئته التي تنفّس فيها طفلاً، وفتى يافعاً، وشاباً نشأ فيها على طاعة الله. بيئةُ (فاس) المدينة العربية المسلمة، وبيئةُ (القرويين) العلميةُ الأدبية المجاهدة التي كان يدرّس فيها أبوه، فتعاونت هذه البيئات الصالحات مع أبيه ومع علمائها الأفاضل على تكوين شخصية القائد والزعيم والعالم المجدّد، والمجاهد المقدام المستبسل في سبيل ما آمن به: علاّل الفاسي.

فعلاّل ابن (القرويين) وسليل أسرة علمية تعتز بإيمانها وإسلامها وعروبتها، وطالما كافح أبناؤها العلماء للحفاظ على عقيدة الأمة، ونشر الإسلام بمبادئه ومكارم أخلاقه.

٣- عشقه للحرية عشقاً شاعرياً وعقلانياً، وكرهه للاستبداد والمستبدين، وحكم الحزب الواحد، والاستئثار بالحكم دون شورى وبرلمان وانتخابات. .

٤- التعاليم والأفكار التي نادى بها السيد جمال الدين الأفغاني، وكلّها أفكار ثائرة بالاستبداد والتخلف والجمود والرضوخ للإقطاع والحكام المستبدين.

٥- الدعوة السلفية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم جاء الأفغاني لتتخذ الدعوة السلفية «على يده صبغة جديدة تتسم بطابع الشمول لكل جوانب الفكر والروح والعمل، فأصبحت تهتمّ بالبناء إلى جانب اهتمامها بالهدم، وتبلورت في دعوة قوامها التجديد المطلق لكل مظاهر الحياة الإسلامية، للعقل والدين والعلم، وطريقة المعاش والحكم، وغير ذلك من المعاني».

العالم:

كثيرون هم الذين تخرجوا في جامعة القرويين، ولكن الذين كانوا مثل علاّل قلةٌ قليلة.

وكثيرون هم خريجو الجامعات والكليات الشرعية، وأبناءُ العلماء والمشايخ، ولكن الذين كانوا مثل علاّل أقلُّ من القليل، ذلك أن الرجل حباه الله من المواهب ما بزّ به الأقران منذ كان تلميذاً على مقاعد الدرس، بزّهم بعلمه، ومواهبه، وأخلاقه، وأسلوبه المنطقي الجذاب، وخطابته المؤثرة فقدّموه على أنفسهم، وجعلوه رئيساً وقدوة لهم.

وعندما كبر، كبرت معه مواهبه، واتسعت علومه، وامتدت نظراته وطموحاته وتخطيطاته إلى بعيد، فكان العالم والمصلح والمفكر والزعيم السياسي، وموقد شعلة الكفاح المسلح من أجل الاستقلال. . وقد تكاملت عدّة شخصيات علمية وإصلاحية في شخصه المهيب.

نهل علاّل وعبّ من معين أبيه ومن رؤوس علماء القرويين، ووقف

طويلاً أمام سِيَرِ عظمائنا الأولين والمعاصرين، وأفاد منهم ضروب العزة والكرامة والاستقلالية في الرأي والموقف.

السلفي:

اطلع على الدعوة السلفية في المشرق، وأحبّها، وأفاد منها في الحرب التي شنّتْها على الخرافات والبدع وكلّ ما ليس له صلة بهذا الإسلام الحنيف، ونقل الدعوة السلفية إلى المغرب الذي كان يئن تحت وطأة الخرافات والأساطير والمسائل البدعية، فدعا إلى التمسك بالكتاب والسنّة، من أجل صياغة الشخصية الإسلامية السليمة التي يرضى عنها الله ورسوله، ولتكون المؤهَّلة لخوض غمار الحياة بثبات، ولمنافسة الآخرين بما امتلأت به وتمتلئ من معاني الإيمان، ومبادئ الدين القويم الصامد في وجه الأعاصير، القادرِ على تأهيل الأمة من جديد، بتمسكها بعقيدتها الصافية من كل زيغ، وعملها بما يأمرها به إسلامها القوي العزيز، وباستمدادها من تعاليمه معاني الحرية والكرامة والعزّة العزيزة.

نقل الدعوة السلفية إلى المغرب، ولكنه أهمل منها بعض ما رآه غير مهم، وأضاف إليها ما رآه ضرورياً، وبهذا كانت سلفيته سلفية جديدة بعض الشيء. والذي يطالع كتبه يلحظ هذا، ويثني عليه.

الكاتب والمؤلف:

وللأستاذ علاّل إنتاج غزير. . له أكثر من ثلاثين كتاباً في السياسة، والتاريخ، والشريعة، والتربية، وله مئات المقالات نشرها في الصحف المغربية، والمصرية، والسورية، والعراقية، وسواها. . ويا ليت بعض الدارسين المجتهدين من طلبة الدراسات العليا، يجمعون ما كتب، ويبوبونه تبويباً علمياً يكون بمثابة أطروحات ورسائل ماجستير ودكتوراه. . وأنا أعرف أن هذا يكلفّ جهداً عضلياً وفكرياً، ولكنهم سوف يفيدون علماً ومعرفة وثقافة متنوعة، لأنها كتابات عميقة هادفة جادّة، بعيدة الأغوار، تعطي صورة

واضحة عن شخصية علاّل، بأبعادها النفسية والفلسفية، يطرح فيها مشروعاً نهضوياً ذا بعد مستقبلي.

ويطيب لي أن أشكر الذين بادروا إلى جمع بعض ما تفرق، من تلاميذه ومن رفاق دربه، وأن أعتب على المتقاعسين منهم، الذين يعرفون الكثير أو القليل مما كتب هذا العملاق الذي تناول العديد من الموضوعات الحيوية التي يحتاج إليها شعبه المغربي، وأمته العربية والإسلامية.

لقد جمع علاّل بين الثقافة العربية الإسلامية، وبين ألوان الثقافات الأجنبية، فقد كان نهماً في القراءة، في سائر مجالي الحياة الفكرية والثقافية والحضارية.. قرأ لعدد كبير من الأدباء والمفكرين والفلاسفة الغربيين، وقام بعملية فرز ميّزت الثمين والسمين من الغثّ والهزيل، فمضغ الثمين وهضمه، ونبذ الغثّ ولفظه، فانضاف ما أخذه من الغرب إلى ما كان اختزنه من العلوم العربية والشرعية، ثم قدّمه شهياً لقرائه ومحبّيه وعشّاق الأصالة والتجديد.

ومن كتبه المهمة التي نرشّحها للقراءة والدرس:

١- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها.

٢- المدخل لدراسة النظرية العامة للفقه الإسلامي.

٣- دفاع عن الشريعة.

٤- عقيدة وجهاد.

٥- الحماية الإسبانية في المغرب، من الوجهة التاريخية والقانونية.

٦- المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى.

٧- مهمة علماء الإسلام.

٨- الإسلام وتحديات لعصر.

٩- هنا القاهرة (وهو الأحاديث التي أذاعها من إذاعة القاهرة، إبان وجوده في مصر).

١٠- بديل البديل.

١١- تاريخ التشريع الإسلامي.

١٢- نضالية الإمام مالك ومذهبه.

١٣- منهج الاستقلالية.

١٤- دائماً مع الشعب.

١٥- الغرّة في أصول الفقه.

١٦- المدخل لعلوم القرآن والتفسير.

١٧- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، وجاء في جزءين، كتبه وهو في القاهرة، بطلب من رئيس الدائرة الثقافية في جامعة الدول العربية آنئذ: الدكتور أحمد أمين الذي أراده أن يكتب فصلاً عن حركات التحرر العربي في المغرب، فألّف كتاباً كبيراً من جزءين عرّف فيه عرب المشرق والمغرب بحركات التحرر في أقطار المغرب العربي؛ الجزائر، وتونس، والمغرب. كتب عن كفاحها من أجل الاستقلال، ومن أجل الوحدة والنهوض.

١٨- النقد الذاتي. وهذا الكتاب من أ همّ كتبه، مع أنه كتبه في وقت مبكر من حياته، (صدر عام ١٩٥٤)، أراده برنامجاً للحركة الوطنية، شرح فيه مبادئه وأفكاره، وتصوّراته، وعالج فيه قضايا فكرية، وثقافية، ودينية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ونفسية، وحياتية كثيرة، واستخدم في نقده معايير إسلامية، وأخلاقية، ووطنية، وسياسية، وعلمية، وظهر فيه عطاؤه الغنيّ المتنوع، وأنه مثقف عميق، ومؤلف غير عادي، وأنه قائد، ومنظّر عميق الأغوار، سبر الشخصية المغربية بمسبار القيم العربية الإسلامية، لأنها شخصية عربية مسلمة، عرف ما تحتاج إليه من غذاء روحي وفكري لتنطلق في هذه الحياة فاعلة، مبدعة، متميزة، تأخذ من تراثها ما يفيدها في حاضرها ومستقبلها، ولا تغفل عما يحيط بها من ألوان الثقافات التي تعينها في مسيرتها،

بأخذ المفيد والخيّر منها، ونبذ ما يتعارض مع عقيدتها وقيمها ومبادئها.

كاتب أطفال:

لم يغفل الأستاذ العلامة، والمجاهد الكبير علال شؤون حبّات القلوب، أحبّائنا الصغار، فقد اهتمّ بهم، بتربيتهم وأدبهم وشعرهم، فنظم لهم ما شاء الله من شعره الرقيق، وأخرج لهم ديوان (رياض الأطفال) شعراً سهلاً يستطيعون فهمه وحفظه وإنشاده، وزوّده بالرسوم المحبّبة للأطفال، ثم قدّم لهم شعراً قصصياً جميلاً فيه أساطير مغربية وأخرى معرّبة، ممّا يحبّه الصغار ويميلون إليه.. وهذا شأن العظماء الذين يرتادون كل روض، ليقطفوا من وروده وأزاهيره ما يفيد مجتمعاتهم وناسهم، ويربي صغارهم.

الشاعر:

والأستاذ علال شاعر مجيد، وله ديوان كبير من أربعة أجزاء، وشعره فيه كشعر سائر الشعراء الثائرين أصحاب القضايا الوطنية والتحررية والرسالية؛ إنه شعر خطابي استطاع به إلهاب العواطف، وإثارة المشاعر نحو القضايا التي تهمّ الشعب والأمة... شعرٌ ملتزم بالإسلام وقيمه، دعا إلى أن يكون الإسلام محور حياة الأمة، فهو صاحب رسالة في شعره، يوظّفه لحملها إلى الناس، وكان أداة ماضية في مسيرة الحياة، يعبّر عن همومه وأشجانه، وعن تطلعاته في مستقبل زاهر لهذه الأمة الماجدة التي نام عن أمجادها كثير من أبنائها الشعراء الذين باتوا يحلمون بالفراش الدافئ الوثير، مع غانية لعوب، وشعوبهم تضوى وتجوع وتعرى، وشبابهم وقود للثورات، ومع ذلك، ما كان كثير من أولئك الشعراء ليرتقوا عن الدَّرْك الهابط، غافلين عما تعانيه أمتهم من لأواء الحياة، وفي مضامير الكفاح الدامي، وميادين العيش البائس التعيس.

لقد حفل شعر علال بقضايا أمته العربية والإسلامية وقضايا شعبه المغربي، فكان يفرح لفرح المسلمين، كفرحه باستقلال إندونيسيا، ويحزن لأحزانهم، ويرثي قادتهم العظام من أمثال: شكيب أرسلان، وأحمدو بيلو،

وسيد قطب، كما يرثي بعض شعرائهم الكبار، مثل: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وسواهما، ويدعو إلى وحدة العرب والمسلمين، ويأسى لما أصاب فلسطين على أيدي الغربيين الذين قدّموها إلى اليهود لقمة سائغة؛ لقد بكى واستبكى ودعا المسلمين إلى ثورة فكرية وتحررية عارمة على أولئك الأنذال بحيث لا تبقي منهم ولا تذر، وتعيد الحقوق إلى أصحابها الشرعيين.

والشاعر علاّل اتباعيُّ الأسلوب، ولكن (كلاسيّته) لم تمنعه من ارتياد رياض الشعر الحر، فنظم فيه، ولم يقف منه موقف العداء، مثل كثير من شعراء (الإسلامية) الذين نسوا أن أول من نظم واخترع هذا النمط الجديد من الشعر، هو الشاعر العربي الحضرمّي الإسلامي الكبير: علي أحمد باكثير، رحمه الله رحمة واسعة، وليس سواه من شعراء التفعيلة كما يزعم الزاعمون[١].

في المجامع العلمية:

ولأن علاّلاً بلغت شهرته ما بلغ الإسلام والعربية في المشرق، وطبّقت شهرته آفاقه، اختاره المجمع اللغوي في القاهرة، عضواً مراسلاً له، وكذلك فعل مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي بدمشق سابقاً).

في الإعلام:

كان الأستاذ علال عارفاً أهمية الإعلام بأساليبه الحديثة التي تمكّنه من حمل أفكاره ونقلها إلى عدد أكبر بكثير مما يستطيعه الكتاب، على أهمية الكتاب، وكان مما أتيح له من وسائل الإعلام، الصحافة والإذاعة، فلم يضيّع فرصة أتيحت له إلا اهتبلها وبادر إلى استخدامها، فكانت له أحاديثه الإذاعية في إذاعة القاهرة، أو الإذاعة المصرية التي شرح فيها قضية بلاده، وكل بلاد العروبة والإسلام بلاده، تحدّث عن القضية المغربية، وعن الاستعمار الغاشم

---

(١) انظر كتاب: فلسطين واليهود في مسرح علي أحمد باكثير.

الذي هو من جملة الحملات الصليبية، وامتدادٌ لها في العصر الحديث، وعندما كانت تأتيه الفرص في الإذاعات العربية والإسلامية الأخرى، يسرع إليها، ويفضي إلى مستمعيه بما ينبغي للداعية والسياسيّ والمجاهد أن يفضوا به إليهم توعية لهم، وشرحاً لقضاياهم، وتوجيهاً لأفكارهم وطموحاتهم وتطلعاتهم.

كما كتب في الصحافة المصرية وغيرها من الصحف العربية والأجنبية، ولم يكتف بهذا، بل عمد إلى تأسيس مجلة باسم (التضامن الإسلامي) شرح فيها فكرة التضامن بين الشعوب المغربية والعربية والإسلامية، والفوائدَ الجليلة التي تجنيها الشعوب منها. كما أسس جريدة (العلم) لتكون الناطقة الرسمية باسم حزب الاستقلال الذي أسسه ورأسه..

علال المجاهد:

منذ فتح الطفل علال عينيه على هذه الدنيا، ووعى ما يحيط به، رأى شعبه ينوء بثقل المستعمرين الغزاة الذين جاؤوا ليعتدوا على أرضه وكرامته ودينه، وينهبوا ثرواته، وينفّسوا عن أحقاد تاريخية دفينة أتاح لهم ضعف المسلمين التنفيس عنها، في مظالم قاسية لم توفّر دماً، ولا عرضاً ولا مالاً، ولا أخلاقاً، ولا شيئاً تطوله أيديهم وقواهم العسكرية الهمجية.

وعندما بلغ مبلغ الفتيان، وصار تلميذاً نجيباً، بادر إلى تشكيل جمعية طلابية معادية للوجود الاستعماري على أرضه، وانتخبه الطلاب رئيساً لها، لما أوتي من صفات تؤهله للقيادة، فكان يقود المظاهرات ويشارك في المؤتمرات التي تندد بالاستعمار، وكان أبوه يحرّضه ويشجعه على النضال، ويرى فيه من الذكاء والصلابة ما يجعله زعيماً مجاهداً في قابل الأيام.

ثم شكّل كتلة العمل الوطني، وانتخب رئيساً لها، وعندما قرر الاستعمار إلغاءها سارع إلى تشكيل الحزب الوطني برئاسته أيضاً، وعقد مؤتمرات شعبية، خاطب فيها الجماهير الغفيرة، وشرح لها أهداف كتلة العمل الوطني، وأهداف الحزب الوطني، ولخصها بوجوب انسحاب الاستعمار الفرنسي من

دياره، وبالاستقلال التام.

ومن أجل هذا الهدف النبيل، بادر إلى تشكيل جيش التحرير وهو في القاهرة، وزوّده بالرأي وبالمال والسلاح، فهو لا يرضى ولا يرتاح، إلا إذا رأى بلاد العرب والمسلمين تعيش الحياة التي ترتضيها لنفسها في جواء العروبة والإسلام، حياةً عزيزة كريمة، كتلك التي كانت لأجدادها في العهود الزاهرة.

وكان يناضل الفرنسيين من أجل حماية الشخصية الإسلامية بالإسلام، من أخطار خطيرة، جاءت بها فرنسا المستعمرة، هي خطر الكهنوتية، وسلاح الإلحاد، وسلاح العهر والفجور والدعارة والخمور.. كان يقول للناس: فرنسا لا تريد لنا تقدماً إلا بالتفرنس والبعد عن العروبة والإسلام، وعن كل ما يمتُّ إليهما بصلة من القيم والفضائل، وإلا باستبدال اللغتين: الفرنسية والبربرية باللغة العربية، وإحلالهما محلها.

كان يرى في الاستعمار أكثر من لون قاتم:

- فهناك الاستعمار السياسي المدعوم باحتلال عسكري غاشم.

- وهناك استعمار اقتصادي لعله أخطر من الاستعمار السياسي أو لا يقلّ عنه خطراً.

- وهناك الاستعمار الثقافي الذي يستهدف هوية الإنسان المسلم في دينه، وعروبته، وتاريخه، ولغته، وسائر قيمه.

لقد كان علاّل عدواً لدوداً للاستعمار بشتى أشكاله وألوانه، وخصماً عنيداً للمتعاونين معه والمهادنين له، وكان المستعمرون يعرفون هذا منه، ويقفون في وجهه بقوة، ولكنه ما كان يبالي بما يصيبه من أذى في سبيل تحقيق الهدف الرئيس له، ألا وهو الاستقلال.

الاعتقال والمنفى:

من أجل ذلك، تعرّض علال للاعتقال مراراً، وكان في كل مرة يخرج من

معتقله أشدّ إيماناً بقضيته، واستمساكاً بها، ورفضاً لأيّ تفاوض مع المستعمر إلا بعد الجلاء والاستقلال.

في عام ١٩٣٠ اعتقلته السلطات الاستعمارية، على أثر المظاهرات التي قاد بعضها، وشارك في بعضها الآخر، ضدّ مشروع (الظهير البربري)، اعتقلوه وعذّبوه، ثم نفوه إلى بلدة (تازة) وعندما أفرجوا عنه، عاد إلى مدينته (فاس) عام ١٩١٣ وحاول العودة إلى التدريس، فمنعته السلطات الاستعمارية، فصار يدرّس الناس في بيته، ويتابع دراسته في القرويين.

وفي عام ١٩٣٧ أعادوا اعتقاله، ونفوه إلى (الغابون) في إفريقيا الاستوائية، وبعد أربع سنوات (١٩٤١) نقلوه إلى الكونغو منفياً خمس سنين أخرى، فكان مجموع سني نفيه تسع سنوات أمضاها مقطوعاً عن العالم الخارجي، فلا صحف ولا زيارات، ولا لقاء بأحد سوى سجّانيه الفرنسيين القساة العتاة الذين كانوا يمارسون معه ومع المعتقلين الآخرين، ألواناً من التمييز العنصري، كما رأى الظلم الذي يوقعه الفرنسيون بالأفارقة السود على العموم.

وأفاد السجين المنفي علاّل من عزلته هذه، وانطلق يفكر في الأساليب التي يجب أن ينتهجها من أجل تحرير وطنه وشعبه من ربقة الاستعمار، وكان يهتبل فرصة وجود بعض الضباط السجانين والزائرين، ليشرح لهم قضية شعبه، ويحاورَهم في ضرورة استقلاله بكل جرأة وصراحة ووضوح، فيلقى الصدّ والتعنيف حيناً، والاحترام والقبول حيناً آخر، وكان بعض أولئك الضباط والمحاورين ينقلون إلى رؤسائهم آراء علال، وكان بعضهم يتعاطف معه.

قال له المسيو لورانسييه يوماً:

«إن وزارتي الخارجية، الإنكليزية والأمريكية طلبتا من الجنرال ديجول إطلاق سراحك رسمياً، وأن تدخل مع جيوش الحلفاء، مع قبول شرطك في إعلان الاستقلال... ولكن الجنرال ديغول غضوب مثلكم، فقد كان يريد وضع حل للقضية المغربية بالاتفاق معكم، ولكن طلب الإنكليز والأميركان

إطلاق سراحكم، وإعلان استقلال المغرب، أحدث في نفسه تخوّفات، وبعث فيه روح الرجل الذي لا يحب أن يعمل تحت الضغط».

وهكذا كان علاّل ملء السمع والبصر والعقل والقلب، يحاربه أعداؤه المستعمرون، ويضيقون بأفكاره الوطنية والعربية والإسلامية، فيعتقلونه وينفونه، ويعذّبونه، ولكنهم يحترمونه، ويعرفون أنه الناطق الرسمي الحقيقي باسم الشعب المغربي، والممثل الشخصي له، وكلمته هي الكلمة الفصل، وحزبه هو الحزب الذي يجب أن يتفاوضوا معه، فمسيرة الرجل المجاهد علاّل، وشخصيته الفذّة، ومواقفه الصريحة الجريئة التي كلفته الكثير من الأذى، أقنعتهم أن علالاً هو الرجل الجدير بالتفاوض والاحترام، لأنه ما كان يعمل لمجد شخصي، أو مصلحة ذاتية أو قبلية أو حزبية، وإنما كانت كل تلك التكاليف ثمناً لمبدأ آمن به وناضل من أجله، هو إنجاز الاستقلال لأرضه وشعبه.

أسفاره:

كان علاّل كثير الأسفار، وسيع الاتصالات والعلاقات بالحركات التحررية والاستقلالية؛ العربية والإسلامية، وكانت صلاته بالمشرق العربي وثيقة عميقة، وكنا، ونحن صغار، لا نكاد نعرف من المغرب العربي سوى علال الفاسي، يقيم في القاهرة، ويزور دمشق وبغداد، ويكتب في صحفها، ويحاضر في منتدياتها، ويتحدث في إذاعاتها، ويحاور قادتها، ويعقد الصداقات والمودات مع رجالاتها، فعرفناه معرفة جيدة وعن كثب، وأحببنا منطقه ولهجته المغربية، وحاولنا تقليده فيها، كما كنا نعرف ونقلّد ونحبّ مشايخنا: البشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني من الجزائر، ومحيي الدين القليبي من تونس، وسعيد رمضان، وعبد الحكيم عابدين، وعبد العزيز علي، وعز الدين إبراهيم، وسعد الدين الوليلي من مصر.

زار العواصم العربية والأوروبية وأمريكا من أجل تحرير بلاده واستقلالها،

ومن أجل تحرير سائر بلدان المسلمين، وخاصة فلسطين التي كانت تتمركز في عقله وقلبه، والقدس الشريف، فقد أولاهما جلّ اهتمامه، لأنهما قضية الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر، ولا ينبغي للعرب والمسلمين أن ينشغلوا عنهما لحظة من زمن، ولا ينبغي لهم أن يقدّموا عليهما أيّ قضية أخرى، فهما الحلقة الأولى في سلّم الأولويات.

لقد بذل علاّل كثيراً من أجل فلسطين والقدس، حتى آخر نفس من أنفاسه الطاهرة، فقد كان في بوخارست عاصمة بلغاريا ينافح عن فلسطين والقدس، عندما أصابته نوبة قلبية توفي على إثرها وهو يهتف بالعالم: فلسطين عربية مسلمة، وعاصمتها القدس الشريف.. كان ذلك يوم الاثنين في العشرين من شهر ربيع الثاني عام ١٣٩٤هـ-الثالث عشر من أيار ١٩٧٤، ونُقل جثمانه الطاهر إلى المغرب، ووري في مثواه الأخير في هذه الدنيا في مقبرة الشهداء في مدينة الرباط. أما مثواه في الحياة الأخرى، ففي الفراديس العُلا، بفضل الله ورحمته وكرمه.

مع الجماهير:

كان علاّل زعيماً حقيقياً، نال الزعامة عن جدارة، فقد تجمّعت لديه كلّ مقوّمات الزعامة والقيادة، وجعلته يمتلك ناصية الشارع السياسي في بلاده، فكان الأبرز بين سائر الزعماء الوطنيين، وكان الأقرب إلى قلوب الناس، فأقبلوا عليه يستمعون له، ويتحاورون معه، ويخرجون من عنده وقد ازدادوا به ثقة، وله سمعاً وطاعة، فقد قرؤوا في عينيه وفي قسمات وجهه كلمتي الصدق والإخلاص، ووجدوا عنده الدفء الذي طالما افتقدوه لدى الوجهاء والعلماء.. كانوا يسمعون كلماته العذبة التي تحمل لهم جوانب من عقله الكبير، فتنفذ إلى عقولهم، وتلتقي قلوبهم قلبه الكبير العامر بالحنان والحبّ، فيرونه واحداً منهم، ولكنه يكبرهم فيحنو عليهم حنوّ الكبير على الصغير.

كان شعوره كشعورهم، يجلس إلى الفقراء والبسطاء منهم.. إلى العمال

والفلاحين، ويستمع إلى همومهم ومشكلاتهم، ويسعى في حلّها كأيّ أخ كبير مع إخوته الذين يصغرونه. . يقدّم لهم العون، ويفرح لأفراحهم، ويترح لأتراحهم، ويتسع صدره لسلبياتهم وإيجابياتهم ويقدّم لهم الكثير من ذات نفسه وراحته وماله بأريحية ورضى لكل من الخصم والنصير.

المنظّم:

كان علاّل منظّراً ومنظّماً. . ظهرت هاتان الصفتان فيه منذ صغره عندما أسس جمعية طلابية ضد الاستعمار الفرنسي، وتسلّم رئاستها، ثم في كتلة العمل الوطني، ثم في الحزب الوطني، ثم في حزب الاستقلال ثم في جيش التحرير، ثم في تأسيس نقابة للعمال، ثمّ عندما كان مدرساً في المدرسة الناصرية التي أسهم في تأسيسها، والتخطيط لمناهجها وبرامجها.

ثم وهو وزير للشؤون الإسلامية، ثم وهو وزير للعدل، ثم وهو رئيس للمجلس التأسيسي الذي وضع دستور المغرب عام ١٩٦٠، وترك علاّل بصماته بوضوح عليه. ثم في مجلس النواب الذي اختير عضواً فيه عام ١٩٦٣ وكانت بصماته ظاهرة في قراراته، ثم وهو رئيس منتخب لهيئة دائرة معارف المغرب، ثم وهو عضو في رابطة العالم الإسلامي.

حزب الاستقلال:

شكّل علاّل حزب الاستقلال بعد عودته من منفاه عام ١٩٤٦ ودعا في دستوره إلى انضمام بلاده إلى الجامعة العربية الوليدة، بدلاً من (الاتحاد الفرنسي) الاستعماري.

وقد وضع لهذا الحزب نظامه الخاص، ووضح رؤاه للحاضر والمستقبل، ولعل أهم ما نادى به:

- الاستقلال. . فهو الشرط الأساس لإقلاع المغرب، والنهوض به، وهذا الاستقلال يعني وحدة سائر التراب المغربي، وتحرُّرَه من الاستعمار البغيض.

- ونادى بالحرية بسائر أشكالها الفردية والجماعية.. حرية التعبير، وحرية الاجتماع، وحرية العمل الحزبي.. الحريّة التي لا يحدّها سوى حدود حرية الآخرين، ولا تقف إلا عند تخومهم فلا تتعدّاها.

- وهذه الحرية جزء من الديمقراطية التي تتفق في بعض جوانبها مع مبادئ الإسلام وتعاليمه، لأن المغرب عربي مسلم وجزء من الأمة الإسلامية.

- ولهذا طالب بدستور ديموقراطي يعترف بحقوق الإنسان.

- ورأى أن يُنصّ في الدستور على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية، وعلى أن الإسلام هو دين الدولة.

- وأن ينص على أن المغاربة متساوون أمام القانون، ولا امتياز لأحد على أحد.

- وأن يكون القضاء عادلاً مستمداً من الشريعة الإسلامية، ومن مبادئه رفعُ المستوى الأخلاقي للشعب.

- وأن يكون التعليم مجانياً وإجبارياً.

- وأن تكون الرعاية الصحية للجميع، وفي تحسّن مطّرد.

- وأن ينص على تحسين أحوال العمال والفلاحين وسائر الفقراء.

- وأن تكون السياسة الخارجية منسجمة مع المصالح العربية التي تربطنا بها روابط دينية وتاريخية وثقافية، وبالانضمام إلى جامعة الدول العربية، ليبني المغرب مع إخوانه العرب في المشرق، صرح سلام عالمي، يكون لصالح البشرية جمعاء.

الوحدوي:

كما كان علاّل داعية التحرير والاستقلال، هو داعية الوحدة والتوحيد، والوحدة عنده محصورة في أربع دوائر:

الأولى: وحدة التراب المغربي، أو الوحدة الوطنية، وكان علال رمزها

الكبير، والمنافح عنها، والمستميت في سبيلها، المتصدّي لمن يعمل من أجل زعزعتها، استعماراً كان أو من أصحاب الأهواء والمصالح الشخصية الضيقة، أو المنافقين والعملاء في الداخل.

الثانية: الوحدة المغاربية التي تجمع وتوحّد الأقطار الثلاثة: المغرب، والجزائر، وتونس، بل إنه يجعل القطر المصري مشمولاً بهذه الوحدة، لأنه امتداد طبيعي وتاريخي لأقطار المغرب العربي. دعا الزعيم علاّل إلى هذه الوحدة بقوة، وعدّها ماهدة للوحدة العربية الكبرى.

الثالثة: الوحدة العربية الشاملة لسائر أقطار العروبة، ويعدّها مقدمة للوحدة الإسلامية. ويرى أن مقوّمات هذه الوحدة موجودة بقوة، وأهمها الإسلام، واللغة العربية، والتاريخ المشترك، وسواها من المقومات الطبيعية والبشرية.

الرابعة: الوحدة الإسلامية

ألقى علاّل محاضرة قيمة ومرتجلة في (رابطة العالم الإسلامي) في مكة المكرمة في الرابع عشر من ذي الحجة عام ١٣٨٨هـ-٥/ ٣/ ١٩٦٩م بعنوان: (نحو وحدة إسلامية) دعا فيها إلى الاتحاد الإسلامي، أو إلى التضامن الإسلامي الذي كان الشغل الشاغل للعديد من المفكرين والقيادات الإسلامية، كالملك فيصل، والرئيس أحمدو بيلو وسواهما، رحمهما الله تعالى- وكان علاّل من أشدّ المتحمّسين لها، الداعين إلى قيامها، وكان جمال عبد الناصر ومن معه من القوميين واليساريين والعلمانيين من أشدّ المعادين لها في تحركاتهم ومؤامراتهم وإعلامهم البذيء.. وهذه الدعوة أثمرت (منظمة المؤتمر الإسلامي) عام ١٩٦٩ بعد إحراق المسجد الأقصى.

دعا علاّل إلى وحدة المصالح في الأمة، وإلى التضامن الإسلامي، فهو وحده الكفيل بتحرير الشعوب الإسلامية الرازحة تحت الاستعمار في فلسطين وكشمير، والفلبين، وتشاد، وسواها. ولهذا وقف بقوّة ضدّ مؤامرة فصل بنغلادش عن باكستان عام ١٩٧١

وقد حدّد علاّل مقوّمات هذا الاتحاد أو التضامن بخمسة تواحيد:

١- وحدة العقيدة.

٢- وحدة الربوبية. أي التزام الشريعة المنبثقة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وإلغاء القوانين الوضعية، وهي قوانين أجنبية دخيلة.

٣- وحدة المواطنة، بحيث يكون المسلم أخا المسلم حقيقة، فإذا أصيب مسلم أو بلد إسلامي، فالمسلمون كلهم مدعوّون إلى الجهاد في سبيل الله، من أجل نصرته وإنقاذه.

ووحدة المواطنة تعني حبّ سائرِ أقطار الوطن الإسلامي، وأن جميع المسلمين يتمتعون بجميع الحقوق، ويقومون بجميع الواجبات في سائر بلاد الإسلام، وكأنهم في أوطانهم الصغيرة.

٤- وحدة اللغة: وهي اللغة العربية التي دعا إليها الإسلام، وجعلها من مقاصده، وأنزل بها القرآن، وهي لغة المسلمين جميعاً، وليست لغة العرب وحدهم. ولهذا يراها أكبر مقوّم من مقوّمات الوحدات الأربعة، بعد الإسلام.

٥- وحدة الجنسية: وجنسية المسلم عقيدته، ولا فرق بين عربي وحبشي ورومي وصيني وفارسي إلا بالتقوى.

سمّى الأستاذ علاّل هذه المقومات والعناصر بتواحيد الإسلام التي يمكنها أن توحّد المسلمين، إذا تحرّك القادة، وخلصت النيات.

أهم أفكاره:

١- إذا تعذر قيام الوحدة الإسلامية فلا أقلّ من وحدة الفكر، ووحدة الكلمة، ووحدة الموقف، فالله وحده يدعونا إلى هذه الوحدة التي لا تتعارض مع الوحدة الوطنية، ولا مع الوحدة العربية، والإفريقية، بل إنها تتلاقى في الأهداف والغايات، وتشترك في المنطلقات والمرتكزات. وكلها تعمل من أجل الإنسان وكرامته والنهوض به مادياً ومعنوياً. وهذه الوحدة

إنما تقوم على أساس العقيدة النقية الصافية من أوشاب الخرافات والمصالح الشخصية، أما تمزّق الأمة، فأسُّ البلاء فيها.

٢- يرى أن تستجيب الحركة الوطنية لحاجات الأمة ورغباتها «لأن الغاية من كل حركة وطنية، هي تحقيق الآمال التي تختلج بأفكار الشعب وكل مجهود لا يتضمن هذه الغاية وإنجازها، هو مجهود لا قيمة له» لأن الشعب في مسيس الحاجة إلى من يهتم بدراسة أمانيه الحقيقية كما يفكر بها، وكما يريدها في أعماقه.

٣- كان يقول:

«ما أحوج المسلمين اليوم إلى الرجوع للدين كما أُنزل غضّاً طريّاً، وما أحوجهم للتحرر من عقدة النقص التي ركّبها المستعمر الأجنبي في بلادهم، حتى أصبحوا لا يفهمون ولا يقدّرون إلا بمقاييس المستعمرين».

وكان يندد بالغزو الفكري، والثقافي، والتأثر بالثورة الفرنسية، وبسائر الأفكار الأخرى، في تركيا العلمانية، وفي سواها من بلاد المسلمين.

٤- يجب أن تكون السياسة في خدمة الدين، وليس العكس.

٥- الإسلام هو الحل لسائر مشكلاتنا، فهو دين الحياة، ومن أجل الحياة، ونزعتُه الإنسانية تشمل الإنسان والحيوان والنبات.

٦- يرى أن الاستعمار لم يُحْدِثْ من الخراب في الأرض والأجسام، مثل ما أحدثه في العقول والقلوب والأفهام، فكان عاقبة أمرهم أن تسلطت عليهم هذه الحكومات البوليسية في كل مكان، تصليهم ظلماً، ولا تألوهم اضطهاداً وهضماً، وسيبقى المسلمون كذلك، ما داموا ينشدون العدل من غير الإسلام، والصلاح من غير القرآن.

٧- يرى أنه لا بدّ من القدوة الذي يقتدي به الناس، ويهتدون بهديه فكرياً وسلوكياً. ذلك الإنسان المسلم النقي الذي يكون فوق الشبهات، يزهد بما في أيدي الناس، يعطي ولا يأخذ، ويتسامى عن ألوان الحطام، الذي يقتتل

حوله الناس.

الخاتمة:

هذا غيض من فيوضات هذا العَلَمِ العالم العامل المجاهد الذي افتدى دينه وشعبه وأمته بكل ما يملك من مال، ووقت، وراحة، وحرية، وكان من العلماء المجددين، تجاوزت سمعته الطيبة حدود المغرب، إلى المشرق، وإلى سائر بلاد المسلمين، فكان قطباً من أقطابهم في عصره، وما زال تأثيره في الأجيال التي جاءت من بعده.

لقد كان الإسلام هو الحادي لمسيرته منذ نعومة أظفاره، إلى التحاقه برحمة الله تعالى، لم يحد عنه، ووقف شامخاً في وجه الأعاصير التي أرادت أن تعصف به، كفعل سائر المجاهدين الغيورين الشامخين بهذا الدين العظيم، لا يطأطئون لعاصفة هوجاء،ولا يرزحون لنير ظالم مستبد، جذوره ضاربة في أعماق أرضه، وهامته تناطح السحاب.

المصادر والمراجع:

١- بعض كتب الأستاذ علال الفاسي.

٢- جريدة (العلم) المغربية- عدد ٢٧/ ١/ ١٤٢٠هـ.

٣- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. للدكتور محمد رجب البيومي - المجلد الثالث.

٤- ملامح من شخصية علال الفاسي. للأستاذ عبد الكريم غلاب.

٥- رجال عرفتهم. للأستاذ أبي بكر القادري.

٦- مثقف الحرية والإصلاح. للأستاذ محمد شكري سلام.

٧- الأعلام. للأستاذ خير الدين الزركلي.

* * *

الشيخ علي الدقر
صاحب أكبر نهضة علمية في بلاد الشام

تمهيد:

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ منهم، فيما أحسب، ولا أزكي على الله أحداً، العالم الرباني، والشيخ التقيّ النقي الداعي إلى الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، علامة الشام وواعظها وباعث نهضتها العلمية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي، الشيخ علي الدقر، والد الشيخين العالمين الجليلين: أحمد وعبد الغني الدقر، رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة.

نشأته:

ولد الشيخ علي في دمشق عام ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م لأب تاجر صالح محسن، ومن أسرة دمشقية عريقة، ولأمّ صالحة محسنة، تنفق من مالها، كما ينفق زوجها التاجر الثري الحاج عبد الغني الدقر من ماله الكثير.

وقد ورث الشيخ علي من أبيه خصلتي الصلاح والكرم، فقد كان الولد سرّ أبيه في هاتين الخصلتين اللتين سارت الأحاديث بهما فملأت ديار الشام؛ فقد كانت له مزرعتان في المزّة وداريّا، يؤمّهما الفقراء والمحتاجون، ليأخذ كل واحد منهم ما يحتاجه منهما، من دون استئذان، فقد أذن الشيخ مسبقاً لمن يريد، أن يأخذ منهما ما يريد، كما كانوا وطلبة العلم الفقراء يزورونه في بيته، وكانوا عندما يخرجون، يأخذون حاجتهم من أكياس الحنطة، والدقيق، والسكر، والزبيب، والعدس، والأرز، والشاي، ومن السمن، والزيت..

وعندما يمد الموائد، يفرح بازدحام المساكين والفقراء عليها.

وكان لا يدخل إلى جيبه شيئاً من المعاش الذي يأتيه من الأوقاف، ولا يخلطه بماله، بل كان ينفقه على طلابه الفقراء بأريحية تذكّرنا بأجواد العرب في بوادي العرب، وكانت أيام الحرب الكونية الأولى وما تلاها من سنين عجاف، أشبه ما تكون بتلك البوادي القاحلة، وكان فيها الجواد.

صفته:

وصفه الشيخ علي الطنطاوي الذي رآه وتتلمذ عليه، وأعجب به، بقوله:

«وكان الشيخ علي الدقر- كالشيخ بدر الدين الحسني- جميل الصورة، ناصع البياض، أزرق العينين، حلو التقاسيم، له لحية بيضاء كبيرة تزيده جمالاً، وكان كلاهما يتخذ العمامة التجارية من القماش الهندي المطرّز، لا العمامة البيضاء، عمامة العلماء».

وهذه العمامة يسمّونها في الشام: (لفَّة لام- ألف) وهي التي كان يتخذها ولداه من بعده: الشيخ أحمد والشيخ عبد الغني، مع أنها عمامة التجار، وليست عمامة العلماء البيضاء التي يُلَفُّ شاشها الأبيض، على طربوش أحمر.

تعليمه:

كدأب الناس في زمانه (القرن الرابع عشر الهجري) تعلّم في (الكتّاب) القراءة والكتابة وشيئاً يسيراً من القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدرسة الشيخ عيد السفرجلاني، وأمضى فيها بضع سنين، أفاد منها شيئاً من علوم اللغة العربية، وعلوم الدين، ثم لازم الشيخ محمد القاسمي، وقرأ عليه من علوم العربية والدين ما أهّله لتدريس شيء من علم النحو ومن الفقه الشافعي، وشيخه سعيد بما يرى من نجابته وعلمه وورعه.

وصحب المحدّثَ الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، وكان من أحبّ تلاميذه إليه، وأقربهم منه، وقرأ عليه الكتب الخمسة، كما قرأ على غيره من علماء الشام كالشيخ أمين سويد، ما جعله عالماً فقيهاً يشار إليه بالبنان.

وعظه:

وقد جمع الشيخ بين العلم والعمل، فكان نشاطه الدعوي مشهوداً حيثما حلّ وارتحل، في مساجد دمشق وغيرها من المدن والقرى السورية، وكان له تأثير كبير فيمن يلقاه من الناس، فازدحم على دروسه العلمية والوعظية كبار تجار دمشق وصالحوها، وكان يدعوهم إلى التعاون والتحابب والإيثار، ويحرّم عليهم وينهاهم عن الغش والاحتكار، ويرسخ قواعد التعامل بينهم في سائر علاقاتهم الأسرية والاجتماعية والتجارية، ويحضّهم على التمسّك بتعاليم الإسلام العظيم.. كل ذلك بأسلوب فريد من نوعه، وصفه الشيخ علي الطنطاوي بقوله:

«الرجل الذي هزّ دمشق، من أربعين سنة، هزّة لم تعرف مثلها من مئتي سنة، وصرخ في أرجائها صرخة الإيمان، فتجاوبت أصداؤها في أقطار الشام، واستجاب لها الناس، يعودون إلى دين الله أفواجاً، يبتدرون المساجد، ويستبقون إلى حلقاتها..

علامة الشام.. بل هو في الشام علم الأعلام، أعطي من التوفيق في العمل، والعمق في الأثر، ما لم يعط مثله الشيخ بدر الدين ولا غيره من مشايخ الشام في تلك الأيام».

كان المسجد الذي يدرس فيه الشيخ علي الدقر "يمتلئ كله، ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه، ولم يكن في الدرس علم غزير، ولكن كان فيه شيء لا يجده سامعه عند ذوي العلم الغزير. فيه الموعظة التي تخرج من القلب، لتقع في القلب، فتحرك فيه خامد الشعور، وتثير فيه كامن الإيمان.. فيه يملأ بالدموع المآقي، ويبكي من الخشوع العيون، فيه ما يقيم ويقعد، ويلين أفئدة كانت أشدّ من الصخر، ويستخلص من أيدي الشيطان نفوساً كان قد تملكها وتحكّم فيها الشيطان. فيه ما يشعره حاضره أنه انتقل من هذه الدنيا، إلى مجالس الجنان.

فيه مالا أستطيع أن أعرّف القارئين به، لأنه شيء يُرى ولا يوصف، ويذاق ولا يُعرف، وكان الشيخ يُسأل: من أين يأتي بـهذا الكلام الذي يلقيه على الناس؟ ومن أيٍّ كتاب ينقلـه؟ فما كان يجيب، ولو أجاب لقال: إنـه ينقله من الصلاة في ظلمـات الليالي، ومن المناجـاة في هدآت الأسحار، ومن حـلاوة الإيمان التي يذوقها في ساعات الخلوة بالله، والتوجّه إليه، والقيام بين يديه. . »

«إنه، إنْ وعظ، لم يـأت بألفاظ حلوة تـقرع الأذن، ثم لا تتجـاوزها، بل بمعان تصل إلى القلوب، قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان».

عندما يقرر الدرس، مـا كان يقتصر على عبارة الـكتاب الذي يدِّرسه، بل كان ينطلق لسانه بكلمات ترقّق القلوب، وتذكّر بالآخرة. . كان فيها من روعة التذكير، وشدة التأثير، ما ليس له نظير.

كان يخشع هو، فيخشع السامعون، ويبكي فيبكون. .

وكان يرى إقبـال الناس عليه فيعجـب ويتساءل: نحن نحن، ما تـبدّل فينا شيء، فما الداعي لهذا الإقبال والازدحام؟

ويعـجب تـلاميـذه وإخوانـه من كـلامه هـذا، ولسـان حالهـم يقـول: إنه الإخلاص. . إنـه الورع والتقـوى. . إنه صفـاء القلب والـعقل والنـفس. . إنه حبّ الله وحبُّ رسوله ﷺ، الذي ملك عليه أقطار قلبه وعقله. . إنه الخشية التي جعلتك تقول: إن كلَّ علم لا يورث خشـية، لا يزيد صاحبه إلا بعداً من الله تعالـى، فوازنتَ بين العلم والعـمل، وكنتَ مخبـتاً لله، زاهداً، متقـشّفاً، وقـد أورثك هذا وسـواه، إقبـال الناس علـيك، وازدحامـهم علـى دروسك، وتأثّرهم بمـواعظك، وامتثالهـم لأوامرك وتعليماتك الـمستمدّة من كـتاب الله وسنّة رسوله، البعيدة عن الهوى، العـاملة على طرد الخرافات والبدع من حياة المبتدعين وأتباعهم الجهلة، حتى لا يفسدوا على الناس دينهم وعقيدتهم.

النهضة العلمية:

أستطيع أن أؤكد أن الشيخ علي الدقر هو صاحب أضخم نهضة علميّة في

بلاد الشام في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي.

وسبب هذه النهضة التي دُعيتْ بنهضة العلماء، أن الشيخ علياً كان محبّاً للعلم، شغوفاً به شغفاً جعل أباه التاجر الكبير يأسى لحاله، ويشكو إلى بقّال صديق ما قد يؤول إليه مصير ولده عليّ الذي ترك التجارة، ولحق المشايخ ودروسهم في المساجد، وترك المال والعزّ والجاه الذي يرتع هو وأولاده الآخرون في نعيمه، فيما الشيخ علي زاهد في كلّ ذلك، مقبل على طلب العلم، والجلوس بين أيدي المشايخ.

وشاء الله أن يمتدّ العمر بذلك البقال، ليرى ما وصل إليه الشيخ علي من العزّ، وهو يراه من دكانه، وقد حفّ به أصحاب العمائم، فيتذكّر شكوى أبيه الحاج عبد الغني، وخوفه الفقر والعوز على ولده، يتذكّر هذا فيهتف بأعلى صوته:

«أين أنت يا أبا صادق، لترى العزّ الحقيقي لابنك الشيخ علي».

وثمة سبب آخر، هو ما كان عليه التعليم الرسمي من بُعْدٍ عن الله وعن تعاليم الإسلام ومبادئ الأخلاق، وتأثر بالغرب وعلومه.

فكّر الشيخ عليّ مليّاً فيما يعمل، واستخار الله تعالى، ثم هداه تفكيره إلى البديل عن تلك المدارس ذات المناهج العلمانية.. والبديل في إنشاء مدارس ومعاهد شرعيّة، تعلّم العقيدة، وأحكام الإسلام، والعلوم الشرعية، والعلوم العربية التي هي مفتاح العلوم الشرعية.

ولا بدّ لإنشاء المدارس والمعاهد من أموال، ورجال، ونظام، وهذا يتطلب إنشاء جمعية، فقرّر، بالتعاون مع التجار الذين يحبّونه، ويثقون به، وبصلاحه، وبسداد رأيه، وبتوفيق الله إياه لما فيه خير الأمة في دينها ودنياها، وبالتعاون مع بعض العلماء أيضاً، كالشيخ هاشم الخطيب، وبمباركة محدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني.. قرّر إنشاء (الجمعية الغرّاء لتعليم أولاد الفقراء) ثم انطلق يحشد الطلاب لدراسة العلم الشرعي من أولاد الفقراء في

حوران، والأردن، وبعض المدن والقرى السورية.

الجمعية الغرّاء:

كان لهذه الجمعية التي أُسست عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م آثار عميقة في النهضة العلمية في بلاد الشام، وقبل أن تتخذ لها مقراً تجتمع فيه إدارتها، ويرتاده الناس، أنشأت مدرسة في بناء المدرسة السميساطية لطلاب المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وصار مقرّ إدارة المدرسة مقرّاً لإدارة الجمعية، وانطلق تلاميذ الشيخ علي إلى قرى حوران، يأخذون من كل قرية واحداً أو أكثر من أبنائها الذين يتوسمون فيهم الذكاء والنجابة، حتى كثر الطلاب من الجنسين، وضاقت بهم المدرسة السميساطية، فبادرت الجمعية إلى اعتماد مراكز للتدريس في جامع العدّاس، والتكيّة السليمانية، والمدرسة الخيضرية، والمدرسة السباهية، وقد توزعت على عدد من أحياء دمشق القديمة، من الباب الشمالي للجامع الأموي، إلى باب الجابية، إلى سواهما.

«وفي سنة ١٣٥٣هـ تقريباً - أواخر أيام الانتداب الفرنسي - استولت الجمعية على جامع تنكز بشارع النصر، فصار مقراً لها، وفيه أسست ثانوية شرعية سُمِّيت: معهد العلوم الشرعية الإسلامية. تكفّلت الجمعية لطلابها بالطعام، والكساء، والمبيت... وقامت بتعليم الفقراء مجاناً.. واهتمت بتعليم علوم الدين، والدنيا، والتوجيه الخلقي العام».

وكان يتبع لها من المدارس الابتدائية التي أنشأتها:

١ - مدرسة سعادة الأبناء. للذكور. فيها مئات الطلاب.

٢ - مدرسة وقاية الأبناء. للذكور. فيها مئات الطلاب.

٣ - مدرسة هداية الأبناء. للذكور. فيها مئات التلاميذ.

٤ - مدرسة روضة الحياء. للإناث. فيها مئات التلميذات.

٥ - مدرسة زهرة الحياء. للإناث. فيها أكثر من مئة تلميذة.

كما أسست من المدارس الثانوية ست مدارس ومعاهد للذكور والإناث منها:

١ - معهد العلوم الشرعية. للذكور. فيه مئات الطلاب.

٢ - ثانوية السعادة. للذكور. فيه مئات الطلاب.

٣ - معهد العلوم الشرعية. للإناث. فيها مئات الطالبات.

قال الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته ١/١٦٨:

« لقد أثمرت - الجمعية الغراء - خيراً كثيراً، وخرّجت علماء ودعاة، وأحيا بها الله أرض حوران والبلقاء - الأردن».

خرّجت مئات الدعاة، والعلماء، والخطباء، والأدباء، والوعاظ، والمعلمين، والمدرّسين، وأساتذة الجامعات، والمفكرين، أذكر منهم بعض العلماء الذين علّمونا في معهد العلوم الشرعية، وكانوا من فطاحل العلماء الذين سعدت بهم دمشق:

١ - الشيخ حسن حبنكة (العلامة المجاهد المربي).

٢ - الشيخ عبد الوهاب الحافظ (دبس وزيت) (مفتي الأحناف بدمشق).

٣ - الشيخ نايف عباس (علامة التاريخ والفرائض).

٤ - الشيخ أحمد الدقر (مدير معهد العلوم الشرعية).

٥ - الشيخ عبد الغني الدقر (الأديب، النحوي، الفقيه، المحدّث).

٦ - الشيخ عبد الكريم الرفاعي (العالم الرباني).

٧ - الشيخ أحمد منصور المقداد (الشافعي الصغير).

٨ - الأستاذ محمد الدقر (محام وقاض).

٩ - الشيخ خالد الجباوي (سيبويه الصغير).

١٠ - الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق (الخطيب المفوّه، والبرلماني اللامع).

١١ - الدكتور الشيخ محمد أديب الصالح. (الأكاديمي الأديب، والعالم

الرباني).

١٢ - الشيخ عبد الرحمن الزعبي (الطيبي) - المفسّر والمحدّث -.

١٣ - الدكتور محمد خير عرقسوسي.

١٤ - الشيخ عز الدين الحايك.

١٥ - الشيخ عبد الوهاب الصلاحي (الواعظ المربي).

١٦ - الشيخ محمد كامل الخطيب.

١٧ - الشيخ محمد السيد.

١٨ - الشيخ عبد الله الراشدي.

١٩ - الشيخ محمد علي المصري.

٢٠ - الشيخ عبد الرحمن بركات.

٢١ - الدكتور فتحي النحلاوي. طبيب المعهد.

وأمّا مئات العلماء الذين تخرجوا في معاهد الجمعية الغراء، فأكثر من أن يُحْصَوا، وهم منتشرون في المدن والأرياف السورية والأردنية والفلسطينية والتركيّة واللبنانية و. . تخرجوا في معاهد الجمعية الغراء ومدارسها، وملؤوا الآفاق، منذ أوائل القرن العشرين وحتى يوم الناس هذا.

وقد شاركت الجعية الغراء في الحياة الاجتماعية والسياسية، والجهادية، وكان مقرّها يغصّ برجال السياسة، وعلماء الدين، ووجهاء دمشق، وكانت قوائم المرشحين للانتخابات النيابية يُتَّفَقُ عليها فيها، وقد حقّقت نجاحات باهرة في الحياة العامة، والعلمية خاصة، فأثارت نجاحاتها حسد الحاسدين، وتآمر العلمانيين، ومن يسير في ركابهم من أدعياء التدين والدين، فاتّهموها باستغلال الدين من أجل مصالح سياسية ومالية، واتّهموا مؤسسها بما ليس فيه ولا في تلاميذه ومريديه، وأظهروا أشياء وأبطنوا أشياء، وكان الله لهم بالمرصاد، ففضح ما بيّتوا وتآمروا، وبرأ الرجل الصالح، والعالم الربّاني

الشيخ علي الذي كان ينفق من حُرّ ماله، وينأى بنفسه عن المناصب والأضواء، فقد كان أزهد الناس بها إلى أن وافاه الأجل عام ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م، وكذلك استمرّت جمعيته تسير على خطاه، حرباً على الفساد والمفسدين، وحرباً على البدع والخرافات والمبتدعين، وتصدّياً لمدارس التبشير والتنصير التي وفدت مع الجيش الفرنسي المحتل، ونهياً عن التعصب المذهبي.

لقد أسسها الشيخ علي، وأرسى دعائمها على أسس قويمة من الإسلام الصحيح، من أجل النهوض بالعلم الشرعي، ونشر الدين الحنيف كما جاء في الكتاب والسنة، وكان له ما أراد، بفضل الله المطّلع على نيّة الرجل الصالح، وعلى إخلاصه وتقواه وورعه.

بقي أن نعرف ونتأمل هذه الحادثة..

قلنا: إن الجمعية الغراء أُسست عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م ولم يكن لها مقر معروف، سوى ذلك الذي اتخذته مقراً في أول مدرسة أسستها، وبقي الأمر هكذا إلى أن جاءت سنة ١٣٥٣هـ فاستولت الجمعية على مدرسة جامع تنكز في شارع النصر، قلب دمشق، فصارت مقراً لها، وأسست في رحاب المسجد وبنتْ معهد العلوم الشرعية الذي تخرج فيه عدد كبير من العلماء، وثانوية السعادة.

كانت هذه المدرسة (مدرسة صف الضباط) مدرسة عسكرية يشغلها الفرنسيون المحتلون، فتحيّنت الجمعية فرصة غياب الطلاب (ضباط الصف) في رحلة خارج المدينة، وأوعزت إلى طلابها أن يحتلوها، ووضعت لهم خطة محكمة يجري تنفيذها بعد صلاة العشاء، فجمع الطلاب حوائجهم وكتبهم، واقتحموا المدرسة، واحتلّوها، ووضعوا المسؤولين من الفرنسيين المحتلين تحت الأمر الواقع. فتأملوا..

المجاهد:

أكثر الذين أرّخوا للكفاح الدامي، والثورات المتلاحقة لتحرير سورية من

الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٦) أغفلوا دور علماء الدين والمشايخ وطلاب العلم الشرعي في تلك الثورات، والحقيقة أن الدور الأكبر كان للعلماء وتلاميذهم ومريديهم في تحميس الناس، وحضهم على الجهاد بالأنفس والأموال، والخروج على المحتلين المستعمرين ومقاومتهم في ميسلون، والغوطة، وحمص وحماة وحلب وجبل صهيون وسواها، وقد تحدثنا في هذا الكتاب عن جهاد الشيخ عز الدين القسام وتلاميذه في شمال سورية، وفي فلسطين، وتحدثنا في رواية الوادي الأحمر عن جهاد الشيخ المجاهد كامل القصاب، ولنستمع الآن إلى ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي في (رجال من التاريخ) عن دور المشايخ عامة، والشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ علي الدقر خاصة، في الثورة الشعبية ضدّ الاستعمار الفرنسي في سورية. قال:

«وأنا أحبّ أن أعرض صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين الحسني، هي رحلته في سنة ١٩٢٤ مع الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، من دمشق إلى دوما، إلى النبك، إلى حمص، إلى حماة، إلى حلب، هذه الرحلة التي طافوا فيها بلاد الشام (سورية) كلها، وكانوا كلما وصلوا إلى بلدة أو قرية، خرج أهلها على بكرة أبيهم، لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا وحمّسوا، وأثاروا العزّة الإسلامية في النفوس، وذكّروا بالمجد الغابر، وحثّوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية التي امتدّتْ سنتين، وأذهلت ببطولتها أهل الأرض.

والثورة. قد قامت في الغوطة - غوطة دمشق - قبل أن تقوم في الجبل - جبل الدروز - وقد بدأت بخروج طلبة العلم، بدافع الجهاد».

كانت تلك الجولة في المدن السورية، هي الشرارة التي أشعلت الثورة، كما جاء في تقرير رسمي لمندوب المفوّض السامي الفرنسي، نشرته

جريدة (الأحرار) في بيروت، في العدد ٦٧٨ الصادر في الثاني من شهر شعبان ١٢٥٤هـ. وقد بدأت الثورة في الغوطة عقب عودة المشايخ من حلب، فقد خطب الشيخ علي الدقر في مسجده (مسجد السنانيّة) بدمشق، وكان مما قال: «يا إخواننا! اللصّ دخل الدار، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم، ومالكم، وعرضكم».

ولما سئل الشيخ: من هو هذا اللص يا شيخنا؟

أجاب: فرنسا.

وعرف الفرنسيون المستعمرون دور الشيخ علي الدقر وتلاميذه في اندلاع الثورة، فأحرقوا مقرّ الجمعية الغراء، وجامع تنكز معاً، قبيل جلائهم عن سورية، انتقاماً وإجراماً، ولكن الجمعية أعادت بناء مقرها، مع معهد العلوم الشرعية، وثانوية السعادة التابعين لها، على طراز حديث، وجمعت في هذا المعهد سائر طلابها الشرعيين، كما عملت على إعادة بناء جامع تنكز بناء حديثاً جميلاً.

رحم الله الشيخ علي الدقر، فقد كان منارة علم، وفضل، وكرم، كما كان عالماً عاملاً بما علم، ساعياً إلى نشر العلم الشرعي الذي يورث الخشية من الله، فيبني الرجال، ويدفعهم إلى الجهاد في سائر ميادين الحياة، لينشروا نور الإسلام، وتعاليمه الخالدة، وأخلاقه الكفيلة ببناء المجتمعات على أسس سليمة، وتنفي منها الخبث والدنس اللذين دسَّهما عليها الجهلة وأصحاب الأهواء.

لقد كان الشيخ علي شيخ شيوخ الشام، وعلم أعلامها الكبار، ولئن ندر الكاتبون عنه، فلم تتجاوز شهرته بلاد الشام إلا قليلاً، إنه لفي مقام كريم في قلوب العلماء الصالحين، ونحسبه عند الله مع المجاهدين، والعلماء العاملين، وحسن أولئك رفيقاً.

المراجع:

١ - علي الطنطاوي: رجال من التاريخ.

٢ - علي الطنطاوي: ذكريات.

٣ - د. محمد حسن الحمصي: الدعاة والدعوة الإسلامية.

٤ - محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة: تاريخ علماء دمشق.

٥ - الزركلي: الأعلام.

٦ - عبد الله الطنطاوي - الوادي الأحمر (رواية).

* * *

الرئيس علي عزت بيجوفيتش
مفكراً، ومجاهداً، وسياسياً

تمهيد:

أول ما سمعنا عن الرئيس علي عزت، من بعض طلابنا في يوغسلافيا، وكان الرئيس علي معتقلاً في سجون الشيوعيين، وقال لنا أولئك الطلبة الأحباب:

- إن الدكتور علي عزت مثقف إسلامي كبير، ويصفه العلماء والمفكرون بأنه سيد قطب أوربا.

وعندما التقينا العالم المجاهد البوسنوي الشيخ علي يعقوب -رحمه الله تعالى- في استانبول عام ١٩٨٤ تحدّث عن الشيخ علي عزت بإعجاب، ودعا له، ودعا على جمال عبد الناصر الذي كان يصادق (تيتو) عدو الإسلام والمسلمين، والحاقد الأكبر على الشيخ علي عزت.

نشأته:

ولد الرئيس علي عزت عام ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م في مدينة بوسانا كروبا، شمال غربي البوسنة، في أسرة عريقة في إسلامها، وتعلّم في مدارس مدينة سراييفو التي أمضى حياته فيها، وفيها أكمل تعليمه الثانوي عام ١٩٤٣ والتحق بجامعتها، وحصل على الشهادة العليا في القانون عام ١٩٥٦ ثم نال شهادة الدكتوراه عام ١٩٦٢ وعلى شهادة عليا في الاقتصاد عام ١٩٦٤ وكان يقرأ ويتحدث ويكتب باللغات الأجنبية: الألمانية، والفرنسية، والإنكليزية، مع إلمام جيد بالعربية.

بعد تخرجه في كلية القانون، عمل مستشاراً قانونياً مدة خمس وعشرين سنة، ثم اعتزل الحياة الوظيفية، ليتفرغ للبحث والكتابة، وينخرط في العمل العام، داعياً إلى الله على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، فقد فتح عينيه على مظالم ومآس وكوارث ينزلها الكفرة من الصرب الأنذال، والكروات المتعصبين، على أهله وأبناء ملته، فنذر نفسه للدفاع عن إسلامه، والذّياد عن قومه وأبناء دينه، فأمضى حياته كلها في ميادين العمل الإسلامي والوطني، يكتب، ويحاضر، ويشارك في المؤتمرات والندوات، ويسهر مع الصغار والكبار، لتوعيتهم، وتربيتهم على الجهاد، ليكونوا أهلاً لحمل الإسلام، وأبناء بررة لوطنهم الذي استباحه الملكيون المتعصبون، ثم الشيوعيون الملاحدة الحاقدون على الإسلام والمسلمين، وقد برزت أحقادهم في المذابح التي فعلوها بُعَيْدَ استلامهم السلطة، بعد الحرب العالمية الثانية، ثم بعد استلام تيتو للحكم عندما بادر إلى نصب المشانق لعلماء المسلمين في يوغسلافيا، دون ذنب ارتكبوه سوى أنهم مسلمون متمسكون بإسلامهم.

شخصيته:

لم يكن الدكتور علي عزت رئيساً عادياً كسائر رؤساء الجمهوريات الذين تسلموا هذا المنصب في العالم الإسلامي، بل كان: سياسياً داهية، ومناضلاً عنيداً، ومفكراً عميقاً، وذا نظرة إسلامية بعيدة جعلته يتجاوز حدود البلقان، إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي، ليحمل هموم المسلمين حيث كانوا، ويعمل مع العاملين لنهوض المسلمين، بعد تخليصهم من أوضار التخلف الذي أطمع الغرب والشرق بهم.

كان الرئيس علي عزت صلباً في قلب الأحداث، لا يرضى إلا أن يكون مع أبناء شعبه، يعاني معه ما يعاني، ولهذا رفض مغادرة سراييفو، وبقي تحت الحصار الدامي، وعندما أراد الخروج للبحث عن دعم لقضية بلاده، قام بمغامرة جريئة، ونزل في نفق طويل أسفل المطار الذي يسيطر الصرب

على النقاط الاستراتيجية حوله.

وبعد أن اضطر إلى الموافقة على اتفاق (دايتون) استقال من رئاسة الجمهورية، ومن رئاسة الحزب الذي كان شكّله: (حزب العمل الديمقراطي)، بعد أن أدّى واجبه كما لم يؤدّه أحد من الرؤساء والقادة في هذا الزمن، ليعيش مواطناً عادياً بين شعبه، وفي منزله المتواضع، وبين كتبه، محامياً عن شعبه الذي يستحق التضحية من أجله.

كتبه:

الرئيس علي عزت مفكر عميق، يغوص في الأعماق، ويأبى أن يعوم فوق السطوح، ومثقف أخذ نفسه وأحاطها بألوان الثقافة العصرية، كما ثقف العلوم الشرعية، وقرأ الكتب الفكرية الإسلامية المعاصرة، وجمع بين أصناف تلك العلوم التي حصلها من مصادرها الأمينة الموثوقة، غربية وإسلامية، فكان لنا منه مفكر عميق، ودارس واع للتيارات الفكرية المعاصرة، وثقفٌ لقفٌ قرأ فوعى، وكتب فأوعى، ولكنه لم يتفرغ للكتابة، لأن هموم الأمة الإسلامية عامة، وهموم مسلمي البلقان خاصة، والمحن والابتلاءات التي مرّوا بها، والمآسي والكوارث التي نزلت بهم. كان كل هذا يشغل الحيّز الكبير من حياته، وحركته، وتفكيره، فقد كان يكافح على عدة محاور، ولو تفرغ للقراءة والكتابة، لكان لنا منه مؤلف كبير، ولزوّدنا بثقافة ثرّة، ولأغنى المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة، ولكن الخير فيما يختاره الله، ولقد سدّ الرجل ثغرات في المسيرة السياسية والكفاحية لمسلمي البوسنة والهرسك، ما كان غيره ليقوى على سدّها، والله أعلم.

ومع ذلك، ألّف الرجل عدّة كتب، وكتب العديد من الأبحاث، وقدّم الكثير من المحاضرات، في ميادين فكرية، وسياسية، ودعوية.

ومن هذه الكتب التي ألفها:

١- هروبي إلى الحرية. كتبه في السجن، عندما اعتقله الشيوعيون عام

١٩٤٩ بسبب نشاطه السياسي، ولانتمائه إلى جمعية الشبان المسلمين، وحكموا عليه بالسجن مدة خمس سنوات.

٢- البيان الإسلامي. وهو مجموعة مقالات كان نشرها في مجلة (تاكفين) باسم مستعار. وهذه المجلة كانت تصدرها جمعية العلماء في البوسنة، وكان يقرؤها خمسون ألف مسلم، وقد جمعها ابنه الأستاذ بكر، وأصدرها في كتاب بعنوان (البيان الإسلامي) وهو شرح لأساسيات النظام الإسلامي، وقد أثار نشر هذا الكتاب ضجة كبيرة، واستاء منه الخبثاء من الصرب والكروات، ووصفوه بالمنفستو الإسلامي الذي يدعو إلى الجهاد المقدس، لإقامة دولة إسلامية في قلب أوربا، وقدّموا الأستاذ علياً مع أحد عشر من زملائه المثقفين الإسلاميين إلى المحاكم، وحُكم عليهم بالسجن أربعة عشر عاماً، بتهمة العمل ضدّ نظام الدولة وأمن شعبها. وكان هدف المحاكمة، قمع كل فكر إسلامي، والقضاء على أصحابه. كان هذا عام ١٩٨٣ وقد عدّ الشيوعيون والأوربيون هذا الكتاب وثيقة اتهام لعلي عزت وللإسلام معاً، فقد تلقفته الدوائر الغربية التي تصنع القرارات المتعلقة بمأساة البوسنة، لتصفية دولة البوسنة، وتحويل شعبها إلى لاجئين، والكتاب برئ من كل تلك الاتهامات الملفقة.

كان هدف الأستاذ علي من هذا الكتاب أن يجمع شباب المسلمين في يوغسلافيا على مفاهيم واضحة، وبسيطة، وعملية، وأن يكون -الكتاب- دليلاً مرشداً في العمل الإسلامي، وليس فيه ما يمسّ أمن الدولة، وليس فيه ذكرٌ لنظامها أو أي إشارة إليه، ولهذا كانت المحاكمة شبه سرية، وسريعة حتى لا تلفت الأنظار.

انتشر هذا الكتاب انتشاراً كبيراً في أوساط الإسلاميين، وتدارسوه سراً وناقشوه في حلقات ضيقة، وأثار لديهم الكثير من التساؤلات حول مستقبلهم، وهويتهم.

٣ - الإسلام بين الشرق والغرب. وهذا الكتاب الكبير هو أشبه بموسوعة علمية، هزّ به أركان العالم الغربي، فقد خاطب به قادة الفكر هناك، وكان فيه عالماً، وفيلسوفاً، وأديباً، وفناناً مسلماً تمثّل كلّ ما أنجزته الحضارة الغربية، ثم ارتقى بتلك العلوم عندما ربطها بهدي السماء الذي جاء به الإسلام.

وقف في هذا الكتاب أمام العالم بأسره في محنة بلاده التي خذلها الغرب المتحضر، كما خذلها الشرق، وهي تعاني مأساتها على أيدي مجرمين شياطين عرفت البشرية أمثالهم لدى محاكم التفتيش، ولدى الستالينيين، ولدى العصابات الصهيونية في فلسطين المحتلة، وهم جميعاً لا يعرفون معنى للرحمة، أو العدالة، أو الإنسانية، فهم أشدّ ضراوة من الوحوش الكاسرة.

عندما أوشك علي عزت أن ينهي كتابه هذا، اعتقله الشيوعيون وأودعوه السجن، ولم يتمكن من نشره -آنذاك- في لغته الأصلية (الصربو-كرواتية) واستطاع صديقه حسن قرشي أن يهرّب الكتاب إلى كندا سنة ١٩٨٣ واستكمل الاستشهادات وعزاها إلى مراجعها، ثم ترجمه إلى اللغة الإنكليزية، ونشره في أمريكا سنة ١٩٨٤ ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٩ وهذه الطبعة هي التي ترجمت إلى اللغة العربية.

إنه «كتاب ثري بأفكاره، متميز بمنهجه، أخّاذ بأسلوبه، وقوة منطقه، وثقافة صاحبه العميقة الواسعة، فهو متمكن من الثقافتين: الإسلامية والغربية معاً، وهو مسلم حتى النخاع، وأوربي بالمولد والنشأة والتعليم، استوعب الفكر الغربي، ولكنه لم يغرق فيه» وأدرك مواطن الضعف والتناقض والقصور فيه أيضاً، وأطلعنا على حقائق لم تلفت انتباهنا من قبل، وقد اتسق منهجه التحليلي في تقصي الحقائق، مع هدفه الذي عبّر عنه بقوله:

«لكي نفهم العالم فهماً صحيحاً، لا بدّ أن نعرف المصادر الحقيقية للأفكار التي تحكم هذا العالم، وأن نعرف معانيها».

ألا ما أصدق هذه الشهادة للمفكر الأوربي المحايد (وود وورث كارلسن)

بهذا الكتاب ومؤلفه:

«إن تحليله للأوضاع الإنسانية مذهل، وقدرته التحليلية الكاسحة تعطي شعوراً متعاظماً بجمال الإسلام وعالميته».

٤- عوائق النهضة الإسلامية.

٥- الأقليات الإسلامية في الدول الشيوعية.

جوائزه:

الرئيس المفكر الداعية علي عزت فوق الجوائز، ولم يكن يتطلع إليها، ولا يسعى لنوالها، بل كانت هي التي تأتيه طوعاً، فقد عرفه البوسنيون، والعرب، والمسلمون، والمثقفون، والسياسيون من سائر الأجناس، وكان عارفو فضله ومقامه في ميادين السياسة، والفكر، والدعوة، هم الذين يرشحونه، وهم الذين يمنحونه الجائزة تلو الجائزة، ومن هذه الجوائز:

١- جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٩٣م.

٢- جائزة (مفكر العام) من مؤسسة علي وعثمان حافظ عام ١٩٩٦

٣- جائزة مولانا جلال الدين الرومي الدولية لخدمة الإسلام في تركيا.

٤- جائزة الدفاع عن الديموقراطية الدولية، من المركز الأمريكي للدفاع عن الديموقراطيات والحريات.

٥- جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم (رمضان ١٤٢٢هـ)، تقديراً لجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين.

كفاحه السياسي:

كان الفتى علي عزت ذا شخصية متميزة بالجدّ والاجتهاد، والتأمل في أحوال المسلمين في بلاد البلقان، وهي أحوال متردية مادياً ومعنوياً، فالحكم الشيوعي الذي جاء بعد انهيار الحكم الملكي، كان إلحادياً، شديد الوطأة على الإسلام والمسلمين، كما كان الحكم الملكي من قبل، بل كان أشدّ

وأقسى وأمرّ، وقد سمعنا من الشيخ علي يعقوب الذي أنجاه الله من مذابح الملكيين والشيوعيين وهو طفل صغير، سمعنا منه في استانبول عن بعض المذابح والأهوال التي كان يلقاها مسلمو البلقان على أيدي أولئك المجرمين من الملكيين المتعصبين لنصرانيتهم، الحاملين أحقادهم التاريخية على الإسلام والمسلمين، فهؤلاء كانوا يتفقون مع الشيوعيين على حرب المسلمين.

فكّر الفتى علي عزت فيما يمكن أن يقوم به من أجل المسلمين، فهداه تفكيره إلى إنشاء جمعية أسماها (جمعية الشبان المسلمين) ودعا إليها نفراً من زملائه الطلبة، وكان في السادسة عشرة من عمره، وكانت الجمعية أشبه بنادٍ مدرسيّ يعمل لجمع الطلبة المسلمين، وتوعيتهم، وتثقيفهم ويتحاور فيه الطلبة، ثم انتقل بالطلبة من الكلام إلى العمل، فقامت بأعمال خيرية، وثقافية، وأنشأت قسماً للفتيات المسلمات، وقدمت خدمات ومساعدات للمحتاجين إبّان الحرب الكونية الثانية، وسعت إلى بناء الشخصية المسلمة السوية الواعية التي تفهم زمانها، وتستقيم طريقة تعايشها مع الوسط الذي تتعامل معه.

وأبناء هذه الجمعية وعلى رأسهم علي عزت، كانوا متأثرين بالأفكار الإخوانية التي نقلها إليهم الطلاب البوسنيون الذين يدرسون في الأزهر، ويحتكون بطلبة الإخوان هناك. وقد عرفوا منهم أن الإسلام ليس هذه العبادات التي يؤديها المسلمون وحسب، بل هو: دين ودولة، عقيدة وشريعة، مصحف وسيف.

وبعد حوارات طويلة، انتهى أبناء الجمعية إلى أن الإسلام أيديولوجية يجب أن تكون واقعاً في الحياة، وليست محصورة في حدود الفرد وعلاقته بربه، من خلال العبادات، كما يفهم المسيحيون الأوربيون دينهم، ويريدون تعميم فهمهم هذا على سائر الأديان، وليس الإسلام كذلك، فهو دين

العقيدة، والعبادة، ودين المعاملات التي تشمل سائر المجالات الحياتية.

قرأ علي عزت ما وصل إليه من كتب الإخوان، وتأثر بأفكارهم، وتجاربهم، وأُعجب بتاريخهم الجهادي، وبعملهم التنظيمي، والدعوي، وبكفاحهم السياسي، كما اطلع على تجارب الحركات الإسلامية الأخرى في الهند، وباكستان، وأندونيسيا، وقرأ بعض كتب المودودي والندوي، ورئيس وزراء أندونيسيا الأسبق الدكتور محمد ناصر، وتفاعل معها، وهو ما يزال طالباً يدرس القانون في جامعة سراييفو، وكان يتحرك في أوساط الطلبة البوشناق في الجامعة، ويحاورهم، ويقنعهم بما اقتنع به من تلك الأفكار التي ألهمته الكثير، ودلّته على الطريق اللاحب الذي يجب أن يسير فيه، من أجل النهوض بشعبه البوشناق، وبسائر مسلمي البلقان، لتخليصهم من أتون الشيوعية الملحدة التي تريد أن تطمس هويتهم، وتقضي على دينهم الإسلامي الحنيف، وتجعلهم قطيعاً يعيش على هامش الحياة، كما تسير سائر القطعان الأخرى التي رزحت تحت وطأة الحكم الشيوعي الدموي.

في مواجهة النازيين:

اجتاح هتلر بجيشه النازي يوغسلافيا واحتلها في نيسان (أبريل) ١٩٤١ وسارع بعض أبناء البلقان المتأثرين بالفكر النازي إلى تأسيس حزب (الأشتاشا) النازي، وحاول الشبان النازيون التأثير على الطلاب المسلمين، فتصدّى لهم الطالب علي عزت وزملاؤه في جمعية الشبان المسلمين وأفهموا الطلاب المسلمين أن الفكر النازي معادٍ للإسلام، وأن الحركة النازية ضدّ المسلمين، ويحرم على المسلم أن ينتسب إلى الحركة النازية تحت أي ذريعة.

واستطاع علي عزت وزملاؤه في الجمعية التأثير على الطلبة، فاستاء النازيون الألمان من الجمعية، وحاربوها، ولم يسمحوا لها بالترخيص والعمل الحر.

ضدّ الشيوعيين:

وعندما تحررت يوغسلافيا، ورحلت عنها الجيوش الألمانية، واتخذت الشيوعية مذهباً وديناً أواخر عام ١٩٤٥ تصدّى الطالب الشاب علي عزت للشيوعية، كما كان يتصدّى للنازية، فاعتقله الشيوعيون مراراً، وهو طالب في الجامعة.

كان الشيوعيون أقسى على المسلمين من النازيين والملكيين، فقد أغلقوا المساجد، ومدارس المسلمين وحوّلوها إلى ملاهٍ ومتاحف وبارات وحانات ومراقص، ومنعوا اقتناء المصاحف، وفعلوا الأفاعيل بعلماء المسلمين وبالمتدينين، قتلاً، وسجناً، وتعذيباً، ومطاردة..

لم يفتّ هذا في عزيمة الشاب، بل زاده صلابة وتصميماً على الكفاح، والعمل بأساليب شتى، فاعتقله الشيوعيون أكثر من مرة فما زاده الاعتقال والتعذيب إلا إيماناً بصحة الطريق الذي يسير فيه، وتمسكاً به.

وكان عهد (تيتو) صديق عبد الناصر الأثير، من أشدّ العهود قسوة على المحامي علي عزت، حتى هلاكه سنة ١٩٨٠ فقد كان هذا الديكتاتور الدموي يكره علي عزت، وعندما زاره عبد الناصر، سأله عن علي عزت، فأجابه تيتو:

- إنه رجل خطير.. أخطر من تنظيم الإخوان المسلمين في مصر، فهو يطالب ويرى أن تتولى الحركة الإسلامية السلطة في كل بلد تكون لها الأكثرية فيه.

وقد حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات مع الأشغال الشاقة عام ١٩٤٩ وكانت تهمته، أن له علاقة بجمعية الشبان المسلمين، مع أن هذه الجمعية ما كانت تتعاطى العمل السياسي، وكانت اهتماماتها مقتصرة على تعليم العلوم الشرعية، وعلى أعمال الخير.

وفي آب/ أغسطس ١٩٨٣ حكموا عليه في محكمة سراييفو، مع أحد

عشر شاباً من زملائه، بينهم شاعرة مسلمة -حكموا عليهم بالسجن أربعة عشر عـامـاً، بتـهـمة الانـحـراف نحـو الأصـوليـة، وكـان من الواضـح أن الحـكام الشيوعيين هناك، رأوا أن فلسفة علي عزت، وما يدعو إليه، خطر عظيم على فكرتهم الماركسية الموغلة في الهمجية والتوحش.

الكفاح الدامي:

بعد تصـدّع الأنظمة الشيوعـية في أوربا الشرقـية، وفي الاتحاد السوفـياتي عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م وعدم قدرة تلك الأنظمة المنخورة الفاسدة على كبح جماح الشعوب التي بدأ تململها يظـهر على السطوح، بعد عشرات السنين من القمع والاستبداد، اضـطر الحزب الشيوعي اليوغسلافي إلى السـماح بالتعددية السياسـية، فاهتبل الدكتـور علي عزت هذه الفرصة، وبادر إلـى تأسيس حزب العمل الديمقراطي، وشارك في الانتخابات الـرئاسية، وفاز فيها، وصار رئيساً لجمهـورية البوسنة والهرسك، فـي جمادى الأولى ١٤١١هـ الموافق لـتشرين الثاني/ نوفـمبر ١٩٩٠ . وأجرى استـفتاء شعبـياً على الاستقـلال عن الاتحاد اليوغسـلافي، كما استقـلت كرواتيا وسلوفيـنيا، وصوّت الشعب المـسلم على الاستقـلال بأكثرية ٦٣٪ ولكن الـغرب الصليبي لم يـرض بهذه النتيجـة، فشنّ حملة إعلامـية ظالمة ضد مسلـمي البوسنة، الأمر الذي جعل الـصرب الهمج ينقـضون علـى البوسنـة، في حرب عـرقية ديـنية دمـوية، وكانت حـرب إبادة شاملة، وتـطوع آلاف من نصارى أوربا للقـتال في صفوف الصـرب، ووقعت الدولة البوسنـية الوليدة بين فكي كـماشة، فالصرب من جـهة، والكروات من جهة ثانـية، استطاعوا تمـزيقها، وكادوا يجـهزون على شعبـها الأعزل الآمن، بآلة الحرب اليـوغسلافية الرهيبـة التي كانت في أيدي الصرب المتـوحشين. . جرى هذا على مرأى ومسمع من الأوربيـين والأمريكان، وعلى مرأى ومسمع من الأمم المتـحدة التي كانت اعـترفت بجمهـورية البوسنة والهرسـك، بحيث غدت هذه الجمهورية عضواً في هيئة الأمم المتحدة. .

لم يتحرك المجتمع الدولي الذي سبق له أن اعترف بهذه الدولة، ولا تحركت أمريكا، وتركوا الصرب والكروات، وعصابات (الشِّتْنك) الصربية الإرهابية، ومن انضمّ إليها من نصارى أوربا، يفتكون بالمسلمين، ويرتكبون المجازر الجماعية التي لم تُكتشف كل مقابرها الجماعية بعد، ويغتصبون حوالي مئة ألف امرأة وفتاة مسلمة، وهم (يتفرجون) عليهم، والمسلمون كالأغنام في الليالي المطيرة، لا حول لهم ولا طول، وكان على شعب البوسنة والهرسك، أن يختار بين الانضمام إلى الكروات أو الصرب، الخصمين اللدودين اللذين لا يجتمعان إلا على حرب المسلمين، وكان هذا الاختيار كالاختيار بين سرطان الدم، وسرطان الدماغ -كما قيل- والرئيس الداهية علي عزت، صاحب العين البصيرة، والفكر العميق، والنظرة البعيدة، واليد القصيرة -كان يسعى ويفكر في الطريقة التي تجنّب شعبه ما يمكن من الخسائر، فكان يتحرك هنا وهناك، ويعرض مقترحاته وأفكاره، ويضطر للتراجع أمام التواطؤ الغربي الأمريكي الذي لم يتحرك إلا عندما رأوا الصمود الأسطوري لذلك الشعب المسلم الذي بدت كفّته القتالية ترجح على الصرب الأوباش.

«لقد فُرض على شعب البوسنة حرب إبادة لتقويض وجوده المادي والمعنوي تماماً، وفُرض عليه حظر التسلح حتى لا يمتلك وسيلة للدفاع الشرعي عن نفسه، ووقف الغرب يتفرج على هذه المذبحة التاريخية للمسلمين، أما الصياح الذي يرتفع هنا وهناك عن مفاوضات السلام، وحقوق الإنسان، والمساعدات الإنسانية للمسلمين، وتدخّل النظام العالمي الجديد، والوجبات التي أسقطتها الطائرات ثلاث مرات في مكان، أو مرتين، على شعب محاصر جائع، على مدى ستة عشر شهراً. كل هذا ليس إلا مظاهرات إعلامية للاستهلاك العاطفي».

من أجل إنقاذ شعبه، تقدّم الرئيس علي عزت بحلّ وسط إلى قمة رؤساء الجمهورية في شعبان ١٤١١هـ - شباط ١٩٩١ يتمثل في إقامة (فيدرالية

متناسقة) تلتئم فيها جمهوريتا الصرب والجبل الأسود، في اتحاد فيدرالي خاص بهما، وكرواتيا وسلوفينيا في اتحاد كونفدرالي خاص بهما، والبوسنة ومقدونيا في اتحاد خاص يتفقان على شكله، ثم يتمّ إيجاد إطار يوغسلافي موحّد يضمّ هذه الاتحادات الثلاثة، بشرط أن تتمتع جميع الجمهوريات داخله بالسيادة والاستقلال.

كان هذا المشروع كفيلاً بإنقاذ يوغسلافيا من التمزق والانهيار، ومن الحرب الأهلية بين الجمهوريات والأعراق، لذلك حظي هذا المشروع بدعم الجماعة الأوربية، ولكن الصرب والكروات وسلوفينيا عارضوا المشروع، وكانت المحنة الرهيبة التي لن ينساها المسلمون لأولئك الحاقدين على مدى الزمان.. لن ينسوا ثلاث مئة وخمسين ألف شهيد، وحوالي مئة ألف عرض منتهك.. لن ينسوا المنازل التي هدموها على رؤوس أصحابها، ولا المساجد التي دمّروها، ولا الجرائم الكثيرة التي لا تخطر إلا على بال الأبالسة وعتاة المجرمين، ولن يقبلوا اعتذاراً من أوربا وأمريكا، ولا من الربيبة المدللة التي زرعوها في قلب العالم العربي.. أعني الكيان الصهيوني الغارق في إجرامه.

وفاته:

لقد لقي هذا الرجل الكبير الكثير من العنت في حياته الحافلة بألوان الجهاد، وفي سائر المجالات، وابتلي في جسمه وصحته، وعلتْ سنّه، دون أن تهن له عزيمة، أو تُقلَّ له إرادة، فينصرف عمّا عاهد الله عليه، إلى أن لقي ربَّه راضياً مرضياً يوم الأحد، التاسع عشر من تشرين الأول المنصرم، عن عمر ناهز الثامنة والسبعين، بعد أن قضى أكثر من شهر في المستشفى، إثر سقوطه في منزله، وتهشّم أربعة من أضلاعه، تسببت في نزيف داخلي. وكان الرئيس، من قبل، قد تعرّض لأزمتين قلبيتين، وأجرى عملية زرع جهاز لتنظيم دقّات قلبه الذي تحمّل مالا تتحمّله القلوب، طوال ذلك العمر المبارك.

وقد أعلن راديو البوسنة وفاته، ولم يتمكن مسلمو البوسنة من إعلان الحداد الرسمي عليه، فقد اعترض على ذلك ممثل الصرب في الرئاسة الجماعية، لأن الصرب الحاقدين يعدون الرئيس علي عزت عدوّهم اللدود الذي وقف بدهاء وجرأة وذكاء في وجه أطماعهم في ابتلاع البوسنة والهرسك، من أجل إقامة إمبراطورية صربية طالما حلموا بها.

رحم الله الرئيس المجاهد المبرور الميمون النقيبة، الدكتور علي عزت بيجوفيتش رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى، جزاء ما قدّم لدينه وشعبه وأمته، وعوّض شعب البوسنة زعيماً مخلصاً صادقاً قوياً زاهداً بزهرة الدنيا ومناصبها، كالرئيس أبي بكر: علي عزت بيجوفيتش.

المراجع:

١ - الإسلام بين الشرق والغرب. تأليف الرئيس علي عزت بيجوفيتش.

٢ - رسالة الإخوان -العدد ٢٤٦ تاريخ ٢٨ من شعبان ١٤٢٤هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٣ .

٣ - رحيل علي عزت بيجوفيتش. د. نورة السعد.

٤ - علي عزت بيجوفيتش.. الرجل الدولة: أ. لطفي عبد اللطيف.

* * *

المستشار محمد المأمون الهضيبي
المرشد السادس للإخوان المسلمين

تمهيد:

قبل أن يكون المستشار مأمون مرشداً لجماعة الإخوان، كان ابن الرجل الصالح، والقائد الفذّ الصامد، المستشار حسن الهضيبي، المرشد الثاني للجماعة، الرجل الذي طبع بيته بطابع الإسلام، وربَّى أولاده على آدابه ومبادئه وأخلاقه على صورة قلّ أن تراها في بيوت الكثير من المشايخ والعلماء الذين درسوا الدين، وحفظوا أحكام الشريعة، وصاروا خطباء، ومدرسين، وأساتذة، وقضاة، ومفتين.

الرجل الذي اتصل بالجماعة، وصار الأثير عند مرشدها الذي كان يستشيره في الملمات، ويعدّه لما هو آت..

الرجل الذي آزر الجماعة في سائر مواقفها، وأمدّها بما مكّنه الله من مال وجاه، واحتسب كلّ ما قدّم عند الله، ولم يرد به علوّاً في الأرض ولا ظهوراً، فقد كان الرجل متواضعاً، يحبّ السماحة والبساطة، ويكره التكلف، وينأى عن الأضواء، ويؤثر عليها العمل في صمت، لتكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

الرجل الذي يكره المهاترات، ويحبّ الحق، ويسعى إلى إحقاقه، مهما كلّفه ذلك من مرارات الكيد، وطغيان البغاة.

الرجل الذي كان مضرب المثل في شموخه البعيد عن الكبرياء.. شموخه وصموده في وجوه الجبابرة، وتحدّيه للطغاة، غير مكترث بالاعتقالات التي

تعـرّض لـهـا ثلاث مـرات ولا بـألوان العـذاب الـذي تحـمّـله بـإباء وهـو في شيخوخته ووقاره.

الرجل القـاضي المسـلم الذي استنـفر كبـار المستـشارين من أجـل الثورة بالحكـومة التي تريد أن تسـنّ قانوناً مخـالفاً للشريـعة الغراء، وعندمـا علم أن زملاءه المسـتشارين يريدون أن يكـتفوا بمذكرة رقـيقة في نقد القـانون، انطلق وحده إلى مـقر لجنة القانـون، وسجّل في مضبـطتها الرسـمية: إن المسـتشار حسن الهضيبي يسـتنكر مشروع هذا القانون الذي فيه مخالفـة صريحة للشريعة الإسلامية الغراء.

الرجل الزاهد بهـذه الدنيا وما فيـها من زهو ومتاع، حـتى إنه أوصى أهله وإخوانه ألاّ ينـعوه إذا مات، وأن يدفن فور مـوته في مدافن الصدقـات، وبعد حـوار وجهـد جهـيد، رضـي بأن يدفن فـي مدافن الـعائـلة في قـريته: عـرب الصـوالحة، دون أية مـراسم. وهكذا نـقل جثـمانه الـطاهر ليـدفن في مسـقط رأسه، في تلك القرية التي تبعد عن القاهرة ثلاثين كيلو متراً.

ولـم يكن شأن الأم المجاهدة الصـابرة على الابتلاءات والمحن، بأقل من شأن سـيد البـيت، فـقد وقفـت إلى جانب زوجـها القـائد المـمتـحن، وربّت أولادها على الصبر، وكانت تقول لهـم:

«إن أباكم عـندما رضـي أن يكون مـرشداً للإخـوان، كان يـعلم أن سلـفه المـرشد حـسن البنـا قد قتـل في سبـيل اللـه، فاصبـروا، وكونـوا أقوياء مـثل أبيكم».

نشأته وحياته:

في هذا البيت المسلم ولد محمد المأمون في ٢٨/ ٥/ ١٩٢١ وفيه نشأ في طاعة الله، وترعرع على حبّ الإسلام، وبذل كل شيء في سبيله.

وتنتمي أسرة الهضيبي إلى عرب الصوالحة، مركز شبين القناطر -محافظة القليوبية.

وكان الطفل والفتى مع أمه وإخوته وأخواته يتنقلون مع أبيهم المستشار من مكان إلى مكان في الديار المصرية، حسب الوظيفة التي تحدّد له مكان عمله في القضاء المصري.

وهكذا تعلّم محمد المأمون في مدارس عدة، حتى تخرج في كلية الحقوق -جامعة فؤاد الأول.

وبعد التخرج، تمّ تعيينه وكيلاً للنيابة، ثم تدرّج في وظائف النيابة العامة، ثم عيّن قاضياً.

وتدرّج في وظائف القضاء، وكان يتنقّل في أماكن مختلفة، ثم صار رئيس محكمة غزة عام ١٩٥٦ وهكذا إلى أن صار رئيساً لمحكمة استئناف القاهرة، وهذه الوظيفة هي آخر عهده بالعمل الحكومي في مصر.

ولقد ناله، في عهد عبد الناصر، ما نال أباه وإخوانه من الابتلاء، فقد اعتقل عام ١٩٥٦ أثناء حضوره اجتماعاً إخوانياً بصحبة والده المرشد، وانصبّ عليه العذاب في السجن الحربي السيّء الذكر، وفي سجن ليمان طرة.

وقد أقيل من وظيفته في القضاء، وأحيل إلى محكمة عسكرية، وهو قاض مدني، وحكمت عليه المحكمة بالسجن مدة عام، ثم جدِّد اعتقاله لمدة خمس سنوات، وتمّ الإفراج عنه عام ١٩٧١ في موجة الإفراجات عن الجماعة في عهد الرئيس أنور السادات.

رفع محمد المأمون دعوى قضائية ضدّ الحكم عليه بالإقالة من منصبه في القضاء، وحكمت المحكمة لصالحه، وبرأته من التهمة التي نسبت إليه ,وأعيد إلى القضاء، رئيساً لمحكمة استئناف القاهرة، إلى أن أحيل إلى التقاعد.

وفي عام ١٩٨٧ خاض مع عدد من إخوانه الانتخابات البرلمانية، ونجح فيها مع ستة وثلاثين أخاً، شكلوا كتلة برلمانية إسلامية قوية، وكان المأمون المتحدث الرسمي باسم تلك الكتلة.

المرشد السادس

تدرج المستشار محمد المأمون الهضيبي في الجماعة كأيّ أخ مخلص نشيط تربى في أحضان الدعوة، وابتلي وامتحن كما ابتلي سائر الإخوان في أيام عبدالناصر، وكان يساعد أباه المرشد الثاني في تسيير بعض الأمور في السجن وخارج السجن، وكانت له يد في فكرة الرد على التكفيريين في السجن، وإصدار الكتاب الرائع: (دعاة لا قضاة).

وبعد الإفراج عنه نشط في ميادين الدعوة، حتى وصل إلى مكتب الإرشاد، ثم صار نائباً للمرشد الرابع (محمد حامد أبو النصر) والمرشد الخامس (مصطفى مشهور) رحمهما الله تعالى، وكان الشيخ مصطفى يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في تسيير أمور الجماعة، وخاصة داخل القطر المصري، لما أوتي من حنكة، وشجاعة، وثقافة، وإخلاص، جعلت منه شخصية قوية حازمة صارمة في البت بالأمور، مما حبّبه إلى قلوب بعض الإخوان، ونفّر آخرين منه، اتهموه بالحدّة والشدّة، فصار شخصية مثيرة للجدل، وقد تغلّب بشخصيته القوية هذه، وبتاريخه الناصع، وبنشاطه وحيويته، على الذين يجادلون فيه، وصار الناطق الرسمي باسم الجماعة ومكتب الإرشاد.

وبعد وفاة المرشد الخامس، اختير المستشار المأمون مرشداً سادساً للجماعة في ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٢، في ظروف دقيقة، ومخر بالجماعة عباب المصاعب، وحافظ على وحدتها، وعلى خط سيرها المعتدل، بعيداً عن أي صدام مع الحكومة المصرية وأجهزتها الأمنية التي ما فتئت تعتقل، وتطارد، وتحاكم، وتحقق، وتعذّب كرام الإخوان، والمرشد المأمون ثابت الجنان، يأبى أن يستجّر إلى معركة داخلية مع النظام وأجهزته، مهما بلغت قسوة تلك الحكومة، وظلم أجهزتها، فكسب بذلك احترام مؤيديه ومعارضيه، الذين كانوا يوجهون إليه انتقادات شديدة بسبب هذا الموقف، وكسب رضا الله، ثم راحة ضميره.

مواقفه:

١- من فلسطين:

كانت فلسطين شعباً وأرضاً ومقدسات في قلب الرجل وعقله وضميره، كسائر إخوانه في التنظيم، دافع عنها وهو قاض شاب، عندما كان رئيس محكمة غزة، واجتاح اليهود قطاع غزة، عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثي على مصر، وانخرط في صفوف المقاومة الشعبية، وحمل السلاح في وجوه الغزاة الذين تمكنوا من أسره، وإيداعه سجونهم.

واستمّر المأمون طوال حياته، يناصر القضية الفلسطينية، ويقدّم لها ما يستطيع من دعم، ويجاهد بلسانه، وقلمه، ومواقفه الشجاعة تجاهها، ويؤيد الانتفاضة الباسلة، ويرى فيها الأمل المنقذ من اليأس الذي أصاب نفوس الكثيرين، حتى تخاذلوا عن نصرتها، بل صاروا من ألدّ أعدائها.

ولنقرأ آخر كلماته في هذه الحياة الدنيا، عندما سأله محرر جريدة (آفاق عربية) قبيل وفاته بساعات، عن كلمة أخيرة يوجهها لإخوانه وأبنائه من أبناء الحركة الإسلامية، ولم يكن السائل والمسؤول يعلمان أنها ستكون آخر كلمات يقولها المرشد المأمون ناصحاً ومرشداً، فقال فيما قال:

« ..ونحن -لا شك- نحزن لحال المسلمين، ونحزن أكثر، عندما نرى بعض من يتبوؤون المناصب الرسمية المتصلة بالدعوة الإسلامية، تظهر أخطاؤهم واضحة جلية، بما قد يوهن النفس المؤمنة. ولكن.. ما دمنا نسير بنور الله، فلا محل ليأس، بل الرجاء ثم الرجاء، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فرغم العسر الشديد، ظهرت علامات الرجاء، فها هي انتفاضة إخواننا في فلسطين تدخل عامها الرابع، وهي صامدة تواجه طغيان أشدّ أعداء الله كفراً وإيذاء وبطشاً وتنكيلاً، وهي مع ذلك، تنال منهم في الصميم، تقضّ مضاجعهم، وتسهر لياليهم، وتجعلهم حيارى غير مطمئنين، وتلحق بهم أضراراً نفسية واقتصادية واجتماعية كبيرة وشديدة.

وهاهي المقاومة في العراق، ورغم حداثتها، تفتك بالعديد من جنود الاحتلال والعدوان، وتفسد عليهم ما كانوا يأملونه من طغيانهم وعدوانهم، ومن ثم، فإن البشر وارد، والبشارة لائحة، والأمل قوي «ولينصرنّ الله من ينصره» «والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

إنه الأمل الذي يقذفه الإيمان نوراً في قلوب الدعاة المخلصين، ولا يأس مع الإيمان.

٢- من الحريات:

المرشد المأمون من عشاق الحرية، ومن الداعين إليها، المندّدين بمعطليها ومغتصبيها، ولذلك، ومع أنه على رأس التيار المعتدل المهادن، إلا أنه كان يصول فارساً مغواراً، ضدّ قانون الطوارئ، وضدً الأحكام العرفية التي تكبّل الحريات، وتنتهك حقوق الإنسان، وتفتئت على الدستور والقانون، وتعطّل التنمية بسائر أشكالها السياسية والاقتصادية والإبداعية، فقد كان طوال حياته ينادي بالحرية، ويحذّر من عقابيل التسلط والطغيان، في محاضراته، وتصريحاته، ومقالاته.

٣- الحجاب:

أحزنه وأقلقه قرار الرئيس الفرنسي بمنع الحجاب، وآلمه أكثر، موقف شيخ الأزهر المؤيد لذلك القرار الظالم، وظهر هذا في حواره الأخير مع صحيفة (آفاق عربية) المنشور في عددها الذي صدر يوم الأربعاء ٨/ ١/ ٢٠٠٤ وقال فيه:

«الحجاب فريضة على المسلمة، تخضع لها بحكم مقتضيات دينها، وإلا كانت عاصية لربّها، وهذا بإجماع فقهاء وعلماء المسلمين في جميع العصور، وفي جميع البلاد.. ومن ثم، فإن موقف شيخ الأزهر في الواقع عجيب غريب، وقد رفضه كل أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، وكل المفكرين والفقهاء في مصر وخارج مصر، ونحن نعيد رفضنا لذلك المشروع الذي يعد

في فرنسا، ونقول: إنه يفتح باباً شديد الخطورة... ويجب على المسلمين في جميع أقطار العالم أن يتكاتفوا على استنكار هذا المشروع، وألا يتكاسل أحد في الدعوة على عدم إقراره، ومخاطبة السلطات الفرنسية بهذا الرأي، والتنبيه إلى خطورة هذا الأمر».

٤ - منهجه في التغيير:

قلنا: كان للمرشد المأمون دور في كتاب (دعاة لا قضاة) الذي كان نهجاً لوالده المرشد الثاني مؤلف الكتاب، الوقّاف عند حدود الله، القاضي الذي لا يؤمن بالعنف، ورد الذين طلبوا منه أن يأذن لهم بالتخلص من عبد الناصر الذي ينوي بهم الشرور التي تستأصلهم. وكذلك كان ابنه المأمون الذي كان يرى التغيير الهادئ، بالنصح، والإرشاد، والموعظة الحسنة، والتربية الإسلامية السليمة، ونبذ العنف والاقتتال بين أبناء الشعب الواحد، والأمة الواحدة، فهو من مدرسة الاعتدال والوسطية، وقد لقي الألاقي من خصومه منتقدي سياسته التصالحية الهادئة المعتدلة.

٥ - موقفه من الاستعمار

هو موقف كل مسلم غيور على دينه، ووطنه، وأمته، لا يهادن غازياً، ولا محتلاً، ولا مستعمراً، مهما كانت الدواعي والأسباب، وقد شجب وندّد بالعدوان على إخواننا في أفغانستان والشيشان، وشجب العدوان الأمريكي على العراق، وأيّد المجاهدين الذين يقاومونه، ورأى فيهم وفي المجاهدين الآخرين في فلسطين الأمل في انتشال الأمة من الوهدات التي تردّت فيها.

وعندما زلزلت الأرض زلزالها المدمّر في مدينة (بام) في إيران، طلب من المسلمين أن يأخذوا العبرة مما حصل، فقد حصد الزلزال عشرات الآلاف من الأرواح في لحظات، وكأنه رسالة من الله العليم الخبير، إلى سائر المسلمين، ألا يستكثروا التضحيات في سبيل قضايا الأمة، لأن أضعاف أولئك الضحايا وتلكم التضحيات، قد تذهب في لمح البصر، وفي غير قضية.

وفاته:

أجرى المرشد المأمون بعض الفحوصات الطبية في مستشفى ابن سينا بحي الدقي، وعُمل له منظار بعد شعوره بمتاعب في القولون، ثم عاد إلى منزله بحي مصر الجديدة في القاهرة، وبعد ساعات قليلة، أصيب بسكتة قلبية مفاجئة انتقل بعدها إلى رحمة الله تعالى، في ساعة مبكرة من صباح يوم الجمعة ١٦/ ١١/ ١٤٢٤هـ - ٩/ ١/ ٢٠٠٤ن عن عمر يناهز الثالثة والثمانين، أمضى منها ثلاثة عشر شهراً في منصب المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، وشيّع جثمانه الطاهر من مسجد رابعة العدوية بضاحية مدينة نصر في القاهرة عقب صلاة الجمعة، حيث صلى الآلاف عليه ممن كانوا توافدوا من كل مكان، ثم نقل الجثمان في موكب مهيب إلى مسقط رأس العائلة في عرب الصوالحة، ودفن في مدافن العائلة إلى جانب أبيه، رحمهما الله رحمة واسعة.

وبرغم الكثافة الأمنية، ومنع الآلاف المؤلفة من الوصول إلى مسجد رابعة، والمشاركة في التشييع، فقد نقلت وكالات الأنباء أن عدد المشيعين جاوز مئة ألف مشيّع.

وأقيم للمرشد المأمون عزاء بعد صلاة المغرب يوم السبت ١٠/ ١/ ٢٠٠٤ بمسجد رابعة العدوية، حضره عدد كبير من المسؤولين السابقين والحاليين.

كلمة أخيرة:

لقد كان المرشد محمد المأمون الهضيبي، رحمه الله رحمة واسعة، داعية كبيراً، وقانونياً ضليعاً، ترك تراثاً قضائياً ضخماً ومتميزاً، نرجو من أبنائه المبادرة إلى جمعه وطبعه، وكان فقيهاً سياسياً، رُزق عمق الفهم، وحُسن التقدير للمواقف والظروف، والتعامل معها بحكمة وبصيرة، فقد كان راجح العقل، حسن التدبير والموازنة الشرعية في النظر إلى واقع الأحداث، ومجريات الأمور، مع الصلابة في المواقف، والتمسّك بالثوابت، وعدم

التفريط فيما يمسّ العقيدة أو الأصول المحكمة.

وكان رحب الصدر، كبير العقل في الأخذ بكل ما جدّ من الوسائل لتحقيق أهداف الدعوة، وطموحات الدعاة، وخدمة العروبة والإسلام، والشعب المصري.

وكان يستخدم كفاءته العلمية، وخبرته القانونية، وممارسته العملية في الشؤون القضائية، من أجل محاربة الفساد بكل صوره وأشكاله، ومعالجة المشكلات الاجتماعية، وفق المنظور الإسلامي المستقى من هدي الكتاب والسنّة.

لقد وظف كل إمكاناته في تحقيق أهداف الدعوة، برسم خططها، ووضع برامجها، وبلورة مشاريعها.

وقد وفقه الله لجمع القلوب ورصّ الصفوف، والانطلاق بالدعوة في سائر الميادين، وكان فكره خير زاد للعاملين في حقل الدعوة.

رحمه الله رحمة واسعة، وعوّض المسلمين عنه خير عوض.

* * *

محب الدين الخطيب
داعية العروبة والإسلام

تمهيد:

هذا رجل جليل، سار ذكره في آفاق العروبة والإسلام طوال القرن العشرين، وما يزال الناس يذكرونه بالخير، فقد كان علماً في رأسه نور، وفي قلبه نور، وفي لسانه نور، وفي قلمه نورٌ وشواظ من نار تحرق أعداء العروبة والإسلام في كل مكان، عرباً مستغربين، وغربيين مستشرقين.

كان من أبرز أعلام الفكر العربي الإسلامي المعاصر، حمل أعباء الدعوة الإسلامية من بدايات القرن العشرين.

نشأته:

ولد محب الدين في حي القيمرية بدمشق، عام ١٣٠٣هـ - ١٨٨٦م في أسرة دمشقية كريمة، عريقة في أصولها الإسلامية، محافظة على دينها وأخلاقها، معتزة بهما، آخذة من العلم بحظوظ وافية.

أصل أسرته من بغداد، من ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنها نزحت إلى حماة، ونزح فرع منها إلى قرية عذراء (عدرا) قرب دمشق، ثم نزح فريق منها إلى دمشق، وصارت من أكبر الأسر الدمشقية عدداً، ومن أجلّها علماً وفضلاً.

كان أبوه الشيخ أبو الفتح الخطيب من أفاضل رجالات دمشق، وكان أمين دار الكتب الظاهرية، وتولى التدريس والوعظ في الجامع الأموي، وكان زاهداً، متقشفاً، يكره معاشرة الحكام، وله (مختصر تاريخ ابن عساكر) في

خمسة أجزاء، و(مختصر تيسير الطالب) و(شرح العوامل)، وأمه السيدة آسية الجلاد بنت الوجيه الصالح محمد الجلاد -المزارع الكبير- تقية صالحة مشهورة بالفضل وعمل الخير، ومن أسرة دمشقية كريمة عريقة، وقد توفيت بريح السموم بين مكة والمدينة، بعد أن أدّت فريضة الحج، ودُفنت هناك في الفلاة ، وكان محب الدين طفلاً صغيراً ماتت وهو في حجرها.

تعلم في دمشق، ومات أبوه وهو تلميذ في مكتب عنبر، فاضطر لتركه من أجل العمل وإعالة الأسرة، غير أنه لزم دروس العلماء، ولما عاد الشيخ طاهر الجزائري إلى دمشق، لزمه الفتى محب الدين، وكان الشيخ له بمثابة الأب والمعلم والموجّه والمرشد.

وحبّب الشيخ إليه العلم، وقراءة التراث، والدعوة إلى الله، واستنهاض العرب من سباتهم وبياتهم الطويل، من أجل حمل رسالة الإسلام، وكان محبّ الدين يقول عنه: «من هذا الشيخ الحكيم عرفت عروبتي وإسلامي».

كان الشيخ طاهر يختار له بعض المخطوطات من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية وأمثاله من العلماء العاملين، ويأمره بنسخها، ليستفيد بذلك علماً ومالاً واطلاعاً على الإسلام المصفى من البدع والخرافات، وأمره أن يعود إلى مكتب عنبر ليتابع دراسته، واختار له بعض العلماء ليحضر دروسهم، كالشيخ أحمد النويلاتي الذي أقرأه شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وحفظ -بتلقينه- مقامات من كتاب (أطواق الذهب) للزمخشري، وعلّمه كيف ينطق الحروف، بإخراجها من مخارجها الصحيحة، مما أكسبه بياناً وفصاحة.

وكان محب الدين كثير القراءة في سائر علوم الشريعة، والعربية، والعلوم العصرية، وكان حّبه للعربية والعرب شديداً، وكان يرى أن الله تعالى اختص العرب بصفات ومزايا تجعلهم أصحاب رسالة، ومسؤولين عن القيام بأمر العقيدة الصحيحة السليمة.

كفاحه السياسي:

أساء بعض الأساتذة في مكتب عنبر إلى محب الدين، ورسّبوه، فانتقل إلى بيروت، وأتم فيها دراسته الثانوية، ثم أبحر إلى الآستانة (إستنبول) والتحق بكليتي الآداب والحقوق معاً، ولكنّه لم يكمل دراسته فيهما أو في إحداهما، بسبب مطاردته وملاحقته من قبل الأجهزة الأمنية، بسبب تأسيسه جمعية النهضة العربية ونشاطه في أوساط الطلبة العرب في الآستانة، مما اضطره إلى العودة إلى دمشق، ومنها سافر إلى اليمن.

وفي طريقه إلى اليمن توقف في مصر، ليلتقي شيخه الشيخ طاهراً الجزائري، وصديقه محمد كرد علي، واتصل فيها بأركان (جمعية الشورى العثمانية) الذين كانوا يطالبون بالحكم النيابي، وإعلان الدستور، ووضع حدّ للحكم الفردي، وكان منهم: الشيخ محمد رشيد رضا، ورفيق العظم، والأديب التركي عبد الله جودت، وسواهم، وفوّضوه بتأسيس فرع جديد لجمعيتهم في اليمن، والبلاد العربية، من الرجال الصالحين.

ونشط في اليمن نشاطاً عظيماً في ميادين السياسة والصحافة، والطباعة، والتعليم، والنشاط الاجتماعي، والثقافي، الأمر الذي جعل الأجهزة تراقبه، وتضايقه.

المؤثرات في شخصيته:

١ - أسرته وبيئته الدمشقية العربية الملتزمة بإسلامها وعروبتها.

٢ - الشيخ طاهر الجزائري الذي كان بمثابة الأب الروحي له.

٣ - رجال النهضة: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والعروة الوثقى التي قال عنها: «إنها تقوم بمهمات الدفاع عن حقائق الإسلام وحقوق المسلمين»، ومحمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي.

٤ - فساد الإدارة في الآستانة، وسياسة التتريك التي انتهجها الاتحاديون الطورانيون.

٥ - المستشرقون الذين أظهروا عداءهم للإسلام، وصاروا مبشّرين بالنصرانية، والاستعمار.

أسباب ثورته على الأتراك:

كانت الأسباب التي دعت محب الدين وزملاءه والعديد من أبناء الثورة العربية كثيرة، لعل من أهمها:

١ - حالة التخلف المزري الذي لحق بالأمة والدولة.. تخلف سياسي، واقتصادي، وثقافي، وتربوي.

٢ - الاستبداد والبعد عن الشورى.

٣ - الإزراء باللغة العربية، فعندما ذهب محب الدين للدراسة في الآستانة، هاله أن يرى الطلاب العرب فيها يجهلون قواعد لغتهم، وإملاءها، فضلاً عن آدابها وثقافتها، بل إنه ما يزال يذكر أن اللغة العربية تُدرَّس باللغة التركية، وكان الأحرى بدولة تدّعي الإسلام، أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية للدولة، وتعممها على سائر المواطنين، لا أن تحمل العرب على تعلم اللغة التركية، وعلى تعلم قواعد اللغة العربية باللغة التركية.. وهذه من جملة سياسات التتريك التي انتهجها يهود الدونمة وجمعياتهم الماسونية، ومنها جمعية الاتحاد والترقي.

٤ - التضييق على الحريات العامة، والحريات الشخصية.

٥ - السماح للمحافل الماسونية أن تنشط في سائر المدن والأقاليم العثمانية.

عاشق الحرية:

كان محب الدين من عشاق الحرية منذ نعومة أظفاره، فكان يقرأ ما كتبه الكواكبي والأفغاني ومحمد عبده عن الحرية، فيشتد حبه لها، وكرهه للاستبداد، ولقي في سبيل هذا العشق الألاقي منذ يفاعته، فقد (ضبط) أحد

مدرسيه في (مكتب عنبر) كتباً في درجه فيها مقالات وقصائد تتغنى بالحرية، فنقل الأمر إلى الإدارة التي حققت مع محب الدين، وخصموا له درجتين من علامات السلوك، ورسّبوه في الامتحان، وهو الطالب الذكي المتفوق على أقرانه بعقله وسعة اطلاعه.

وخشي الفتى النابه من استمرار التحامل عليه، وقرر الانتقال إلى بيروت، وانتقل معه كثير من زملائه الطلاب، مما يدل على شدة تأثيره فيهم، وتعلقهم به، ونجح في دراسته هناك نجاحاً باهراً، وكان له في بيروت نشاط أدبي وسياسي كبير خلال تلك السنة (١٣٢٣هـ).

السياسي:

وفي الحادي والعشرين من المحرم سنة ١٣٢٧هـ ترك الحديدة -في اليمن-، وتوجه إلى دمشق، من أجل تنشيط العمل في جمعية النهضة العربية في إطار الدستور العثماني، وداخل الدولة العثمانية، ولم يكن يسعى للانفصال عن دولة الخلافة، كل ما كان يريده، أن يستمتع العرب بالنظام الدستوري، وأن يعودوا إلى عروبتهم بما فيها من دين وأخلاق ولغة وفضائل، وإلى أن يعيشوا زمانهم، ويكونوا في منظومة الأمم الحية. يقول:

«إني أقرّ بكل صدق، بأني أنا وجميع من استعنت بهم، وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبابهم، لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية..»

ويقول:

«من مصلحة العرب في الدولة العثمانية، أن تعترف لهم الدولة بلغتهم في الإدارة والتعليم في البلاد التي يتكلم أهلها العربية، وألا تبلغ فيها الحماقة إلى حدّ أن يكون التعليم في بلادهم بلغة أجنبية عنهم، وإلى حدّ أن تكون لغتهم محرَّماً عليهم أن تكون لغة الإدارة والقضاء في صميم الوطن العربي».

وهذا مطلب متواضع من محب الدين وممن معه من شباب العرب، وكان

الأولى بالدولة التي قامت على أساس الإسلام، أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية للدولة، لا أن تفرض اللغة التركية على سائر الشعوب المسلمة المنضوية تحت لوائها..

وفي دمشق رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بجمعية النهضة العربية، وأجبروا القائمين عليها أن يجعلوا اسمها: جمعية النهضة السورية..

كان القائمون على شؤون الدولة من قصر النظر، والضحالة في التفكير بمصلحة الدولة، ما أعماهم عن مصالحها الحقيقية، فقد فضلوا قهر شعوب الدولة، وقتل زعمائها، على التفاهم والحوار البنّاء معهم، وكانت النتائج وخيمة على الدولة وعلى حكامها وعلى شعوبها.. كان التفكك والتمزق والعداء، بدلاً من الوحدة، والتضامن والعمل معاً للوقوف في وجه الأعاصير والنذر.

كان محب الدين حركة دائبة، ورجل سياسة وإعلام وثورة وإصلاح، شارك في العديد من الجمعيات والهيئات والأحزاب التي يراها سليمة التوجه، ومنها حزب اللامركزية العثماني، برئاسة رفيق العظم، وعضوية الشيخ محمد رشيد رضا، وكان محب الدين عضواً في مجلس الإدارة، وأميناً للسرّ.

ومنها جمعية (العربية الفتاة) ذات الدور الكبير في السياسة، وكان محب الدين ممثلاً لها في مصر، وينسق بينها وبين حزب اللامركزية.

وكانت حركته كبيرة إبان الحرب العالمية الأولى، فكان صلة الوصل بين الجمعيات والأحزاب العربية، ورجالات العرب، وطلبه الشريف حسين، وجعله مستشاره السياسي والإعلامي. وهكذا.

وتابع السيد محب الدين كفاحه السياسي بعد الحرب الكونية الأولى، ووقف بصلابة ضد الاستعمار الفرنسي، وكان مشرفاً على اللجان التي تشكلت لجمع المال من أجل المجاهدين الذين يستعدون لملاقاة الفرنسيين

الغزاة في (ميسلون) قرب دمشق، وكانت غرفة كبيرة في دار محب الدين مملوءة بالبنادق حتى سقفها، من أجل توزيعها على المجاهدين المتطوعين. ولهذه الروح الجهادية المتغلغة في أعماقه، حاربه الاتحاديون من قبل، وحكموا عليه بالإعدام، كما طارده الفرنسيون وحكموا عليه من بعد.

الجمعيات:

كان محب الدين رجل مؤسسات، ولذلك كان يبادر إلى تأسيس الجمعيات، والعمل في الأحزاب. فهو ذو عقلية منظمة، يدرس الأمور دراسة منهجية، ويخطط لغده، ثم يقدم.

وكان من توجيه أستاذه الشيخ طاهر الجزائري، أن يعمل على إيقاظ العرب من غفلتهم، وهذا ما حداه لأن يعمل في أوساط الطلبة العرب في الآستانة، ويقوم بعملية توعية لهم بلغتهم، وبأمتهم، وما يحيط بها من أخطار، وقد بادر إلى تشكيل جمعية النهضة العربية معهم.

وفي الآستانة -كما مر آنفاً- نشط محب الدين مع بعض زملائه في جلب الشبان العرب إلى هذه الجمعية، وصار يجتمع بهم في مقهى، وألقى فيهم خطبة طويلة بعنوان (واجباتنا) الأمر الذي لفت إليه أنظار السلطات المختصة، فراقبته، ودهمت بيته، ولاحقته، فاضطر إلى مغادرة الآستانة إلى دمشق، وأسس فيها فرعاً لجمعية النهضة العربية.

كما كان من الأعضاء العاملين في جمعية الشورى العثمانية.

وكان أمين سر جمعية التعارف الإسلامي التي أسسها محمد رشيد رضا.

وفي القاهرة كان صاحب فكرة تأسيس جمعية الشبان المسلمين، وأحد مؤسسيها البارزين، وأمين سرّها.

وعندما أسس الشيخ محمد رشيد رضا مدرسة الدعوة والإرشاد، اختار محب الدين لتدريس علم طبقات الأرض فيها، فقد كان محب الدين

موسوعي الثقافة، واسع النشاط، يستطيع أن يسدّ الثغرات، وأن يكون الفارس المجلّي حيث كان وانتُدب لأ عمل.

ضدّ الصهيونية:

كان محب الدين من أوائل المفكرين والأدباء العرب الذين تنبّهوا لأخطار الصهيونية، وحذروا منها، حين كشف الغطاء عن حقائقها وأسرارها، وعن محاولة اليهود في الوصول إلى فلسطين منذ عام ١٨٤٤م ومطالبتهم لمحمد علي باشا بفلسطين، وما كان بينهم وبين السلطان عبد الحميد بهذا الشأن عام ١٩٠٢

الصحفي:

نستطيع أن نزعم أن السيد محب الدين الخطيب هو رائد الصحافة العربية الإسلامية، فقد كان صحفياً بالفطرة، بدأ يكتب في الصحف وهو ما يزال تلميذاً في مكتب عنبر، وأخذ ينشر ما يكتب وما يترجم عن اللغة التركية في صحيفة (ثمرات الفنون) البيروتية.

وعندما عمل في مدينة الحديدة باليمن، أسس شركة مساهمة للصحافة والطباعة، وأصدر جريدة باسم (جريدة العرب) وأنشأ مطبعة باسم (مطبعة جزيرة العرب).

وعندما رجع إلى دمشق، شارك العاملين في جريدة القبس، بتحرير الملحق الأدبي للجريدة: (طار الخرج) بمادته الكوميدية الناقدة التي جعلت الجمهور يقبل على شراء العدد الأول منها بأضعاف ثمنه، وقبل محاولة إلقاء القبض عليه من قبل السلطات القمعية، غادر محب الدين إلى بيروت، ثم إلى إستانبول، وأفلت من أيدي الأجهزة التي تلاحقه في دمشق وبيروت، ثم غادر إستانبول قبل أن تعرف تلك الأجهزة مكان إقامته فيها.

غادرها إلى القاهرة في رجب ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م، وفي القاهرة، شارك في تحرير (جريدة المؤيد) وترجم ونشر فيها الكثير عن أعمال المبشرين

البروتستانت، نقلاً عن مجلتهم (مجلة العالم الإسلامي) الفرنسية، فضح ما كان يراد بالمسلمين من شرّ على أيديهم وعقولهم الملوّثة، وكان لنا من ذلك كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) الذي كان له دويّ في الوطن العربي، والعالم الإسلامي.

وفي الحجاز عمل مع الشريف حسين، وحرر له جريدة (القبلة).

وعندما ترك الحجاز وعاد إلى دمشق، تولّى إدارة الجريدة الرسمية (العاصمة) وتحريرها، وكتب فيها مقالات رائعة.

وعندما قرر الاستقرار في مصر، عمل في تحرير جريدة الأهرام نحواً من خمس سنين، وأنشأ المكتبة السلفية، وقد حوت خزانة كتبه نحو عشرين ألف مجلد مطبوع فيها كثير من الكتب النادرة وأنشأ المطبعة السلفية، بثمن بيته الذي باعه في دمشق، وأصدر مجلة (الزهراء) الشهرية، وهي مجلة أدبية اجتماعية ذات طابع أكاديمي (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م) ولكنها كانت تلهب المشاعر، وتوقد العواطف كدأب محب الدين في مقالاته وأبحاثه. ثم أصدر جريدة (الفتح) من (١٣٤٤ - ١٣٦٧هـ) وهي مجلة إسلامية أسبوعية، تركت لنا حصيلة ضخمة من الثقافة والفكر والتاريخ والسياسة، أنشأها لمواكبة الحركة الفكرية الإسلامية، وتسجيل أطوارها، ولسدّ الحاجة إلى حادٍ يترنم بحقائق الإسلام، مستهدفاً تثقيف النشء الإسلامي، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم.

ومجلتا الزهراء والفتح هما امتداد لمجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا، التي هي امتداد للعروة الوثقى، وكان محب الدين من كتّاب المنار المهمّين.

ثم تولّى رئاسة تحرير مجلة الأزهر، ست سنوات، وكانت افتتاحياته فيها نارية، صبّ فيها الكثير من نفسه وعقله وتوهّج عواطفه.

كتبه:

على الرغم من حياته المضطربة في الحلّ والترحال، استطاع محب الدين

كتابة عشرات المقالات والأبحاث التي لم تجمع في كتب، وتمكّن من التأليف والتحقيق والترجمة للعديد من الكتب.

فمن كتبه المطبوعة:

١ - اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب.

٢ - الأزهر: ماضيه، وحاضره، والحاجة إلى إصلاحه.

٣ - ذكرى موقعة حطين.

٤ - تقويمنا الشمسي.

٥ - مع الرعيل الأول.

٦ - الحديقة (١٤) جزءاً.

٧ - قصر الزهراء في الأندلس.

٨ - طاغور.

٩ - مقالات العلامة محب الدين الخطيب- جمعها ورتّبها وقدّم لها: محمد بن سعود الحمد.

من الكتب التي حققها وعلّق عليها:

١ - العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي: وهو من الكتب المهمة التي حقّقها وعلّق عليها تعليقات جيدة، برزت فيها مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ بصور جليّة، أراد بتقديمه للناس عكس ما يريد المتعرضون لهذه البحوث من ترديد خلافات عفا عليها الزمن، والصحابة كانوا أسمى أخلاقاً، وأصدق إخلاصاً لله، وترفعاً عن خسائس الدنيا، من أن يختلفوا للدنيا، لكن كان في عصرهم من الأيدي الخبيثة التي عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه، مثل الأيدي الخبيثة التي جاءت فيما بعد، فصوّرت الوقائع بغير صورتها.

ولمّا كان أصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا في ديننا، وهم حَمَلة

الكتاب الإلهي، والسنّة المحمدية إلى الذين حملوا عنهم أماناتهم حتى وصلت إلينا، فإن من حقّ هذه الأمانات على أمثالنا أن ندرأ عن سيرة حَفَظَتها الأولين كلَّ ما أُلصق بهم من إفك ظلماً وعدواناً، لتكون صورتهم التي تُعرض على أنظار الناس، هي الصورة النقية الصادقة التي كانوا عليها، فالخطيب لا يحقق من التراث إلا ما كان مفيداً، ويؤدي وظيفة ضمن رسالة سامية شاملة.

وكان يقول:

«إذا سمعتم أو قرأتم عن مفسدة فكرية، أو عقدية، أو عن فتنة سياسية بين المسلمين، ففتشوا عن اليهود والمجوس، فهم وراءها، وهم مثيروها، ليبلبلوا أفكار المسلمين، ويفسدوا عقائدهم، ويمزّقوا صفوفهم».

٢ - مختصر التحفة الاثني عشرية لوليّ الدين الدهلوي.

٣ - الخراج لأبي يوسف.

٤ - الميسر والقداح لابن قتيبة.

٥ - مختصر منهاج السنة للحافظ الذهبي.

٦ - تاريخ الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب.

وترجم وعلّق على الكتب التالية:

١ - مذكرات غليوم الثاني.

٢ - قصة قميص من نار، لخالدة أديب (أديبة تركية).

٣ - الدولة والجماعة. للمفكر التركي أحمد شعيب.

٤ - الغارة على العالم الإسلامي.

٥ - سرائر القرآن. عن التركية.

وفاته:

توفي -رحمه الله رحمة واسعة- في القاهرة، في ذي القعدة ١٣٨٩هـ -

٣٠/ ١٢/ ١٩٦٩م وهو يراجع بروفات المجلد ١٣ من كتاب (فتح الباري في تحقيق صحيح البخاري) الذي استمر في تصحيحه عشر سنين، وهو راقد فوق سريره في المستشفى ودُفن فيها، كدأب أكثر زعماء سورية في النصف الثاني من القرن الماضي وحتى اليوم.

المصادر والمراجع:

- ذكريات علي الطنطاوي.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري -الجزء الثاني: محمد مطيع الحافظ - نزار أباظة.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين.
- النهضة العربية في سير أعلامها المعاصرين: د. محمد رجب البيومي.
- أعلام القرن الرابع عشر الهجري: أنور الجندي.
- الأعلام. خير الدين الزركلي.
- محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية: د. محمد برج.

* * *

الشيخ محفوظ نحناح
دجل الحوار والوسطية والاعتدال

تمهيد:

التقيته أول مرة عام ١٩٨٨ في مطار فرانكفورت بألمانيا، وكان في استقبالي أنا القادم من بغداد، وهو القادم من الجزائر، صهري المهندس صلاح الدين الجعفراوي.

كنت سمعت عنه من إخواننا الذين التقوه في الحج، وجلسوا معه، واستمعوا إليه، وتباينت تقويماتهم لطروحاته التي صادمت بعض ما كانوا يقتنعون به، ويدعون إليه، ولكنه كان موضع احترامهم جميعاً.

تعارفنا في المطار، وشدّتني إليه ابتسامته العريضة التي استقبلني بها، ودعابته اللطيفة لأول وهلة، عندما نظر إليّ وإلى صهري ثم قال:

- لست أدري من منكم عمّ الآخر.. صلاح الأشيب الشعر واللحية، أم عمّه عبد الله الذي لا أجد في شعره بياضاً؟

وبعد أن سرنا خطوات، وقف مستنداً إلى الجدار، ثم جلس وهو يقول مداعباً:

الحقيقة أنني أنا العجوز بينكم.. انظروا.. لا أستطيع أن أقف على قدميّ.. الروماتيزم مغرمٌ بركبتيّ، ولا يفارقهما في حلٍّ أو ترحال.

ومنذئذ توالت لقاءاتنا في ألمانيا، وجدة، وبغداد، وعمان التي كان يكثر من زيارتها للمعالجة في المستشفى الإسلامي وغيره، وكنا نلتقي في كل زيارة، نزوره في المستشفى، ويزورنا في بيوتنا، وكان آخر لقاء قبل عام من

وفاته في المستشفى سنة ٢٠٠٢، ثم في بيته المستأجر في (مرج الحمام) من ضواحي عمان الجميلة، ثم في بيت الدكتور حسن هويدي -رحمه الله تعالى- في عمان.

ومن خلال تلك اللقاءات الطويلة منها والقصيرة، وما يتخللها من أحاديث وحوارات، ومداعبات، توضّحت لنا شخصية الشيخ محفوظ جلية لا غموض فيها، على الرغم من اتهامه بالغموض من بعض شبابنا الذين يريدوننا على مثل الشمس نشهد، أو نمسك، لأننا لا نعرف خفايا الرجل الداهية الذي يأخذك بعيداً بابتساماته ونكاته ومرحه، عن الموضوع الذي توشك أن تتبيّن حقيقته وحقيقة صاحبه الشيخ محفوظ.

وأقول لهؤلاء الأحبة:

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنّا للغيب حافظين﴾. يوسف: ١٨

ونحن قريبون منكم في بعض مآخذكم على الرجل الذي أفضى إلى ما قدّم، وحاورناه عن قرب، كما حاورتموه عن بعد، واشترك في حوارنا بعض الشيوخ وشباب أمثالكم، ولم يشارككم في حواركم إياه حتى الشيخ نفسه، ونستطيع نحن وأنتم الآن، أن نناقش أفكار الشيخ ومواقفه بهدوء، ومن دون تعصب له أو عليه، وإن كان من تعصب، فله، وليس عليه، واذكروا محاسن موتاكم، فقد كانت شخصية الشيخ وبعض مواقفه مثيرة للجدل بين الأقرباء والأبعداء على حدّ سواء، ونحن وأنتم لا نقبل الإساءة لرجل اجتهد فيما اجتهد فيه، فأصاب وأخطأ، وأمره إلى الله فيما اجتهد، وهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، ونرجو أن يثيبه في الحالين، فما نظنّه إلا حسن النيّة، نقيّ الطوية، أعمل فكره فيما آلت إليه أمور البلاد من قتل وتدمير وتخريب، وأفزعه ما يمكن أن تكون عليه من مستقبل غامض، ومن أخطار محيقة بالوطن أرضاً وشعباً وقيماً، وأراد أن يلتفّ على تلك المخاطر بأساليب ارتضاها لتلافي الانهيار الذي كان العسكر سبباً وجيهاً فيه، كعادتهم في كل

بلد تسلّموا زمامه، وقد ساءتنا بعض تلك الأساليب، وفاتحناه بها، ودافع عنها، واستمرّ فيها، ووكلناه إلى الله الذي يعلم السرّ والخفي من الأمور، وإلى نيّته التي نحسن الظن بها وبصاحبها، وليس لنا الآن سوى الابتهال إلى الله الكريم، أن يثيبه على اجتهاده، وأن يتجاوز عن أخطائه، وأن يلهم إخوانه سبيل الرشاد، فلا يتعدوا وأن يصبروا ويصابروا، ويستفيدوا من مشورة إخوانهم في الجزائر العزيزة المنكوبة بتصرفات لا يرضى الله عنها، من أي جهة كانت، ولا التاريخ ولا شعوب الأمة العربية والإسلامية.. فإنما تأكل الذئاب من ذوي الأفكار والمواقف القاصية..

حياته:

ولد الشيخ محفوظ نحناح في مدينة البليدة (الورود) التي تقع على بعد ٥٠ كم جنوب العاصمة عام ١٩٤٢ في بيئة إسلامية محافظة وفقيرة، وتعلّم اللغة العربية في المدرسة الإصلاحية العربية (مدرسة الإرشاد) التي كانت تمثل رمز المقاومة والدفاع عن شخصية الجزائر العربية الإسلامية، أمام سياسة الفرنسة، وعاش إرهاصات الثورة الجزائرية وهو فتى، وعندما نشبت الثورة التحريرية الكبرى عام ١٩٥٤ انضمّ إليها، وشارك فيها.

أكمل تعليمه الثانوي في الجزائر، والتحق بكلية الآداب - قسم اللغة العربية في الجامعة الجزائرية عام ١٩٦٦

شغل منصب مدير مركز التعريب في الجامعة المركزية في الجزائر العاصمة، وكان عضواً في رابطة الدعوة الإسلامية التي كان يقودها ابن سحنون، ورئيس جمعية الإرشاد والإصلاح الوطني فيما بين ١٩٨٩ - ١٩٩١، ثم أسس حركة المجتمع الإسلامي (حماس) عام ١٩٩١ التي اضطر إلى تغيير اسمها عام ١٩٩٧ فأطلق عليها اسم: حركة مجتمع السلم (حمس) تماشياً مع قانون الأحزاب الجزائري الذي يحظر الأحزاب الدينية.

كان رمزاً من رموز الحركة الإسلامية في الجزائر، ممثلاً لنهج الإخوان

المسلمين فيها، وكان عضواً في مكتب الإرشاد، وهو القيادة الجماعية للتنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين، كما كان عضواً في مجلس الشورى العام للتنظيم العالمي.

عارض الرئيس الجزائري الأسبق هواري بومدين في توجهاته العلمانية الاشتراكية، ومحاولته فرض النظام الاشتراكي بالقوة على المجتمع الجزائري العربي المسلم، ودعا إلى توسيع نطاق الحريات السياسية والاقتصادية، فاعتقله بومدين، وقدّمه إلى محاكمة عسكرية هي صورة عن المحاكم العسكرية في سائر الأنظمة العسكرية الانقلابية (التقدمية) في الوطن العربي الكبير، واتهمه بمحاولة قلب نظام الحكم، وهي التهمة نفسها في سائر تلك الأنظمة البائدة والحالية التي سوف تبيد قريباً بإذن الله القاهر فوق عباده، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً سنة ١٩٧٦ وتعرّض ومن معه لألوان التعذيب الوحشي، لعله يتراجع عن موقفه ضد الاشتراكية العلمانية، ولكنه أبى وازداد تشبثاً واقتناعاً بموقفه، وكانت صلابته في الحق مثار إعجاب بعض سجانيه وجلاديه، ومثار إغضاب بعضهم الآخر ونقمتهم عليه، فصبّوا عليه العذاب صبّاً.

وبعد انتهاء (التحقيق) وما رافقه من تعذيب وحكم واستقرار في قاع المعتقلات، لم يضع الشيخ محفوظ وقته وعمره سدى في عفونة الزنازين، بل بادر إلى نفسه يعالجها بالتقرّب إلى الله، والإقبال على العبادة، وتلاوة القرآن الكريم وحفظه، وتثقيف نفسه، من خلال التهام ما يقع بين يديه من الكتب، وفكّر ملياً في الفكر المطروح، وفي النظريات المطروحة على الشعب من الماركسيين والفرانكفونيين المستغربين، وزادته طروحاتهم الوافدة بعداً عنهم، وتمسكاً بدينه وعروبته، وبدأ يعمل مع من معه من السجناء والمعتقلين، يثير عقولهم، ويحرك قلوبهم، حتى اهتدى عدد منهم على يديه، وتركوا ما كانوا عليه من انحرافات سلوكية، وهذه هي المدرسة اليوسفية، صبرٌ على البلاء والأذى، ودعوةٌ إلى الله، وهداية الضالين، وإقبال على

النفس تثقيفاً وتزكية وإعداداً لهـا لقابل الأيام، ولذلك لم يحقد على ساجنيه، بل سامحهم وعـفا عنهم، وهذا ما لم نقدر عليه نحن. . أو أنـا العبد القليل، على أقل تقدير.

من عجيب أمر الله تعالى في الشيخ مـحفوظ، أنه عندما كان معتقلاً في مـدينة (الأصنـام) تعرّضـت المديـنة إلى زلزال مـدمر، تـرك الشيـخ فجـأة في العراء، وقد تـساقط كل ما حوله، وفرَّ الـسجانون ومن بقي من الـسجناء على قيد الـحياة، بينمـا ظلّ الشيخ محـفوظ ساكناً في مـكانه، ينتظر عـودة السجن والسجانين.

وبعد موت بومديـن، أطلقوا سراحه عام ١٩٨٠ بعد خمـس سنين أمضاها في سجون الظالمين.

شارك في انـتخابات الرئـاسة الجزائريـة عام ١٩٩٥ مقابـل الأمين زروال، وحصل على ثـلاثة ملايين صوت، حسـب الإعلان الرسمي عنهـا، ولكنه في الواقع تجاوز هذا الرقم بكثير، ولكن الـجنرالات الحاكمين في الجزائر زوّروا الانتخابات، وزعموا فوز منافسه الأمين زروال.

ومـمـا يـتنـاقـله الـجـزائريـون، أن الرئـيـس زروال وقف مـرة فـي وجـه الجنرالات، وزعم لهم أنه رئيس منتخب، فقالوا له: أنت تعرف جيداً من هو الرئيس المنتخب، فسكت، ثم أطاحوا به.

وفاته:

توفي بعـد ظهر يوم الخميـس ٢٠٠٣/٦/١٩ بعد مرض عضال عـانى منه قرابة سنة.

شيع أكثر مـن مئة ألف جزائري جنازته بعد صـلاة الجمعة ٢٠٠٣/٦/٢٠ إلى مثواه الأخير بمقبرة العالية، في الضاحـية الشرقية للجزائر العاصمة، حيث ووري جثمانه الـطاهر في المربع المقابل لـمربع الشهداء، حيث ترقـد جثامين

العديد من الشخصيات الجزائرية، كالأمير عبد القادر الجزائري، وهواري بومدين، وبوضياف، وقادة ثورة تشرين الثاني (نوفمبر) والشخصيات الجزائرية البارزة الأخرى التي تركت بصماتها في تاريخ الجزائر المعاصر.

وأقيمت صلاة الجنازة في مسجد الفرقان بحي رابية الطاهر بباب الزوار، بحضور آلاف المصلين الذين توافدوا على المسجد منذ الصباح من مختلف الولايات.

أقيمت له التشريفات الرئاسية بصفة استثنائية، في حضور كبار المسؤولين في الدولة، ووصفت الجنازة بأنها ثاني أهم جنازة في البلاد بعد جنازة الرئيس الأسبق هواري بومدين في نهاية عام ١٩٧٨

شارك في التشييع مدير ديوان رئاسة الجمهورية، ورئيس مجلس الأمة، ورئيس الحكومة السابق السيد أحمد أويحيى، وقادة الجيش، وسفراء الدول العربية والإسلامية الذين تقدّمهم السفير المغربي في الجزائر، وعدد من الشخصيات السياسية الجزائرية، من بينهم الأمين العام لجبهة التحرير الوطني حزب الغالبية البرلمانية، والشيخ عبد الله جاب الله، والدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، ووزير الشؤون الدينية بوعلام غلام الله، ممثلاً للرئيس بوتفليقة الذي اعتذر عن حضور التشييع في اللحظة الأخيرة، وأوفد الوزير الذي تلا على عشرات آلاف المشيعين رسالة من الرئيس، أثنى فيها بوتفليقة على الشيخ محفوظ، ومما جاء فيها:

«ما من مشكلة ألمت بالجزائر إلا وكانت للشيخ محفوظ في حلّها مساهمة، وما من قضية إلا وكان له فيها رأي، أو اتخذ منها موقفاً نابعاً من حبه لوطنه..»

عوامل تكوينه:

عاش الشيخ محفوظ حياة العصامي الذي يبني نفسه بنفسه، ولا يعتمد على سواه من الأهل، والنسب، والمال وما إلى ذلك من العوامل المساعدة

على بروز القادة والزعماء.

درس حيوات العديد من زعماء العالم الإسلامي ومجاهديه في القديم كالإمام ابن تيمية وسواه، وفي الحديث كرجالات الحركة الوطنية الجزائرية الذين كافحوا من أجل عروبة الجزائر وإسلامها ضدّ محاولات الفرنسة والتغريب، وقد عاصر بعضهم، وسمع وقرأ حيوات السابقين الذين كانوا يعبئون الجماهير بهذا الشعار الجميل:

الإسلام ديننا

العربية لغتنا

الجزائر وطننا

ومن أولئك الرجال الرواد في الحركة الجهادية ضدّ الاستعمار الفرنسي ومحاولاته اليائسة في إلحاق الجزائر بفرنسا: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني، ومالك بن نبي، ومحمد محفوظي.

وكان للقادة المشارقة تأثيراتهم الواضحة في الشيخ محفوظ، مثل المجاهد الثائر جمال الدين الأفغاني، والإمام حسن البنا، والأستاذ الشهيد سيد قطب، والشيخ محمد متولي شعراوي، والشيخ محمد الغزالي، والإمام المودودي وسواهم.

إلى جانب مطالعاته الغزيرة التي أكسبته ثقافة وحصافة، وأثرت تجاربه في حقول الدعوة والتربية والسياسة.

صفاته:

من صفاته الخَلقية التي تلفت الانتباه إليه مظهره الأنيق، فلا تكاد تراه إلا في هندام كامل؛ بذلة حديثة مكويّة، وربطة عنق محكمة جميلة ومتلائمة الألوان مع البذلة، ولحية لطيفة أعمل بها المقص تهذيباً وتشذيباً، وشعرٌ مرّ عليه المشط من قريب، فبدا مرتّباً، وقد زانه الشيب وزاده وقاراً، وحذاء

ملمّع.

يستقبلك بابتسامته العريضة التي لا تكاد تفارقه حتى في أقسى الظروف الملمّة به، كالمرض الشديد، والهموم العاتية.

إذا حدّثته عما تعانيه الدعوة والدعاة في بلدك أو ما يصيب المسلمين في العالم من مصائب، سالت دمعته حزناً وألماً.

منذ اللحظات الأولى معه، تعرف أنك أمام محاور متمرس، ولطيف، يعطيك من الوقت ما تريد حتى تنتهي من شرح فكرتك، ثم يستأذنك في الكلام، ويدلي بدلوه فيه بوضوح، وبلا لفٍّ ولا دوران، تحسّ باحترامه لمحاوره، كائناً من كان، فهو محاور ذكي، وذو عقل منظم يفرض احترامه على من أمامه.

وتحسّ أنه زاهد في الحديث عن نفسه، وفي أن يرجع الفضل إليها في أي عمل من الأعمال، فهو ليس من الذين يحبّون أن يُحْمَدوا فيما فعلوه أو لم يفعلوه. يبتعد عن الأضواء والمباهاة، ولا يجرّح خصومه وأعداءه، فضلاً عن إخوانه وأصدقائه المخالفين له في الرأي، متأنٍّ، لا يستعجل قطف الثمار في حواره ومواقفه.

هادئ في سائر أحواله هدوءاً يدل على استقرار نفسي.

وذو روح مرحة، ودعابة مهذّبة حاضرة، يلقي النكتة، ويتلقّاها في سرور، وقد يتفاعل معها فيتجاوز الابتسام إلى الضحك الوقور.

متواضع لإخوانه؛ محبّ لهم، يشاركهم في سرّائهم وضرّائهم، ومواقفه مشهودة مع إخوانه التونسيين الممتحنين.

مثقف ثقافة عالية، شرعية، وأدبية، وسياسية، واجتماعية، يظهر هذا في أحاديثه وكتاباته.

يتميز بمرانة عجيبة إلا في الثوابت التي يبدو مقاتلاً شرساً في الدفاع

عنها، ومن أهمها: انتهاك حرمات الله، وإراقة الدماء، وفيما يعتقد أنه حق ومصلحة.

شجاع مقدام في الصدع برأيه مهما بلغ تباينه مع الجمهور.

همومه هي هموم شعبه وأمته، وكان من العبّاد، محافظة على الفروض والنوافل والأوراد، ودعوة إخوانه ومن يحبّهم إلى التمسّك بها.

وكان فصيح اللسان، واضح البيان، بعيداً من الرطانة والعجمة اللتين تسمعهما من الذين رُبّوا أيام الاستعمار الفرنسي على النطق بالفرنسية التي فرضوها لغة رسمية في بلاد العرب والمسلمين في الجزائر. إذا خطب شدّ إليه الأسماع والأبصار، ولهذا كان الشباب يقبلون على المسجد الذي يخطب فيه، ليتزوّدوا منه علماً وأدباً، وفصاحة، وأخلاقاً، وديناً، وسياسة، ووسطية في ذلك كله، فقد كان بمثابة الأب الروحيّ لكثير من شباب الحركة الإسلامية وشيوخها الذين ينشدّون إلى أحاديثه وخطبه وكلماته، ويتبعون أحسنها. تدور الآيات على لسانه وقلمه، منزّلاً إياها منازلها الذكية في البرهنة والتدليل على ما يريد، بشكل مدهش.

ويستخدم المحسنات البديعية استخداماً جميلاً لطيفاً على الأسماع، فتخرج مخرج الأمثال، كقوله:

«وإن القضاء على هذه العقارب، يفرض تلاقي الأقارب».

وخاصة في عنواناته التي تذكرك بما كان الأجداد يفعلونه.

يعرض فكرته بعقلانية وتجرد عرض الفيلسوف الحكيم، بحيث يجعل خصمه يذعن له..

ويزن كلامه كأسد جريح.. قال العارفون عنه: إنه سرّ الإخلاص.

مدرسته:

تتميز مدرسة الشيخ محفوظ بالحوار، وروح التسامح والاعتدال،

والمسالمة، والتناصح، والدعوة إلى المشاركة السياسية بدل الصراع بين الحاكم والمحكوم الذي تميزت به علائق الإسلاميين بالأنظمة العلمانية الثورية في الوطن العربي الكبير، في مصر، وسورية، والعراق، وليبيا، وتونس، والجزائر. . دعا الشيخ محفوظ إلى التعاون، والتواؤم، وتجميع الطاقات المختلفة، والاتفاق ولو على الحدود الدنيا، والعمل لإيجاد قواسم أو جوامع مشتركة مبنية على الصراحة والحوار الحر البنّاء. ولذا كان يعمل مع سائر أبناء الوطن ضمن قواعد التشاور، والتنظيم، والتنسيق والائتلاف، ضمن أطر المصلحة العامة التي يغلبها على المصلحة الخاصة أو الحزبية، وهذا كان يتطلب منه البحث بعمق عن نقاط التلاقي مع محاوريه، واجتناب نقاط التنافر والتنابذ، إلا ما كان متعلقاً بالثوابت، والدماء.

وهو في محاوراته، كما في خاطراته وسلوكياته وأدبياته، بعيد عن التطرف، قريب من الاعتدال وما يتطلبه من تشارك وتمازج بين الأطياف والأشياء والأفكار.

إنه لا يؤمن بحديّة الأشياء، وإنما يؤمن بنسبيتها.

وهو لا يرى الحقّ في جهة من الجهات، والخطأ المطلق في جهة أخرى، ويعتبر الحوار مجالاً مفتوحاً حتى للشيطان، والشيطان هو أكبر ممثل للشر، وإذا كان الحوار موجوداً بين أكبر ممثل للشر، وهو الشيطان، وبين الله سبحانه وتعالى، فمن باب أولى أن تكون هنالك مساحات لهذا التعاطي النسبي مع جميع الأشياء، ولهذا قدّم عدة مبادرات لتجسير العلاقة بين السلطة وبين الإسلاميين، حسبما يمليه عليه منطق الاعتدال والتفاهم، الذي يؤمن به، ويسعى إلى أن يحله محل استخدام القوة.

كان الشيخ محفوظ أحد الدعاة إلى المشروع الإسلامي البارزين، ولهذا دخل المعارضة السياسية ضد الميثاق الوطني الذي رآه بعيداً عن الروح الحضارية الإسلامية التي يقوم عليها تاريخ المجتمع الجزائري، فاعتقل وذلك

قبل تأسيس التجمع الكبير للتيارات الإسلامية بمسجد جامعة الجزائر المركزية، وبذلك كان أحد وجوه المعارضة الإسلامية للنظام الحاكم، وكان يعتبر الحزب الذي شكله (حركة المجتمع الإسلامي) واجهة سياسية تتصدّى للواجهات السياسية الأخرى، ولا تسعى إلى الهيمنة عليها، فليس ما يمنع من وجود أقليات معارضة أخرى، غير إسلامية..

«وإذا كان الأمر يعود إلى الديمقراطية بمفهومها الغربي، فإن الأقلية يجب أن تنقاد للأكثرية، ومن هنا، فلا خشية على شعبنا من الديمقراطية، ضمن المنظور السياسي والأخلاقي والحضاري، للإسلام».

أما إذا كانت الديموقراطية قائمة على الطعن والتجريح والسباب والشتائم، فهذه تعني الانتقال إلى ديمقوقراطية تقوم على الدجل والتضليل والمناورات وتزوير الحقائق وشراء الذمم.

المشهد الحضاري والفكري لدى الشيخ محفوظ أرفع من أن يكون مجرد تسميات سياسية وحزبية إسلامية ضيّقة.. فحزب الله، بالمفهوم الإسلامي، مفهوم استراتيجي أولاً وقبل كل شيء، بمعنى أن الأمة الإسلامية حزب واحد أمام طغيان الفرد على الجماعة، وأمام طغيان الجماعة على الفرد، والأمة الإسلامية في مواجهة التيارين الطاغيين، ليست مواجهتها مواجهة قتل وعنف واغتيال وإبادة، وإنما هي مواجهة بين حضارتين، تبني الأولى قواعدها على الحق، والثانية على الباطل والروح العدوانية، والاستغلال، والآلة العسكرية.

ولأنه يعتبر الخلاف ظاهرة صحية، كان يسعى للحوار دائماً حتى وُصف بأنه رجل الحوار، وكان محبباً في حديثه وخطابه، لبقاً في حواره، لا يصل مع محاوره إلى خصومة أو قطيعة، بل يحافظ على شعرة معاوية حتى مع ألدّ خصومه، وهو بهذا يرسي دعائم مدرسة أساسها احترام حقوق الإنسان، وصناعة تقاليد في التداول على السلطة بالطرق السلمية، واحترام الحريات في ظل النظام الجمهوري.

لقد كان الشيخ محفوظ محاوراً ممتازاً، في سائر الميادين الدينية والسياسية في الجزائر كما في الوطن العربي وعدد من دول العالم.

الداعية:

الشيخ محفوظ عمل في حقل الدعوة أكثر من ثلاثين عاماً في مقابل المدّ الثوري الاشتراكي ونشر الثقافة الفرنسية، وهو من أشدّ معارضي التوجهات الماركسية والفرانكفونية، وقد مرّت حياته الدعوية بعدة مراحل:

١ - مرحلة النشأة الفكرية، وقد تأثر فيها بعدد من المفكرين الإسلاميين الثائرين على التخلف والجمود والاستبداد والاستعمار، كالأفغاني، ومحمد عبده، وابن باديس، ومالك بن نبي، وحسن البنا، وسيد قطب، والمودودي وسواهم من المفكرين.

٢ - مرحلة المشاركة في الثورة الجزائرية، وهي التي فتحت عينيه على ضرورة التغيير، وملّكَتْه إرادة التغيير.

٣ - مرحلة الاستقلال: "وكانت الجامعة محل صياغة شخصيته القيادية، المستفيدة من تجارب الحركة الإسلامية العالمية.

٤ - مرحلة الثورات الثلاث التي قام بها النظام، واتجه وجهة شيوعية، فوقف الشيخ في وجهها ضدّ تأميم أملاك الناس ومصادرتها بغير حق، وضدّ التوجه الأيديولوجي للدولة الجزائرية، وضدّ الضغط الشيوعي على الدولة، وكان الاعتقال والتعذيب له ولمؤسسي حركته.

٥ - مرحلة التعددية السياسية، وفيها صار الشيخ رمزاً للحركة التي تحملت مسؤوليات جديدة، مثل حماية الإسلام من التطرف والغلو والتشويه وكل ما يمكن أن يتخذ منه النظام مسوّغاً للانقضاض عليه وعلى الدعاة إليه، مما اقتضاه نوعاً من فقه الأولويات، فقه درء المفاسد المقدم على جلب المصالح، وبرز لديه ما يسمى بالمشاركة والتعاون مع كل الأطراف في السلطة

والمعارضة، على أساس المبادئ الوطنية المشتركة.

وهذه المرحلة أخصب مراحل حياته الدعوية والسياسية، خرج فيها من إطار القطر، إلى الإطار الأوسع، فكانت الزيارات للعديد من الدول العربية والإفريقية والإسلامية والأجنبية، وكانت لقاءات، ومؤتمرات وحوارات أغنت تجربته، وصار يُنظر إليه كزعيم مرتقب للجزائر، وجعلت دولة كفرنسا التي رفضت إعطاءه تأشيرة دخول إلى بلادها، جعلتها تستقبله استقبالاً رسمياً، بعد الانتخابات الرئاسية التي خاضها.

وبهذا تتبين لنا: «سابقية الشيخ محفوظ في خدمة الدعوة على كل الجبهات منذ كان طالباً في كلية الآداب، فأستاذاً جامعياً لمادة التفسير، ودأبه على نشر مبادئ التجديد الإسلامي في الجزائر التي كانت يوم بدأ عمله الدعوي قد استقلت حديثاً».

وكان من أبرز رموز الشباب المغربي الذين ظهروا منذ نهاية الستينيات، وفي أعقاب حلّ أول جمعية إسلامية بعد الاستقلال (جمعية القيم) وهم الشيخ محفوظ، والشيخ عباسي مدني، والشيخ عبد الله جاب الله، والشيخ محمد بوجلخة، والشيخ محمد السعيد، ثم علي بلحاج، ومصطفى براهمي في مرحلة تالية.. نهض هؤلاء الفضلاء تحت رعاية من تبقّى من شيوخ جمعية العلماء المسلمين، مثل الشيخ ابن سحنون، والشيخ مالك بن نبي، والشيخ عبد اللطيف سلطاني، وتصدَّوا لانحراف بعض قادة جبهة التحرير عن إرثها الإسلامي، وإيغالها في نهج العلمنة والاشتراكية والاستبداد في أيام بومدين ومن تلاه.

«وقد مثّل الشيخ محفوظ جسراً مهمّاً جداً لنقل الأفكار الإصلاحية المشرقية والمناهج التربوية لجماعة الإخوان المسلمين إلى الجزائر، من خلال تدريسه في الجامعة، وخطبه في المساجد.».

كان الشيخ محفوظ داعية متميزاً، وواعظاً مؤثراً، ومربياً حصيفاً، استطاع

بخطابه المتميز بالعمق الإسلامي، والواقعية، والأدب الرفيع، أن يتغلغل في أوساط الطلبة والمثقفين والتجار والنساء، واستمر طوال ثلاثين سنة يدافع عن العقيدة الصحيحة السليمة من شوائب المتزيدين، وعن قيم الوسطية والاعتدال التي تعتمدها الجماعة الأمّ التي ينتمي إليها، ويدعو. وانطلق يبشر بها في خطبه في المساجد والمنتديات، داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، داعياً الشباب أن يكونوا، كما قال الإمام الشهيد، كالشجر، يرميها الناس بالحجر، وترميهم بالثمر.

ضد العنف:

كان العقل المفكر والمدبر لحركة إسلامية لا تؤمن بالعنف سبيلاً إلى السلطة، وتقوم على الاعتدال والانفتاح والحوار، فكان صمام أمان في الحياة السياسية الجزائرية، ولم يأبه بما كان يوجهه الآخرون إليه وإلى حركته السلمية من انتقادات بهذا الخصوص، لأنه مقتنع بموقفه.

أدان التطرف والعنف المسلح، ورفض فكرة التكفير للحكومات والمجتمعات والهيئات السياسية والدينية، ورفض الاقتتال بين أبناء البلد الواحد تحت أي ذريعة، وهذا لا يعني أيّ تنازل عن الثوابت التي آمن بها، ودعا إلى الوقوف عندها، ومناجزة التيارات العلمانية والاشتراكية الخارجة عليها.

لقد ألجأت الأزمة التي نشبت بإلغاء الجيش الانتخابات التي فازت بها جبهة الإنقاذ أو كادت، ألجأت الشيخ النحناح إلى حسابات جديدة، وتوازنات جديدة وإلى تأجيل عداوات، وتأجيل خلافات، وإلى تعاون مع الخصوم على ضرورات مشتركة، مثل ضرورة تمدين النظام السياسي، أو ضرورة التنسيق من أجل المحافظة على الحريات العامة والخاصة، أو ضرورة الإبقاء على الدولة وتقوية مؤسساتها، أو ضرورة إنهاء المرحلة الانتقالية، أو إصلاح شرعية الحكم المعطوبة. . الأمر الذي أثار عليه موجة من الانتقادات،

وكنا في جملة المنتقدين، لأن تجاربنا مع الأنظمة العسكرية قتلت كل معاني الثقة بها، ولم يكن رأي الشيخ بعيداً من رأينا، ولكنه كان مضطراً لأكل لحم الميتة، وإلى معايشة الخصوم، وهو أدرى بهم وبمواقفهم من الإسلام والدعاة إليه، وقد غدروا به عندما رشح نفسه للرئاسة أول مرة، وزوّروا، ثم حالوا دون ترشيحه للرئاسة في المرة الثانية، وبلع الشيخ السكين وصبر عليهم، لأنه يخشى على الجزائر أرضاً، وشعباً، وإسلاماً وعروبة، ويعرف قوة المتربصين بها في الداخل والخارج، ويعي طبيعة المؤامرات التي تحاك ضدّه، وضدّ حركته، وضدّ سائر المخلصين على أرض الجزائر، ولهذه الأسباب كان يحني هامته الشامخة للعاصفة العاتية التي تريد استئصال من يقف في وجهها من الجذور.. وكان يعي اللعبة الدولية الماكرة في الكيد للإسلاميين في كل مكان، من طنجة حتى جاكارتا، ومن جبهة الإنقاذ في الجزائر، حتى أنور إبراهيم في ماليزيا، مروراً بأربكان في تركيا، وسواهم وسواهم، فما كان منه إلا أن يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بين براثن من لا يتقي الله في أرض ولا شعب ولا دين ولا عرض، ولا أي قيمة قد تقف في وجه أهوائه وشهواته، وقد فهم الرسائل من هنا وهناك وهنالك، والعاقل من اتعظ بغيره، وهو قد اتعظ بما جرى لإخوانه في بلاد العروبة والإسلام.

كان الشيخ ذكياً، وكان مخلصاً تسيل دمعته، ويدمى قلبه لما جرى ويجري لأحبائه في الجزائر، وفي الأوطان الشقيقة، وما كان غبياً، ولا متآمراً ولا مساوماً على قيمة من القيم التي يؤمن بها، ويجاهد ويضحي من أجلها، خاصة وهو الخبير بالعنف وأسبابه التي تغذّيه وتقوّيه، كفرض الشخصيات الملوّثة قادة وحكاماً على الناس، يسيرون بالبلاد والعباد إلى الدمار والانهيار، ولكنه عرف أن العنف سوف يؤدي بدوره إلى دمار قد يكون أشدّ من تخريب أولئك الزعماء الملوّثين، ولهذا خاض حرباً شعواء ضد العنف ورجاله، وضدّ الفكر المتطرف الذي يرفع الإسلام شعاراً له، ويستبيح القتل والتدمير باسمه.

كان داخل الجزائر وخارجها يقارع الجماعات العنفية، وتصوراتها الفكرية

والسياسية المباينة للتصورات الإسلامية الصحيحة، المغايرة لمصلحة الدعوة والمصلحة الوطنية، ووقف بصلابة في وجه الحملات التي شنتها عليه تلك الجماعات التي هددته في حياته، واغتالت أقرب إخوانه إليه ونائبه وخليفته الشيخ بوسليماني.

وعندما زار ألمانيا في مارس ١٩٩٥ عقد عدة ندوات صحفية في مدينة بون، أكد فيها أن حركته (حماس) تنبذ العنف كوسيلة للوصول إلى السلطة، والبقاء فيها، وتلتزم فكرة التداول على السلطة سلمياً، وضرورة الأخذ برأي الأغلبية، واحترام الأقلية.

قال عنه الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام:

«إن الشيخ محفوظ نحناح، بصفته الحزبية، يمثل حالة خاصة بين أطراف الساحة السياسية التي تفور بالحركة والغليان في الجزائر، فالرجل قطب مهم من أقطاب الحركة الإسلامية في الجزائر، لكنه بحكم أفكاره وتاريخه وتحليله لواقع بلاده وأزمتها، يدعو إلى الحوار، ويمارسه مع جميع القوى السياسية المعارضة، أياً كانت اتجاهاتها، حتى تلك التي ترفض إيديولوجية الحوار مع القوى الإسلامية. وهو بذلك شخصية متميزة، يرفض منهج الإقصاء والاستبداد، ويدينه بكل وضوح».

والحقيقة، أنه رجل سياسي متمرس، عُرف بوسطيته واعتداله بين الدعاة في الجزائر، حتى لُقّب بحكيم الإسلاميين، وعدّه الشيوعيون بمواقفه هذه، أخطر رجل في المعارضة الإسلامية، في ثباته على مواقفه، وصراحته في خطابه، وتعامله مع سائر الأطراف الفاعلة في الساحة السياسية.

السياسي:

الزلزال السياسي الذي كاد يدكّ الدولة الجزائرية دكاً، وكاد يعصف بالحكم العسكري الاستبدادي في انتفاضة الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨ جعل الشيخ النحناح يغوص في أعماق العمل السياسي، فقدساير

التيّار العنفيّ ولكن بحذر، وقام بعمل ذكي أمّن به نوعاً من الحماية والتأمين على الدعوة، عندما أسس جمعية الإصلاح والإرشاد، وجعلها في منأى عن العمل السياسي، حتى لا تُضرب إذا ما أقدم العسكر على ضربه، وبنى علاقة مع قادة الجيش أصحاب السلطة والنفوذ الحقيقيين، لطمأنتهم على أن حركة مجتمع السلم تسلك سبيل الإقناع والحوار، وتنبذ العنف بكل أشكاله، وأنه مع الدولة والنظام ضد الفوضى والعمل المسلح وأن الجيش هو الضمان لبقاء الدولة، والمدافع عن الوطن ووحدة البلاد، ثم شهدت الجزائر أسوأ مراحل تاريخها المعاصر، عندما أوقف الجيش المسار الانتخابيَّ في كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢ عندما أشارت النتائج الأولية إلى فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وحلَّ الجبهة، واعتقل قياداتها، فهرب كثير من شبابها إلى الجبال، وأعلنوا الثورة المسلحة، وبدأت حرب أهلية لم تنته فصولها حتى الآن، عندما تحركت الدبابات لسحق جماهير جبهة الإنقاذ التي كانت تسيطر على الشارع السياسي، وتسحق معها صناديق الاقتراع، وتطرد الرئيس الشاذلي من الحكم، لتعود بالبلاد إلى ما قبل انتفاضة ٥ أكتوبر ١٩٨٨

كان على معرفة دقيقة بما يجري في وطنه، وإقليمه، ووطنه العربي الكبير، وفي الواقع الدولي المحكوم بسياسة وحيد القرن، كما يطيب له أن يسمي أمريكا التي تعمل للهيمنة على العالم سياسياً، واقتصادياً، وقيماً، فانطلق يسهم بقسط وافر في تنشيط الحياة السياسية والفكرية، ولكن أجهزة الإعلام الوطني كانت تحاول التعتيم على مختلف نشاطاته، في حين تقوم بالترويج للأفكار المتطرفة التي تعجّ بها الساحة الجزائرية.

غاص في الأزمة، وعارض سياسة التعنّت والإقصاء، وانتقد من سماهم (سماسرة الدم) الذين يحاولون تبييض ماضيهم الأسود، والذين يحاولون تسلُّق جدار الأزمة المشيد بجثث الأبرياء. كان يندد بالجماعات المسلحة، ويغمز من قناة المجلس الأعلى للدولة، معتبراً إياه صيغة تجاوزتها الأحداث، ويعتبر الجيش صمام أمان من الحرب الأهلية.

كان يحـاول باستمرار تـوسيع قاعدة حـزبه مجتـمع السلم، لتكون الـبديل الحقيقي السليم الذي يكفل للبلاد السلامة، وللشعب الجزائري الاستقرار.

كان ديمـوقراطياً فـي طروحاته، ويحـاول تسخيـر الديموقـراطية للتـمكين للإسلام ضمن ثلاثيته:

المرحلية، والموضـوعية، والواقعية. وكانت طروحاته ذات بعـد مستقبلي مستفيداً من الآنيّة.. وواقعية.

كان يرى المشاركة في الحكم، وعدم الابـتعاد عنه حتى لا ينفرد الآخرون بالسلـطة والنفوذ، ومن هذا الـقبيل كانـت مشاركتـه بسبعة وزراء، وبـعدد من البرلمانيين من حركته، وبهذا كان يتعاطى مع الحدث، بحكمة وهدوء وتوازن يعبّر عن معرفته بالواقع المعيش، وحنكته في التعامل معه، واستطاع بذلك أن يقدّم الإسـلام السياسـي -كما يدعونـه- بالشكل الذي يحـميه ويحـمي ذويه، وفعلاً تمكن من إنقاذ إخوانه وحركتـه ممّا ألمّ بالإسلاميين الآخرين على أيدي العسكر، وهم ما هم.

قال الشيـخ راشد الغنوشي الذي صحب الـشيخ محفوظـاً، وعايش أفكاره وحركته الدعوية والسياسية:

«الثابت أن الجماعـة التي أسسها الشيخ على عينه وصـورته، قد ثبتت بعد ثلث قرن من الـتقلب مع الموج الجـزائري العاتي رقماً مـهمّاً، ومعطى ثقـافياً وسياسياً واجتـماعياً يمكن لك أن تتفق معه وتـختلف، ولكن لا مناص من أن تقرأ له حسـاباً، فقد وسّع قاعدته في مـستوى الشباب الطلابي، وفـي مستوى العمـل النسائي، ووسـط فئات واسـعة من الفـئة الوسطى ومـختلف قـطاعات الدولة، بما قدّم من تصوّر هادئ متسـامح يعطي مكاناً واسعاً في الإسلام لكل ما هـو إنسانـي وجميـل وحديث، مـن ديموقـراطية، وحـقوق إنـسان، وذوق جميل، ومـال، وتجارة، وترفيه حـلال، وروح دعابة، إلى حسّ عمـيق تجاه المساكين والأرامل والعوانس، كما حفـل خطابه بخصوصية نادرة في حركات

التغيير، من الدفاع عن الدولة، وضرورة المحافظة عليها، والخشية من الانفلات والفوضى».

وجعل ثوابت حركة مجتمع السلم:

الوسطية، والاعتدال، والحوار، والديموقراطية، والمشاركة، ونبذ العنف، والمحافظة على الدولة، والوحدة الوطنية، والدفاع عن الثوابت الوطنية، ومواجهة علمنة المنظومة التربوية.

ومن منطلقاته وثوابته التي نالت رضا الحياديين والمخلصين والعقلاء: أن الإسلام جامع أساسي لسائر أبناء الجزائر، عرباً وبربراً، وأن الإسلام، والعروبة، والأمازيغية ثوابت وطنية، وخطوط حمر لا يمكن تجاوزها.

وأن التواصل بين شتى شرائح الشعب الجزائري ضرورة يمليها الواقع والمصلحة الوطنية العليا، وأن الحوار والانفتاح،والتعاون مع الإسلاميين وغيرهم من اليساريين والمتفرنسين واجب تحتمه المصلحة الوطنية العليا، والشيخ محفوظ كان يصرّ على رفض فكرة الاستئصال لأي جماعة مهما كان فكرها، ويرى وجوب التعاون من أجل بناء الدولة، ويرفض الخروج عليها، ويدعو إلى إصلاح المجتمع، لا إلى تخريبه وتمزيقه تحت ذرائع مرفوضة، ويؤمن بالتدرج الطبيعي في الإصلاح من أجل التغيير، وبالعمل الإيجابي البناء.

وعندما أثارت بعض الشخصيات الجزائرية مسألة العروبة والإسلام، ونفوا أن تكون لهما صلة بالحالة الوطنية الجزائرية، واشتدّوا على الداعين إليهما، الرابطين بين الوطنية من جهة، وبين العروبة والإسلام من جهة أخرى، حتى عدَّ بعضهم العرب الفاتحين الذين عرّبوا تلك الديار وأسلموها -غزاة مستعمرين، وكما طالب دعاة القومية الفينيقية في سورية ولبنان، ودعاة القومية المصرية الفرعونية في مصر- العرب إلى العودة إلى جزيرتهم وصحاراهم، وإلى جمالهم وخيامهم، كذلك كان الشأن لدى بعض

الشخصيات المغربية، هذا الصراع المفتعل في المغرب، كما في المشرق.. تصدّى له الشيخ محفوظ، وعقد عدة ندوات ومؤتمرات، «لتجسير العلاقة بين القوميين، والإسلاميين، والوطنيين، ولتتوج فيما بعد، بمؤسسات وتنظيمات ترعى وتجسد هذه الفكرة لتحقيق مشروع متكامل بين كل الأطياف السياسية في وطننا العربي والإسلامي، بما يحقق التنمية والاستقرار».

والمثير في ظاهرة الشيخ محفوظ نحناح هو ذلك النمط من التعامل من جهة، ومن الوسائل والأساليب التي اتخذها في عملية التغيير، ومنهجية المعارضة السياسية، أو بالأحرى، منهجية الإصلاح السياسي في وطنه الجزائر، وفي مسار الحركة الإسلامية عموماً من جهة أخرى.

فالشيخ محفوظ نحناح، انطلقت حركيته من مصادر فكرية، فهو ابن المدرسة الإسلامية الأصيلة والطموحة نحو تطبيق حقيقي لنظرية (الإسلام صالح لكل زمان ومكان) وإخراجها من دائرة المجاملات، ومن دائرة النظري المثالي، إلى دائرة التطبيق الواقعي.

كان ذا نمطية متميزة في إدارة التغيير، وإدارة الإصلاح السياسي، وبهذا أصبح مثار جدل ومثار التباس عند الكثيرين من الباحثين والمفكرين والدعاة، بسبب بُعدهم عنه، أو بسبب العجز عن مواكبته، أو بسبب تنازع خفي، تدفع إليه الرغبة في بسط السيطرة على العمل الدعوي والسياسي، وما يتطلبان من جهد لتوسعة التنظيم.

وهكذا صار أحد كبار رموز الحركة الإسلامية في الجزائر، ومن أبرز القيادات الشعبية، بعد إقرار التعددية السياسية.

ولهذا كان الجيش يخشاه، والإنقاذيون يتهمونه، وهو بين هؤلاء وهؤلاء يشقّ طريقه الوسطي، وقد عقل وتوكل، فنجّاه الله من القوم الظالمين الذين كانوا يأتمرون به ليقتلوه، ويمكرون ويمكر الله له، والله خير الماكرين.

القضية الفلسطينية:

تبنّى القضية الفلسطينية، وعدّها قضيّته وقضيّة العرب والمسلمين، ويظهر هذا منذ بدايات حياته الدعوية والسياسية، وامتدّت معه وصاحبته طوال حياته، ويشهد على ذلك، صوته القوي في المؤتمرات والندوات التي كان يقيمها، أو يحضرها، تضامناً مع الشعب الفلسطيني المظلوم، وقضيته العادلة، وفي حواراته مع الشخصيات السياسية الكبيرة في البلدان التي كان يزورها، في أمريكا، وفرنسا، وإسبانيا، والسويد، وألمانيا، وبريطانيا، وإيطاليا، وفي الدول العربية والإفريقية وسواها.

يقول الشيخ محفوظ:

«إن الغرب ينتقل من ثنائية قطبية، إلى وحيد القرن، لفرض السلام الأمريكي، وبناء إسرائيل الكبرى».

ولنقرأ فهمه وتحليله لهذه القضية:

«إن أهم القضايا القديمة والحديثة التي استأثرت باهتمام العاملين في الحقل الإسلامي والملاحظين والمراقبين من كل الأجناس، ومن مختلف المعسكرات المتصارعة هي قضية فلسطين التي يعتبرها بنو الإنسان الأحرار قضية مركزية بسبب الغبن الذي سلط عليها، وبسبب الخذلان الذي أحاط بها من بعض بنيها ومن بعض بني يعرب الذين يشكلون الطوق الرسمي لجغرافية فلسطين الشاهدة على الصمود أو الخمود، وهذا الموقع الجيوسياسي والتاريخي الذي تحتله هذه القضية أصبحت به رمزاً لموانح الانتماء أو موانعه، وبقدر الالتفاف حولها والتشبث بأهدافها يكون الانتماء وبقدر السكوت أو الإعراض أو العمل على إجهاض مشروعها تكون الموانع، مما جعل الإمام عبد الحميد بن باديس يقول:

«كل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يرى هناك من أرواح تزهق وصغار تيتم ونساء ترمل وأموال تهلك وديار تخرب،

وحرمات تنتهك، كما لو كان كله واقعاً بمكة والمدينة».

ومما جعل الشيخ البشير الإبراهيمي بعده يقول:

«إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون».

لقد عمل الصهاينة من بني إسرائيل على أن تقبل الأمة بأنظمتها الهزيمة، فاستوطنوا واشتروا الذمم وشكلوا عصابات "شتيرن" واعتقلوا وقتلوا في بير سبع ودير ياسين ومرج بني عامر ومرج الزهور، واستقدموا من الخارج عن طريق التهويد، واستخدموا من في الداخل عن طريق التشريد وفعلوها في صبرا وشاتيلا، وجعلوا من سبتمبر الشهور السوداء في جبين الأمة وأبعدوا الأبرار، وقربوا الفجار واغتالوا الأخيار، وضغطوا ليسلم لهم القياد، وعملوا على إيجاد حالات نفسية مساعدة على إعطاء الدنية في الدين والوطن وقبول المشروعات الاستسلامية، وغزوا صندوق النقد الدولي، وهيأوا وسائل الإعلام المحلية والعالمية، وحولوا عبارة الكيان الصهيوني إلى مصطلح أرض إسرائيل، ونشروا السيدا والمبيدات الجرثومية والآفات الاجتماعية (واستعانوا بنا علينا) كما يقول الإبراهيمي وليأذن لي أن أقول واستعنا بأنفسنا على أنفسنا.

وطَبعوا العلاقات المالية والإعلامية وأخيراً السياسية، وصنعوا فكرة الحرب بالوكالة ليتحول الصراع من العرب -يهود إلى العرب- عرب وخلعوا قميص الإرهاب عنهم وألبسوه بعض الفرقاء من العاملين في الحقل الإسلامي (واكتسبوا من ضعفنا قوة، ومن جهلنا قوة، ومن تخاذلنا قوة، ومن أقوالنا الجوفاء قوة، وأصبحت هذه القوى كلها ظهيراً لهم علينا.. (كما يقول الإبراهيمي..)

فهل أدرك أبناء الحركة الواعية أن (وعد الصهيونية لا يعدو كونه وعداً) (وأن النصوص طرية لينة؟).

وهاهم بعد أن كانوا يبحثون لهم عن وطن قومي، يتآمر معهم الأمريكان بعد الإنجليز ليصنعوا شبه جزء من وطن غير محقق وفي غياب الإجماع الوطني والإسلامي، وتحت راية الظلم الواضح.

الشيخ محفوظ في مرايا الآخرين

قال الأستاذ حسين أحمد أمين، سفير مصر في الجزائر سابقاً في حوار صحفي مع قناة أمريكية:

«الشيخ محفوظ عالم، وسياسي إسلامي من الطراز الأول، ولا أحد يشك في صدق إسلامه، وصدق توجهاته الدينية.. ومفكر إسلامي مستنير، ولا أظن أن الكثيرين من العلمانيين يشكون في استنارته، ومراعاته لظروف العصر، وقدرته على مجابهة تحديات المستقبل مجابهة دينية ودنيوية ممكنة».

ونعاه الشيخ فيصل مولوي، أحد إخوانه الأقربين إلى قلبه وعقله، العارفين له معرفة دقيقة:

«لقد كنت مثالاً في الصدق والالتزام والعمل، تضع الإسلام في ميزانك قبل الحركة، وتعتبر مصالح الأمة قبل مصلحة الجماعة بل وترفض التعارض في هذا المجال، وتصر على التكامل، وتجعل نفسك وجماعتك في خدمة الأمة وقضاياها».

ونعاه الشيخ راشد الغنوشي وقال في ختام مقاله عنه:

«رحم الله الأخ الصديق الحبيب الشيخ محفوظ، بما جدّد، وأشاع من قيم الإسلام العلمية والتربوية والسياسية، وحسن معاملة، مما تحتاجه أمة وشعب ممزقان بالأحقاد ونزوعات التنافي، وبما حرّك من سواكن العقول، وفجّر من قضايا عملية للتفكير والتأمل».

ونعته حركة النهضة التونسية باسم الشيخ راشد الغنوشي بقولها:

«وحركة النهضة إذ تنعى لشعب تونس وأمة العروبة والإسلام هذا المناضل الكبير، تذكر بالأيادي البيضاء للفقيد في إيواء وإعانة وحماية

مناضليها الذين هاجروا إلى الجزائر، مع بداية الحملة الاستئصالية التي شنّت على حركتهم بداية التسعينيات..»

ووصفه الدكتور حسن هويدي - نائب المرشد العام للإخوان المسلمين -رحمه الله تعالى- بقوله:

«قد كان الفقيد خير رفيق في الدرب الطويل، محباً لدينه، مخلصاً لدعوته، غيوراً على بلده، باراً بإخوانه، طاف العالم الإسلامي كله يبشر بكلمة الحق والصدق، حتى ترجّل ونحن في أشدّ الحاجة إليه».

ونعته جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة، ووصفته بأنه «من أصدق رجال الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن الذين تميّزوا بالشجاعة والإقدام، وبالجهاد بالنفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة شريعته على هدى وبصيرة».

وقالت الجماعة: إنه قائد من قادتها الأبرار.

المراجع:

(١) لأستاذ محفوظ نحناح رجل الحوار-من إعداد إبراهيم بن عمر.

(٢) قوة التغيير-برنامج انتخابي لحركة مجتمع السلم (حمس).

(٣) مجلة المنار الجديد-خالد حسن.

(٤) رسالة الإخوان-العدد ٣٣٠ تاريخ ٢٠٠٣/٦/٢٧

(٥) مجلة فلسطين المسلمة-السنة ٢١-عدد تموز ٢٠٠٣ .

(٦) جريدة العالم الإسلامي- العدد ١٧٩٩ تاريخ ٣٠ حزيران ٢٠٠٣ .

(٧) ليما نبيل في جريدة الدستور الأردنية في ٢٠٠٣/٧/١٠ .

(٨) جريدة القدس العربي اللندنية في ٢٠٠٣/٦/٢١ .

(٩) جريدة الشرق الأوسط اللندنية ٢٠٠٣/٦/٢٤ .

* * *

الشيخ مصطفى صبري
شيخ الإسلام في الدولة العثمانية

تمهيد:

قوّم الخليفة أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، صوت القعقاع بألف رجل، وقوّم أمير المؤمنين عمر بعض أبطال المسلمين، كلّ بطل بألف رجل، وكان إبراهيم -عليه السلام- أمة وحده، وهكذا يتوالى الرجال العظام عبر القرون، ليؤدي كل واحد منهم دوراً لا يقوم به سواه.

وكان شيخ الإسلام مصطفى صبري، من هؤلاء الرجال، قام على أكثر من ثغرة من ثُغَر الإسلام، وحمى بيضتها، وكان من أصبر الصابرين على لأوائها ومشقاتها، منذ وعى مهمته في هذه الحياة إلى أن لقي ربَّه راضياً مرضياً إن شاء الله تعالى.

حياته:

ولد مصطفى صبري في قرية (توقاد) بالأناضول في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١٢٨٦هـ - الثاني والعشرين من حزيران عام ١٨٦٩ن في أسرة محافظة على دينها، محبة للعلم الشرعي، يرنو سيِّدها إلى ولده مصطفى، فيطالع فيه علامات النجابة، والذكاء، فيتطلع إلى أن يكون هذا الفتى عالماً كبيراً من علماء الإسلام.

تلقّى الطفل علومه الأولية في قريته الصغيرة، وحفظ القرآن الكريم في العاشرة من عمره، ولفت ذكاؤه انتباه شيوخه الذين قالوا لأبيه أحمد أفندي:

«إن ابنك هذا ذو عقل نيّر، وصاحب موهبة فذّة، فلابدّ من أن ترسله إلى

قيصرية».

ولبّى الوالد نداء معلمي ولده، وأرسله إلى مدينة (قيصرية) لمتابعة تعليمه، وهي مدينة مشهورة بعلمائها الكثر، وهناك تتلمذ على يد الشيخ الكبير محمد أمين الأوريكي المعروف بـ (داماد الحاج طرون أفندي) ودرس على يديه العلوم العربية من نحو وصرف، والعلوم الشرعية من فقه وأصول فقه، وتفسير، وحديث، وتلاوة، وخطابة، كما تعلّم المنطق، وأصول المناظرة، والوعظ.

ثم انتقل إلى الآستانة (إستانبول) لاستكمال تعليمه في جامع السلطان محمد الفاتح، وتلقّى العلوم الشرعية والعربية على أيدي الشيخين العالمين: محمد عاطف بك الإستانبولي، وأحمد عاصم أفندي، وأعجب الشيخان بهذا الشاب، بذكائه الحاد، وبجدّه ونشاطه، وبجرأته الأدبية في طرح أفكاره، وبلغ الأمر بالشيخ أحمد عاصم أفندي أن يزوجه ابنته (عُلويّة هانم) لما وجد فيه من مزايا لم يجدها مجتمعة في غيره من تلاميذه الكثر، وذلك بعد نجاحه في امتحان التخرج، وحصوله على إجازة التدريس في جامع محمد الفاتح، عام ١٣٠٧هـ- ١٨٩٦ن.

وظائفه:

١ - تمَّ تعيين الشيخ مصطفى صبري مدرّساً في جامع الفاتح، بعيد تخرجه وحصوله على الإجازة في التدريس، وكان جامع الفاتح أكبر جامعة إسلامية في الآستانة آنذاك، ومنصب التدريس فيه منصب مرموق يتطلع إليه العلماء من سائر أنحاء البلاد، وقد فاز في الامتحان، وكان الأول على ثلاثين عالماً من أصل ثلاث مئة عالم تقدّموا لهذه الوظيفة، وكان أصغر الفائزين سناً.

كان الشيخ مصطفى من أنجح الأساتذة الشيوخ في التدريس، فقد بهر تلاميذه بسعة اطلاعه، وتبحره في شتى العلوم، وبطريقته البارعة في

التدريس، فذاع صيته، وأقبل عليه الطلاب والعلماء، يحاورونه، ويسألونه، ويستفيدون من علمه وفهمه، واستكتبته الصحف والمجلات، وبرز للناس كاتباً بليغاً، ومفكراً عميقاً، ومحاوراً لامعاً، ومجادلاً لا يغلب، وقد منح الإجازة العلمية لأكثر من خمسين طالباً.

٢ - عمل إماماً في جامع الأثارية الكائن على الطرف الآخر لخليج استانبول (القرن الذهبي) عام ١٣١٤هـ -١٨٩٦ن.

٣ - صار إمام الدرس السلطاني الخاص، وهو الدرس الذي كان يحضره السلطان العثماني شخصياً في أحد جوامع إستانبول السلطانية، ويحضر معه كبار الأعوان والعلماء، ويلقي الدرس أعلم العلماء، وقد عيّنه السلطان عبد الحميد في هذا المنصب لشدّة إعجابه بعلمه، سنة ١٣١٦هـ.

٤ - في عام ١٣١٧هـ عُيّن في قصر يلدز (قصر السلطان عبد الحميد) بوظيفة مدير القلم السلطاني الخاص، ونال في هذه المرحلة عدداً من الأوسمة والميداليات.

٥ - بعد ذلك بمدة قصيرة عُيّن أميناً لمكتبة يلدز، وقد وجد الشيخ مصطفى صبري ضالته في هذه المكتبة التي طالما بحث عنها، فقد كانت غنية بالمخطوطات وكتب التراث الإسلامي، فأكبَّ عليها، وأفاد منها علماً غزيراً جعله في عيون معاصريه، بحراً لا ساحل له.

٦ - في عام ١٣٢٢هـ استقال من وظائفه، وفضّل عليها العودة إلى التدريس، وصار مدرّساً لمادة التفسير في مدرسة الوعاظ، وفي معهد العلوم الشرعية في دار الفنون، ثم انتقل بعدها إلى مدرسة المتخصصين، ليدرّس فيها صحيح الإمام مسلم.

٧ - في عام ١٣٢٣هـ عُيّن عضواً في هيئة تدقيق المؤلفات الشرعية التابعة لدائرة المشيخة الإسلامية.

٨ - عُيّن شيخاً للإسلام ومفتياً للدولة العثمانية مرتين.

٩ - عُيّن عضواً في دار الحكمة الإسلامية.

١٠ - عُيّن مدرساً لمادة الحديث الشريف في دار الحديث.

١١ - عيّنه السلطان عضواً في مجلس الأعيان العثماني.

مصطفى صبري سياسياً:

خاض الشيخ غمار المعترك السياسي في ظروف دقيقة وخطيرة كانت تمرّ فيها الدولة العثمانية، ورأى الشيخ ضرورة اقتحام هذا الميدان الحيوي الذي تباعد عنه العلماء، واقتحمه اللادينيون، كجمعية الاتحاد والترقي الماسونية التي استولت على مقاليد الأمور، وما تلا ذلك من خلع السلطان عبد الحميد الثاني، ومن هزيمة الدولة في البلقان، وفي طرابلس الغرب..

بدأ مصطفى صبري عمله السياسي بعد الإعلان عن إعادة العمل بالمشروطية الثانية (الدستور) سنة ١٣٢٦هـ، وخاض الانتخابات النيابية، ونجح في مجلس المبعوثان (البرلمان) عن دائرة سنجق توقاد، سنة ١٣٢٦هـ وشارك في أنشطة ذلك المجلس، بل كان من أنشط النواب فيه؛ في حضور الاجتماعات، والمشاركة في الندوات ودورات المجلس، ومناقشاته الصاخبة. وكان عمله السياسي هذا إلى جانب عمله في التدريس بجامع الفاتح، واحتلّ مكاناً بارزاً في حزب الائتلاف والحرية الذي أسسه مع بعض إخوانه، وصار نائب رئيس الحزب، والناطق الرسمي باسمه، ورئيس المعارضة البرلمانية. ونظراً لقدرته الفائقة في الخطابة، صار أبرز الدعاة للحزب، المروجين لأفكاره ومبادئه، وسياساته المضادة لسياسة الاتحاديين، وبذلك كسب كثيراً من الجماهير، وصار حزبه يشكل خطراً حقيقياً على حزب الاتحاديين.

كما انتخب رئيساً بالإجماع، للجمعية العلمية الإسلامية التي أصدرت مجلة (بيان الحق) وأسندت رئاسة تحريرها للشيخ مصطفى سنوات طويلة.

كانت هذه المجلة من أهم المنابر السياسية المعارضة لسياسات جمعية الاتحاد والترقي، ولأفكارها، وكان الشيخ مصطفى يصول فيها ويجول، وهو

يهاجم الاتحاديين، ويفضح سوءاتهم ومخازيهم وصلاتهم المشبوهة باليهود.

ودعا هذا الحزب إلى اللامركزية في الولايات العثمانية، فلقي ترحيباً من العرب، بسبب كرههم للاتحاديين الداعين إلى سياسة التتريك، واضطهاد الأجناس غير التركية، من عرب، وشركس، وأكراد، وأروام، وأرمن، وسواهم. فما كان من الاتحاديين إلا أن يعتقلوا ويلاحقوا أعضاءه، ففرّ بعض أعضائه المؤسسين والفاعلين إلى خارج البلاد العثمانية عام ١٩١٣، وكان من جملة الهاربين الشيخ مصطفى صبري الذي غاب عن الساحة السياسية إلى نهاية الحرب الكونية الأولى، وهزيمة الدولة، وسقوط الاتحاديين، ذهب خلالها إلى مصر، وأقام فيها مدة من الزمن، ثم ارتحل إلى أوربا، وتنقّل في عدد من دولها، وعندما دخلت الجيوش العثمانية مدينة بوخارست، أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان يقيم فيها، قبضوا عليه، وأعادوه إلى الآستانة، وظلّ معتقلاً حتى انتهت الحرب بهزيمة الاتحاديين، وفرار زعمائهم، فخرج من المعتقل، وعاد إلى نشاطه السياسي، وعُيّن عضواً في دار الحكمة (الإسلامية) وهي أكبر مجمع علمي إسلامي في الدولة العثمانية، وتضم كبار العلماء والمفكرين. وعين مدرساً للحديث الشريف في دار الحديث.

عندما أعيد تشكيل حزب الائتلاف والحرية من جديد، وبعد توليه السلطة في البلاد، عام ١٣٣٧هـ عيّن مصطفى أفندي صبري رئيساً لمجلس المبعوثان (النواب) ثم تولّى منصب شيخ الإسلام، ومفتي الدولة العثمانية، تولّى هذا المنصب مرتين، في أواخر سنوات الدولة العثمانية، في وقت عصيب جداً. وفي أثناء هذه المشيخة، تولّى الشيخ مصطفى صبري منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) بالوكالة، طوال مدّة سفر الصدر الأعظم (داماد فريد باشا) إلى فرنسا، لحضور مفاوضات مؤتمر الصلح في فرساي، قرب باريس.

وبعد عودة الصدر الأعظم من باريس، واستقالته، أعفي الشيخ مصطفى من منصبه شيخاً للإسلام، ومفتياً للدولة العثمانية، في ٢١/ ١٠/ ١٣٣٧ هـ.

ولكنهم أعادوه إلى منصبه في اليوم التالي لإعفائه، واستمر فيه حتى الخامس من المحرم سنة ١٣٣٨هـ، فأعفي منه، وعيّنه السلطان محمد وحيد الدين عضواً في مجلس الأعيان العثماني، واستمر في هذا المجلس حتى إلغاء السلطنة العثمانية.

مغادرته وطنه:

تفاقمت الأمور في الدولة العثمانية، وتلاحقت الأحداث العنيفة المنبئة بقرب زوال الدولة، فقرر الشيخ الرحيل عن الوطن مع أسرته عام ١٩٢٢ قبل استيلاء الكماليين عليها، وذهب إلى مصر، ثم غادرها إلى الحجاز ليكون في ضيافة الملك حسين، ولكنه لم يلبث أن رجع إلى مصر، حيث احتدم النقاش بينه وبين المتعصبين لمصطفى كمال، فغادرها إلى لبنان، وطبع فيه كتابه (النكير على منكري النعمة) ثم سافر إلى رومانيا، ثم اليونان، وأصدر فيها مجلته (يارين) ومعناها (الغد) مدة خمس سنوات، ثم غادر اليونان إلى مصر، بعد أن طالب الكماليون اليونان بتسليمه، واستقرّ فيها، وكانت الصحافة المصرية قد تحدّثت زمناً طويلاً عن التطور الذي طرأ على الخلافة بتجريدها من السلطة، واحتدمت المعركة حين قدم إليها، وأراد أن ينبه المصريين إلى ما يضمره الكماليون للإسلام وشريعته وأهله، وما ينطوون عليه من خبث النية وفساد الدين، وأن الخلافة التي ابتدعوها مجردة عن السلطة ليست من الإسلام في شيء، وأن فصل الدين عن الدولة ليس إلا وسيلة للتخلص من سلطانه، والتحرر من شريعته وأحكامه، وتجاوز حدوده، وظن الناس وقتذاك، أن الشيخ مدفوع في مهاجمته للكماليين ببغضه لهم، بعد أن ألجؤوه وألجؤوا الخليفة إلى الفرار، فهاجموه هجوماً عنيفاً، تجاوز في كثير من الأحيان حدود اللياقة والأدب عام، وأدب الضيافة خاصة.

ونشر الشيخ مصطفى صبري مقالاً يدافع فيه عن نفسه، بعد أن نشرت الصحف نبأ وصوله، وسوء استقبال الناس له، في عبارات مملوءة بالغمز

واللمز.

وكانت الصحف، على اختلاف ألوانها ونزعاتها، وقتذاك، تكيل للكماليين الثناء بلا حدود، ولذلك، بدأ الشيخ مقاله، مظهراً العجب من أمر الناس الذين أصبح قائل الحق بينهم لا يقوله إلا همساً، بينما يجهر الفجرة بمعصيتهم، وينادون بالفاسد المستحيل، فيجدون آذاناً صاغية، واستمرّ في صراعه مع الصحافة إلى أن توفي في القاهرة في اليوم السابع من رجب ١٣٧٣هـ الموافق للثاني عشر من آذار سنة ١٩٥٤ودُفن فيها، وكان آخر شيوخ الإسلام وفاة، وكُتب على شاهد قبره أبيات باللغة التركية، هذه ترجمتها:

أيها الزائر.. هنا المثوى لبطل عظيم مضرَّج بدمائه، استشهد من أجل ليلى الحق التي افتتن بها منذ الأزل إنه افتدى العشق الإلهي بروحه، وإن تكن الدنيا دنيئة في وفائها، فقد خاض للإسلام حومة الوغى، وبثباته فيها، بهر نصف قرن.. علمه الغزير: إلهام من الله كأنه يفيض فيه العلم اللدنّي.

إن ظلّ اسم المسلم في ديار الترك باقياً، فإن الإسلام مدين لها فيها. إنه شيخ الإسلام مصطفى صبري، قضى نحبه جذلان في سبيل رأيه. فما أخلق الهاتف لو خاطب الترك قائلاً: حدادك هذا أكبر مآتمك.

وأما الشاعر، فإنه أنشد تاريخ وفاته، وقال لوطنه:

إنه أنجب أبنائك.

مصطفى صبري مفكراً:

أيقن الشيخ مصطفى صبري أن أخطر ما تتعرض له الأمة من أخطار، وهي كثيرة جداً: خطر الغزو الثقافي الذي تبدّى في الهزيمة النفسية للمثقفين المسلمين عامة، والعرب خاصة، أمام الثقافة الغربية التي ملكت عليهم أقطار عقولهم، وأحلّوها من قلوبهم ونفوسهم محلاً ما كان ينبغي لهم أن يحلوها فيه.

ظهر له هذا في المقالات التي تُنشَر في الصحف المصرية، وما تطرحه

المطابع من دوريات وكتب، فتصدّى لها بالنقد، وألّف العديد من الكتب التي تردّ عليها «وبذلك، صار لكتبه -إلى جانب قيمتها الفكرية الإسلامية- قيمة تاريخية، إذ أصبحت سجلاً صادقاً للحياة الفكرية المعاصرة، وزاد في قيمتها من هذه الناحية، أن المؤلف قد جرى في كل كتبه، على نقل النصوص التي يعارضها كاملة، قبل أن يتولّى الردّ عليها».

وقد اعتمد الشيخ في ردوده على المنطق وهو علم يوناني أصله العرب وزادوا فيه.

كانت المهمة الأولى للشيخ، مقاومة الدعوة إلى الإلحاد، ودعوة المسلمين إلى التمسّك بدينهم، وشريعتهم، والإيمان بالكتاب كله، دون تفريق بين دقيق وجليل، ورفض كل دعوة إلى التأويل وإلى تطوير الإسلام، تحت ستار ملاءمة ظروف الحال، ومسايرة ركب الحضارة، والتطور مع الزمن.

ظهر هذا في مؤلفاته:

١ - النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة: بحث مسألة الخلافة من الناحية السياسية، وهاجم الكماليين، ونفّر العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة، منهم، وحذّر من شرورهم، ونبّه المسلمين إلى سوء نياتهم في التفريق بين الخلافة والسلطنة، وبيّن دوافع هذا التفريق، وأوضح الآثار المترتبة عليه.

وتحدّث عن فساد دين الكماليين، وعن تعصّبهم للجنس التركي، ومحاربتهم للعصبية الإسلامية، واستخفافهم بالقرآن، وبتعاليم الإسلام، وأنها غير صالحة للقرن العشرين، وقدّم نماذج من كتابات كتّابهم الداعين إلى التخلص من سلطان الدين، وإبعاده عن سياسة الدولة، اقتداء بالأوربيين، وذكر كلمة لأحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه:

«إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين، حتى الالتهابات التي في

رئاتهم، والنجاسات التي في أمعائهم».

وقدّم المؤلف أمثلة بالقوانين التي خالفوا فيها الشرع، وأن الكماليين خرجوا من عباءة الاتحاديين الملاحدة، لا فرق بينهم، فهم مثلهم في صلتهم باليهود، وتواطئهم مع الإنكليز، وردّ على الذين نصحوه بعدم مهاجمة مصطفى كمال أتاتورك، لتعلق المسلمين به، وقال لهؤلاء:

«ليست من وظيفة العلماء محاباة العامة، ومجاراة الدهماء، بل وظيفتهم إطلاع الناس على حقائق الأمور، ولابدّ من بيان عصبية الكماليين لقوميتهم التركية، وتعصبهم لطورانيتهم إلى حدّ العداوة للإسلام، ومهاجمته، باعتباره ديناً عربياً، وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية في جاهليتهم الأولى، وإحلالهم المشاعر القومية محل المشاعر الإسلامية».

وقال:

«إن الكماليين والاتحاديين حزب واحد، ولعنة الله على الاتحاديين الذين أدخلوا السياسة في الجيش، فسنّوا بهذا سنّة سيئة صارت آفة على الدولة، وصار الجيش آفة على الدولة، وقادوا الإمبراطورية إلى حربين ضيّعوا فيهما الخلافة والدولة والأمة».

وقال:

«ولن تجد ملة أو قوماً خارج بلادنا وداخلها دامت مودّة الاتحاديين والكماليين معهم إلا اليهود».

ولهذا لم يسلم جنس من عدوانهم في تركيا، لا الألبان، ولا العرب، ولا الأكراد، ولا الأرمن، ولا الشراكسة، ولا الأروام.. ما سلم من عدوانهم إلا اليهود.

٢ - وفي كتابه: (**مسألة ترجمة القرآن**) ناقش شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي في مقاله: (بحث في ترجمة القرآن وأحكامها) الذي كان فيه

صدى لما فعله الكماليون في تركيا، الذين أمروا بترجمة القرآن إلى اللغة التركية، وحملوا المسلمين على الصلاة بها، بدلاً من لغة القرآن الكريم.. ردّ على المراغي الذي جوّز الصلاة بالقرآن المترجم إلى التركية، كما ردّ على محمد فريد وجدي الذي أيّد صنيع الكماليين.. وقد نقل الشيخ مصطفى صبري نقولاً كثيرة من مقال المراغي، ومقالي وجدي في معرض الردّ عليهما، ثم ناقشهما، وبيّن فساد آرائهما من الناحية الشرعية بأدلة كثيرة قوية، ونبّه إلى ما سوف ينجم عنها من أخطار، كما ردّ على ما أباحه المراغي من جواز الاجتهاد في الفقه استناداً إلى الترجمة.

٣ - وفي كتابه: (**موقف البشر تحت سلطان القدر**): ردّ على من زعم أن تأخر المسلمين وتواكلهم وانحطاطهم وتخلفهم إنما يرجع إلى إيمانهم بعقيدة القضاء والقدر، وفنّد آراءهم ومزاعمهم بحجج قوية.

٤ - وفي كتابه: (**قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلّدة الغرب**) سدّد طعناته عبر ردود قوية ومفحمة لأصحاب الدعوات المشبوهة التي جرّت الناس إلى مستنقعات التهتك في التبرج، والابتذال على الشواطئ، والاختلاط الداعر.. وهو ردّ على اقتراح اللجنة التي تقدمت إلى مجلس النواب المصري، طالبة تعديل قانون الأحوال الشخصية، والأخذ بمبدأ تحرير المرأة، وتقييد تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، ومساواة المرأة بالرجل في الميراث، وما إلى ذلك من أمور أخذتها اللجنة والدعاة إلى التغريب، من أوربا.

٥ - وفي كتابه: (**القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون**): ردّ على الماديين الملاحدة الذين يشككون بوجود الله تعالى، وعلى الذين ينكرون الغيب، والنبوة والمعجزات، وعلى العلماء الذين يؤولون المعجزات تأويلات تساير روح العصر المادي، حتى صار إيمانهم بالعلم المادي فوق إيمانهم بكتاب الله، وسنّة رسوله.

ومن رأي الشيخ: أن أخطر ما ابتُلي به المدافعون عن الإسلام من الكتّاب

الذين تثقفوا بالثقافات الحديثة، أن المستشرقين قد نجحوا في استدراجهم إلى أن يُنْزلوا النبي الكريم منزلة العباقرة والزعماء، حتى إنهم حين يدافعون عما يوجَّه إليه من افتراءات، يدافعون عنه من هذه الزاوية، وعلى هذا الأساس، ويفعلون ذلك باسم العلم.. والواقع أن ذلك نزول بالإسلام إلى أن يصبح مذهباً فكرياً أو سياسياً أو فلسفياً ككل المذاهب والآراء، ونفيٌ للصفة الأساسية في كل رسالة سماوية، وهي أنها وحي من عند الله سبحانه وتعالى.

٦ - وأما كتابه البديع: (**موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين**) وهو آخر ما ظهر للمؤلف من كتب في حياته، وطبعه عام ١٩٥٠ في أربعة مجلدات كبيرة، فقد احتوى خلاصة آراء الشيخ في السياسة، والاجتماع، والفلسفة، والفقه، كما احتوى معاركه الفكرية مع عدد من أعلام عصره، كالمراغي، ووجدي، والعقاد، والدكتور محمد حسين هيكل الذي أسقط المعجزات النبوية في حياة النبي الكريم محمد ﷺ، وعبدالله عنان الذي كان يطعن بالعثمانية.

لقد تألم من الملاحدة المصريين، أكثر من الملاحدة الطورانيين، لأنهم عرب، والعرب مادة الإسلام، ولأن المصريين الملاحدة أعلنوا عليه الحرب، وشنّوا عليه هجوماً عنيفاً بادروه به دون مقدمات، وآذوه في نفسه وأهله، وصبر عليهم، حتى طفح الكيل، فانبرى لهم، وقال لمن يشيد بإضراب غاندي عن الطعام غاندي يجوع بكامل حريته، فتقوم قيامة المثقفين المصريين، وشيخ الإسلام -مصطفى صبري- يجوع هو وبناته فلا يشفق عليه أحد، بل يهاجمه من لجأ إلى ديارهم.. بلاد الإسلام والمسلمين. وسواهم.

ذكر المؤلف أنه ألّف هذا الكتاب، بعد ما رآه في تركيا من انصراف المتعلمين عن الدين، وما يراه في مصر من مثل ذاك الانصراف.

قال في مقدمته، مخاطباً روح أبيه:

«لو رأيتني -وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق في

مجلس النواب، وفي الصحف والمجلات، قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح، معانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب، ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين، غير محسّ يوماً بالندامة على ما ضحيت به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها- لأوليتني إعجابك ورضاك».

وكان الشيخ -في هذا الكتاب القيمّ- عنيفاً على من رأى فيهم خصوماً في الفكر والتوجّه، ولولا تلك الحدّة والشدّة، لكان كتاباً فريداً في بابه، ولكنه كان سيفقد أهم ما تميّز به قلم الشيخ الذي لقي الألاقي من أعداء الإسلام وخصومه في عمره المديد.

فقد تصدّى للمستغربين، وردّ على ما يثيرونه من شبهات حول الإسلام والداعين إليه، من مثل قولهم:

«كيف يمكن أن تكون الحكومة حرة ومستقلة إذا قيّدت نفسها بالدين؟».

ردّ عليهم بقوله:

إننا إذا اعتقدنا أن دين الإسلام نعمة للمسلمين وسعادة لهم في الدنيا والآخرة، فلا ينافي حريتَهم واستقلالهم كون حكومتهم ممنوعة من التخطي إلى ما وراء حدود الدين.

ثم بين أن المقصود بالحرية هو حرية الأمم تجاه الحكومات، لا حرية الحكومات في القيام بأمور الأمة، ولهذا تقيد الشعوبُ الحرة حكوماتها بالقوانين وتلزمها التمسك بها، وتمنعها من التزحزح عنها، أو التلاعب بها، وكما يتسنى للحكومة المستبدة التلاعب بالقوانين عن طريق تأويلها بما يناسب شهواتها، فكذلك يتسنى لها ذلك بتبديلها وتغييرها، ولا يوجد عظيم فرق بين تخطي القوانين بإهمالها، وبين تخطيها بإبدالها، وموافقة النواب على تبديل القوانين ليست دليلاً على رضا الأمة. ولهذا يحتاج في بعض البلاد إلى توثيق

القوانين الصادرة من البرلمان بعرضها على الأمة. . بمعنى أن تكون ثمة قوانين أساسية لا يتخطاها نظام القوانين. ولا يسوغ لهم تبديلها. . وتلك القوانين الأساسية، أسلمها ما كانت سماوية، لا يمكن لبشر تغييرها.

وردّ على زعم المستغربين: أن العلماء المعممين ليسوا من ذوي الاختصاص، ولا يُعتدّ بهم وبعلمهم الشرعي.

وقد رد عليهم الشيخ مصطفى صبري، ودعا العلماء إلى الاشتغال بالسياسة. وقال:

«والذين جرّدوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم، وينتقص من كرامتهم. ومرامهم حَكْرُ السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم ويخيّلون لهم بذلك، أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاؤون بدين الناس ودنياهم. . فالعلماء المعتزلون عن السياسة، كأنهم تواطؤوا مع كل الساسة، صالحيهم وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم (بأيدي السياسيين) ويكون لهم (للعلماء) منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي».

الخاتمة:

كان الشيخ يخوض ميادين متشعبة، وساحات رحيبة، من الصعوبة بمكان أن يلمّ بها المرء في مقالة مهما طالت.

ولعله أول من تنبه ونبّه إلى المخاطر التي يحملها أتاتورك لهذه الأمة، فأتاتورك ذو تاريخ مريب، ليقف منه العاقل الحذر موقف اليقظان المدرك لخطورة الرجل على الأمة ودينها وتراثها ولغتها. . فسبح الشيخ عكس التيار الذي يسبح فيها بعض علماء الدين، والشعراء، والسياسيون، وخاصة العلمانيين منهم، فقد انطلق هؤلاء جميعاً مصفقين مهللين لأتاتورك، وانطلق أمير الشعراء شوقي مخاطباً إياه (يا خالد الترك جدد خالد العرب) دون أن

يدرك ما يخبئه هذا القائد -الذي (انتصر) على جيوش الحلفاء المنتصرة- للإسلام والمسلمين وخلافتهم ودينهم ولغة قرآنهم من تآمر وكيد وأحقاد لو وزّعت على أهل الأرض لوسعتهم.. انطلق الشيخ يكشف حقيقة أتاتورك، والدور الذي سيقوم به ولكن صيحات التحذير كانت في واد غير الأودية السحيقة التي كان يهيم فيها أولئك المجهضون المحبطون الفرحون بانتصارات أتاتورك المرسومة والمتفق عليها بينه وبين دهاقنة الماسونية من يهود الدونمة الذين كانوا على صلات وثيقة متينة مع الدوائر الصليبية والصهيونية المتربصة بدولة الخلافة التي وقف قائدها الداهية، السلطان عبد الحميد مدة ثلث قرن، في وجوه أطماع أعداء الإسلام الطامعين بأرض الإسلام المقدسة: فلسطين، بقدسها، وأقصاها، ودفع عرشه وحياته ثمناً لذلك الموقف الصلب الذي أوقف المد الصهيوني اليهودي ردحاً من الزمن.

لو وجد الشيخ مصطفى صبري التلاميذ والأتباع والمؤازرة من علماء المسلمين ومفكريهم، لكان له شأن أي شأن، وربما أوقف المدّ العلماني، المخطط له في تركيا، وفي الدوائر الاستعمارية والصهيونية. ولو إلى حين، ولربما أخّر سقوط الخلافة بعض الوقت. ولكن.. كان ما كان، والشكوى إلى الله.

المصادر والمراجع:

١ - قولي في المرأة: مصطفى صبري.

٢ - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين: مصطفى صبري.

٣ - النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة: مصطفى صبري.

٤ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: د. محمد رجب البيومي.

٥ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين.

٦ - تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني: أحمد صدقي شقيرات.

٧ - الأعلام: خير الدين الزركلي.

٨ - أعلام القرن الرابع عشر - الجزء الأول: أنور الجندي.

٩ - محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية: د. أحمد الشوابكة.

* * *

الشيخ مصطفى مشهور

مولده:

ولد الأستاذ مصطفى مشهور في الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٢١، في قرية السعديين التابعة لمحافظة الشرقية بمصر، من أسرة دينية كريمة، معروفة بتدينها، وفضلها، وكرمها، وانتمائها العربي الأصيل، واعتزازها بإسلامها.

تعليمه:

دخل الكتاب وهو صغير، ليحفظ ما يمكنه حفظه من القرآن الكريم، كعادة أهل الريف في مصر، وفي سائر البلاد العربية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في القرية، وأكمل دراسته الثانوية في القاهرة، ثم التحق بكلية العلوم التابعة لجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) وتخرج فيها عام ١٩٤٢ حاملاً شهادة البكالوريوس في العلوم، وكان متفوقاً في دراسته، وبسبب تفوقه هذا نال مكافأة من الجامعة.

وبعد تخرجه في كلية العلوم، عمل بوظيفة (متنبئ جوي) في مصلحة الأرصاد الجوية.

في جماعة الإخوان المسلمين:

نشأ الشيخ مصطفى نشأة دينية في بيئة تعلي من قدر الدين والمتدينين، وصاحبه تدينه هذا إلى حيث ذهب ويذهب إلى الزقازيق، وإلى القاهرة، وسواهما، كان يرتاد المساجد يصلي فيها ويستمع إلى ما يلقى من دروس ومواعظ وبيده مصحفه، يتلو كل يوم ما يشاء الله له من آياته البينات، وذات

يوم، وفيما كان يقرأ القرآن في مسجد الحي الذي يقيم فيه، تعرف إلى شاب متدين يكبره بسنتين، وكان ذلك الشاب من الإخوان المسلمين، ولم يتعب الشاب في إقناع الفتى مصطفى ابن الخمسة عشر خريفاً، بدعوة الإخوان، فقد صحبه إلى شعبة الحي، ثم إلى المركز العام ليستمع إلى محاضرة لمرشد الإخوان، الأستاذ حسن البنا، فاستمع الفتى في انبهار إلى المحاضر الذي يقطر الشهد من لسانه العف بتقاطر الكلمات المحملة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهكذا صار الفتى مصطفى عضواً في جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٣٦ ومنذئذ التحم كيانه كله في جسم الجماعة، فما فارقها لحظة واحدة في عسر ولا في يسر، وعاش فيها بجسمه وروحه، عاش سراءها وضراءها، وكانت روحه تحلق في أجوائها وهو يمشي على قدميه في أحياء القاهرة وأريافها، وفي الصعيد والمدارس يدعو إلى الله، فقد كان كتلة من حيوية ونشاط، لفت إليه أنظار القائمين على (الجهاز الخاص) فوضعوا عيونهم عليه، وراقبوه واختبروه ثم لم يلبثوا إلا قليلاً ليضموه إليهم، وليكون من أنشط أعضاء الجهاز سرية وانضباطاً، وتنفيذاً لما يطلب منه تنفيذه.

الجهاز الخاص:

وهو الذي يسمونه الجهاز السري لما كان يكتنفه من سرية مطلقة أنشأه الأستاذ المرشد عام ١٩٤٠ من خيرة شباب الإخوان ديناً، وأخلاقاً وإخلاصاً لفكرة الجهاد، وكان الهدف من إنشائه، تدريب الشباب تدريباً قتالياً عالياً، من أجل تحرير مصر من الاستعمار الإنجليزي، وتحرير فلسطين من الإنجليز الذين يستعمرونها ويتآمرون مع اليهود لإنشاء وطن قومي لهم فيها وإقامة دولتهم على أرضها.

وقد خاض رجالها معارك هائلة في مصر ضد الإنجليز في القنال خاصة وحيث وجد للإنجليز منشآت في بعض مدنها، كما خاضوا معارك باسلة في فلسطين، وأبلوا أحسن البلاء، ولو لا تآمر المتآمرين على فلسطين وعلى

المجاهدين، لكـان لأبناء هذا الجهاز الحيوي دور هائل في إحـباط ما يفكر به الإنجليز واليهود وعملاؤهم ولكن المؤامرة كانت لئيمة وخسيسة، وكانت أكبر من أولئـك الرجال الذيـن قدموا أرواحـهم ودمـاءهم فداء لفـلسطين والـقدس والأقصى ومـصر، وكانوا ينفـقون -أي شباب النظـام الخاص- على تنظيـمهم السري هذا من جيوبهم الخاصة، وكان مفـتي فلسطين المجاهد العظيم الحاج أمين الحسـيني رئيس الهيئة العربيـة العليا في فلسطين، يقـدم لهم بعض المال ليشتروا به السلاح.

وكان الشـاب مصطفى مـشهور واحداً مـن رجال ذلك النظام أو التـنظيم، يأتمر بأوامر مسؤوليه، ويطيعهم في المنشط والمكره.

قضية سيارة الجيب:

لعل أول تـجربة قـاسيـة يمر بـها الشـاب مصطـفى ما أطلـق عليـه حادث (سيارة الجيب) عام ١٩٤٨ تـلك التي استغرقت جلساتها تسعـاً وثمانين جلسة (من عام ١٩٤٨ - ١٩٥١ (وتحكـي وقائع الـمحـاكمـة أن الأستـاذ مصطـفى مشهور لـم يتبرأ مما اتهم به، ولـم يطلب العفو من المحـكمة، بل إنه أبى أن يطعـن في إجراءات الاعتـقال لأنه كـان على يقيـن بأنه محق فـيما فـعل، وإن اعتقلوه وحاكموه وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات بسببه.

والطريف في الأمر، أن رئيس الـمحكمة المستشار أحمـد كامل بك وكيل محكمة استئناف القاهرة ذكر في حيثيات الحكم الذي نطقت به المحكمة التي كان يرأسها ما يلي:

«وحيـث إنه سبق للـمحكمـة أن استظهـرت كيفـية نشـأة جماعـة الإخوان المسلمـين، ومسارعة فريـق كبير من الشبـاب إلى الالتحاق بها، والسـير على المبادئ التي رسمهـا منشئها والتي ترمي إلى تطهير النفـوس مما علق أو عساه أن يعلق بهـا من شوائب، وإنشاء جيـل جديد من أفراد مثـقفين ثقافـة رياضية عالية، مشربة قلوبهم بحب وطنهم، والتضحية في سبيله بالنفس والمال، وقد

كان لا بد لمؤسسي هذه الجماعة لكي يصلوا إلى أغراضهم أن يعرضوا أمام الشباب مثلاً أعلى يحتذونه وقد وجدوا هذا المثل في الدين الإسلامي وقواعده التي رسمها القرآن الكريم والتي تصلح لكل زمان ومكان فأثاروا بهذا المثل العواطف التي كانت قد خبت في النفوس وقضوا على الضعف والاستكانة والتردد وهي الأمور التي تلازم -عادة- أفراد شعب محتل مغلوب على أمره، وقام هذا النفر من الشباب، يدعو إلى التمسك بقواعد الدين، والسير على تعاليمه، وإحياء أصوله سواء أكان ذلك متصلاً بالعبادات والروحانيات، أم بأحكام الدنيا.

ولما وجدوا أن العقبة الوحيدة في سبيل إحياء الوعي القومي في هذه الأمة، هو جيش الاحتلال -الإنجليزي- الذي ظل في هذا البلد قرابة سبعين عاماً، تخللتها طائفة من الوعود بالجلاء .. كما كان بين المحتل وبين فريق من الوطنيين الذين وُلُّوا أمر هذا البلد، مباحثات ومفاوضات على إقرار الأمور، ليخلص الوادي (مصر) لأهله، ولم تنته المفاوضات والمجادلات الكلامية إلى نتيجة طيبة، ثم جاءت مشكلة فلسطين وما صاحبها من ظروف وملابسات..» إلى آخر هذه الحيثيات التي قدمها رئيس المحكمة قبل النطق بالحكم على الشاب مصطفى مشهور مع ٢٧ عضواً من إخوانه البررة.. في حين حكمت عليه المحكمة الثورية -أيام جمال عبد الناصر- بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، خلال ثلاث دقائق فقط، يا للعجب والتفاهة !!

ومن الطريف أن نذكر أن رئيس المحكمة الأستاذ المستشار كان مقدراً لهؤلاء الشباب الذين يحاكمهم، وأعجب بجرأتهم وإخلاصهم، وتفانيهم في سبيل دعوتهم، الأمر الذي جعله يستقيل من القضاء وينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين ويؤلف كتاباً وينشره ويقول: (كنت أحاكم الإخوان، وأصبحت منهم) دعا فيه الشيوخ والشباب إلى الالتحاق بتنظيم الإخوان الذي أفرز هؤلاء الرجال الذين أقنعوا قاضيهم بحقهم، وبأصالة ما يدعون إليه.

الاعتقال الثاني:

كان هذا الاعتقال بعد حادث المنشية المفتعل والمفبرك بين جمال عبد الناصر وبين المخابرات الأمريكية وبتدبير منهما.

وبالرغم من أن الشاب مصطفى مشهور حينها (١٩٥٤) كان موظفاً في (مرسى مطروح) أي كان بعيداً عن مسرح الحادث، وعن القاهرة، فقد اعتقلوه من مقر عمله، وساقوه إلى السجن الحربي، سيء الذكر هو ومديره الهالك اللواء حمزة البسيوني وضباطه وجلادوه وجلاوزته، وتعرض الشاب مصطفى لأقسى أنواع التعذيب وهو صابر محتسب، لا يسمع الجلادون منه سوى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ثم عرض على محكمة الثورة، لتحكم عليه بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، وقد استغرقت هذه المحاكمة المهزلة ثلاث دقائق، بطوله وعرضها!..

ثم نقل إلى سجن (ليمان طره) ليلقى وإخوانه الآلام من مدير السجن وجلاديه، ثم نقل إلى معتقل (الواحات الخارجية) وهو عبارة عن خيام مفتوحة في الليل والنهار وفي الصيف والشتاء القارس، ومحاطة بالحراس الغلاظ، وبالأسلاك الشائكة.

أمضى الشيخ مصطفى مدة السجن وخرج من المعتقل في تشرين الثاني (١٩٦٤م).

الاعتقال الثالث:

وفي تموز ١٩٥٦ فوجئ الناس بقرار جديد من جمال عبد الناصر يقضي بإعادة اعتقال كل من كان معتقلاً سابقاً وأفرج عنه، وجاءت عناصر المخابرات لتعتقل مصطفى مشهور ولمّا يمضِ على الإفراج عنه سوى بضعة أشهر.

وكان نصيب الرجل من التعذيب شديداً وهو صابر محتسب، ويدعو إخوانه إلى الصبر والثبات على هذه المحنة التي جاءتهم من موسكو، حيث

كان عبد الناصر يزور قبر لينين، ويعلن عن كشف مؤامرة لقلب نظام حكمه بقيادة سيد قطب .. وبقي في السجن حتى هلك عبد الناصر، وجاء السادات وأمر بالإفراج عن الإخوان المعتقلين في أوائل السبعينيات (١٩٧١) .. وهكذا أمضى الشاب الكهل الشيخ مصطفى مشهور ست عشرة سنة في معتقلات الطواغيت.

استئناف العمل:

ما كاد الشيخ مصطفى يخرج من السجن، حتى بادر إلى الاتصال بالإخوان، ليعيد التنظيم إلى سابق عهده بالحياة والحيوية والنشاط، غير عابئ بما قد يصيبه في سبيل الدعوة التي سكنت قلبه وعقله.

وعندما بويع الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله تعالى مرشداً ثالثاً للجماعة، كان الشيخ مصطفى من أقوى أعوانه، وكان يعمل مع لفيف من الإخوان الكرام لتأسيس التنظيم وتثبيت أركانه عبر مؤسسات تصمد في وجه الأعاصير.

وقد التقيته أول مرة في شباط (١٩٧٧) في مجلة الدعوة، مع الأستاذ المرشد عمر التلمساني والأستاذ الشهيد كمال السنانيري رحمه الله رحمة واسعة، وقد لاحظت حضور الأستاذ مصطفى في مناقشة الأمر الذي سافرت إلى القاهرة من أجله، وعندما شكوت الدكتور أحمد الملط -رحمه الله- دافع الشيخ مصطفى عن تصرفه، وقال لي: سامحونا إذا وجدتم منا مالا يرضيكم، فظروفنا قاسية، وأمن الأستاذ المرشد على كلامه، وقال الأستاذ السنانيري: هل ترضى أن أكون أنا العبد الفقير وسيطاً بينكم وبين فضيلة الأستاذ المرشد؟

وبعد الانتهاء مما نحن فيه، استأذنت بالانصراف، فهب الشيخ مصطفى نحوي، واعتذر لي وهو الكبير وأنا التلميذ الصغير في هذه المدرسة الربانية، وعانقني وقال: ادعوا لنا أيها الإخوان السوريون فأنتم مظلومون، ودعواتكم مجابة إن شاء الله تعالى.

سائح في سبيل الدعوة:

غادر الشيخ مصطفى مشهور القاهرة إلى الكويت في أيلول (١٩٨١)، وبعد مقتل السادات، التقيته مع بعض أعضاء مكتب الإرشاد، وسمعته يقول:

(ليس لنا أي دور في مقتل السادات، فنحن كما قال المرشد الثاني رحمه الله: دعاة لا قضاة، ونحن لم نستعمل القوة والعنف في حياتنا، وسبيلنا إلى الناس دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع ذلك، اعتقلوا منا بضعة آلاف، ونريد رأيك في التصرف المناسب بناء على تجربتك في سورية).

قلت للأستاذ الفاضل ولمن معه من أساتذتي في مكتب الإرشاد:

(اصبروا وصابروا، ولا تتورطوا في الصراع مع النظام، مهما كانت الاعتقالات والمضايقات، وسوف يعرف النظام المصري أنكم برآء من دم السادات، وسوف يخرج شبابكم من المعتقلات بإذن الله ويستأنفون العمل وبقوة وإخلاص إن شاء الله).

وبعد حوار ونقاش استقر الرأي على التهدئة والابتعاد عن سائر أساليب الاستفزاز والتصعيد، وكذلك كان.

ثم سافر الأستاذ إلى ألمانيا، واستقر خمس سنوات كانت عملاً دائباً في التخطيط للجماعة بروح متفائلة، وعقل منفتح ونشاط يشدّبه الهدوء.

وقد التقيته في مدينة فرانكفورت عام (١٩٨٦)، وكان مع بعض أعضاء مكتب الإرشاد، وشرحت لهم ما سمي حينها بالمسألة السورية، وفيما كنت أشرح لهم ما كلفت بشرحه، قاطعني أحد أعضاء مكتب الإرشاد بحدة وفاجأني فأسكتني، ولكن أخاً كريماً انبرى لذلك العضو وكان مما قاله له: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)، والأخ عبد الله يشرح بأدب إخواني، ولا يجوز لك مقاطعته، وقال الشيخ مصطفى بحنان: (تكلم يا أخي، قل كل ما في نفسك، ونحن مصغون لك).

قلت بحزن: لو كنت أعلم أن حضوري وحديثي يزعجان أحداً منكم ما

حضرت ولا تحدثت، ولكن الأمر خطير، ونحن مقدمون على انشقاق لا سمح الله، ولذلك حضرت .

قال الشيخ مصطفى: تفضل نحن نستمع إليك.

قلت: الآن مستحيل، فقد فوجئت وذهلت من موقف رجل كنت وإخواني نقرأ كتبه، ونستفيد منها، وكنا نحسبه من الدعاة الوعاة المنصفين ثم استأذنت ونهضت، فنهض معي الأستاذ الكبير مشهور لاسترضائي وطلب أن أبقى معهم في الشقة. فاعتذرت وخرجت، ثم كان لقاء اليوم التالي مع الشيخ مصطفى الذي استقبلني بهدوء وحنان وعانقني واعتذر مما حصل في اليوم السابق.

لقد بدا لي الشيخ مصطفى ذا رأي حصيف وحازم، يستمع ويستمع ويستمع ولا يقاطع، ويتكلم بهدوء، وبلسان عفيف، يشاور ويحاور وينصت، ويجادل بالحسنى ومن الصعوبة بمكان أن يتنازل عن رأيه بسهولة.

وفي ألمانيا استطاع وإخوانه أن يرسوا دعائم التنظيم الدولي (التنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين فيما بعد) . . كان حركة دائبة، حتى ليحس به من يراه أنه المرشد، وأنه هو صاحب الكلمة الفصل في الشؤون الاستراتيجية.

العودة إلى الوطن:

وبعد وفاة المرشد الأستاذ عمر التلمساني -رحمه الله تعالى- وبتسوية ما مع المسؤولين في مصر، قادها الأستاذ الكبير صلاح شادي، تغمده الله بفيض رحماته ورضوانه، عاد الشيخ مصطفى إلى القاهرة عام (١٩٨٦)، وتسلم منصب نائب المرشد العام (كان المرشد الأستاذ محمد حامد أبو النصر -رحمه الله تعالى- وكان الساعد الأيمن والأيسر في ميدان الدعوة، ومعه ثلة طيبة من إخوانه أعضاء مكتب الإرشاد، بل إن بعض المراقبين والمطلعين يعتقدون أنه كان القائد الفعلي للجماعة منذ رحيل المرشد حسن الهضيبي

رحمه الله رحمة واسعة عام (١٩٧٣) وحتى وفاته أي طوال ثلاثة عقود.

وفي الأيام الأخيرة من حياة المرشد الأستاذ أبي النصر الذي كان يرقد على فراش المرض الشديد عرف الإخوان أن مرشدهم يرحل عن هذه الحياة الفانية، فاستبقوا الموت، وانتخبوا الشيخ مصطفى مشهور مرشداً للجماعة، حال وفاة المرشد أبي النصر، وتكتموا على هذا الأمر، إلى ما بعد وفاة المرشد ودفنه في شباط/فبراير ١٩٩٦، عندها أعلن المستشار مأمون الهضيبي نبأ انتخاب الأستاذ مشهور ليكون خير خلف لخير سلف، فتقدم الأخ الأستاذ لاشين أبو شنب وبايع المرشد الجديد، وطلب من الإخوان أن يتقدموا ويبايعوه، فتقدم عدد كبير من الإخوان وبايعوا الأستاذ مصطفى مشهور مرشداً للجماعة لمدة ست سنوات، ثم جدد انتخابه مرة ثانية في شباط ٢٠٠٢ لمدة ست سنوات أخرى، حسب أنظمة الجماعة.

مشهور مرشداً و قائداً:

كان الشيخ مصطفى يحمل أعباء المرشد ومكتب الإرشاد قبل أن يصبح هو المرشد، فقد كان المرشد الفعلي أيام سلفيه الشيخ أبي النصر والشيخ عمر التلمساني، وكان يتحمل المسؤولية كاملة عن تلك الفترة، وخاصة بعد أن غادر مصر إلى الكويت فألمانيا، ثم بعد تسوية وضعه، وعودته إلى بلاده.

وعندما تسلم منصب الإرشاد، تابع مخططه الذي رسمه للجماعة مع أعضاء مكتب الإرشاد، وعمل بجد واجتهاد لتنفيذه، وقد لجأ إلى التحالفات السياسية مع بعض الأحزاب وخاضت الجماعة الانتخابات البرلمانية والنقابية، وحققت نجاحات رائعة.

لقد اتسم عهده بالعقلانية المفرطة في ابتعاده عن أي صدام مع الدولة، مهما بلغت تجاوزات الحكومة والأجهزة الأمنية، وعده بعض المفكرين السياسيين والإعلاميين كالدكتور عبد الوهاب الأفندي، أفضل عهود الحركة، فلم تعد جماعة الإخوان حركة هامشية على الساحة السياسية، ولم تدخل في

مواجهة شاملة مع الدولة، ولم تتعرض قياداتها للقتل والإعدام والتشريد والسجن، فقد كان دائماً يرفض الاستدراج إلى المواجهة الشاملة.

إنه سياسي محنك، وداعية حكيم يضبط نفسه ونفوس إخوانه، مع أنه كان في خط المواجهة الأول، منافحاً عن مبادئه وجماعته باليد واللسان والقلم.

لم تشغله السياسة عن الدعوة والتربية، كما لم تبعده الدعوة والتربية عن العمل السياسي، فقد كان يكتب في هذه المجالات كلها، ويصول ويجول في ميادينها بحنكة تدل على تجاربه العميقة في هذه المجالات التي كان يوازن بينها، بحيث لا تغطي إحداها على الأخريات، وإن كان العمل التربوي هو المقدم عنده، لأنه أمضى سنوات مديدة مع طلبة الجامعات، يربيهم ويغرس غراس الإيمان والتضحية والبذل في نفوسهم، ليكونوا مؤهلين لتسلم العمل المناسب لكل منهم، وليكونوا قادة المستقبل وحملة الراية من بعد.

كان يعتبر تغليب العمل السياسي على العمل الدعوي والتربوي انحرافاً عن مسار الجماعة نحو أهدافها وغاياتها، مع أن العمل الدؤوب لإقامة الدولة التي تحكم بما أنزل الله، لم يغب عن باله قط.

ويرى الدكتور الأفندي أن الجماعة في عهده صارت المعارضة الأولى في البرلمان المصري، وقد حققت صموداً عجيباً، بل حققت معجزة الانتصار على محاولات الإفناء والتغييب، ولم تكتف الحركة بالمحافظة على بقائها في ظروف صعبة تمثلت في عداء نشط من قبل الأجهزة والدولة، ومن المناخ العالمي، بل تفوقت كذلك على كل منافسيها، بحيث أصبحت الحركة السياسية الأولى في البلاد.

والذي يقرأ كتاباته في كتبه وفي الصحافة، يعرف أي جرأة في الحق كانت تعتمل في نفس الرجل، فتتفجر على سنان قلمه، فيكتب ما يكتب في نصاعة بيان، ووضوح هدف، بلا جلجلة ولا غموض.

والذي يطالع رسالته التي بعث بها إلى الرئيس الأمريكي بوش الابن، بعيد انتخابه، يعرف أي رجل هذا الشيخ.

رأيته آخر مرة عام ١٩٨٨ وهو يمشي على قدميه فوق أحد الكباري (الجسور) الضخمة في القاهرة، وكان غاصاً بالسيارات وتحت شمس القاهرة المحرقة، إنه قائد ولديه الكثير من مقومات القيادة الرصينة الزاهدة معاً.

الحق يقال: إن الشيخ مصطفى مشهور صاحب مدرسة فكرية وسياسية ودعوية تحتاج إلى دراسة دقيقة لاستخلاص أطرها وعناصرها ومقوماتها وما فيها من دروس وعبر، وهذا ما سوف أنهض به إن شاء الله تعالى إن فسح الله في العمر ووهب الصحة والفراغ، ولكنني أدعو إخوانه وأولاده وتلاميذه الأقربين، وطلاب الدراسات العليا، أن يسعوا إلى جمع آثاره، فمقالاته منثورة في عدد من الصحف والمجلات التي قد لا تصل إليها أيدينا هنا خارج مصر .. هذه أمانة نضعها في أعناق محبيه ومحبي دعوته وأبناء جماعته.

الرحيل:

دخلت عليه ابنته في غرفته قبيل العصر فرأته مرمياً على الأرض في غيبوبة ما لبث أن أفاق منها، وقام ليتوضأ، رجته ابنته أن يشفق على نفسه ويصلي العصر في البيت، فأبى وخرج إلى المسجد، وبعد صلاة العصر أصيب بجلطة دماغية ألقته أرضاً، ليدخل في غيبوبة استمرت سبعة عشر يوماً، منذ التاسع والعشرين من تشرين الأول، وحتى وفاته في الساعة السادسة مساء الخميس التاسع من رمضان المبارك ١٤٢٣هـ -الرابع عشر من تشرين الثاني ٢٠٠٢م.

شيع جثمانه الطاهر عقب صلاة الجمعة (١٥/ ١١/ ٢٠٠٢) من مسجد السيدة رابعة العدوية بمدينة نصر في القاهرة.

صلت عليه جموع غفيرة، أمهم المستشار الشيخ المأمون الهضيبي، ثم حمل جثمانه في صندوق خشبي متواضع وضع في سيارة ميكرو باص، وسار خلفه المشيعون، وكانوا مئات الآلا ف وصل تقدير بعضهم إلى نصف

مليون، وقال آخرون: كانوا مليوناً يسيرون في موكب مهيب، يبكون في صمت وحزن وخشوع.

وشارك في التشييع عدد من رؤساء الأحزاب المصرية، وأساتذة الجامعات، والعلماء، والشخصيات الاعتبارية، وأعضاء مكتب الإرشاد، ونواب الإخوان في البرلمان، وكان حضور الصحافة العالمية كبيراً.

وكان شباب الإخوان يرفعون المصاحف إلى الأعلى من حين خروج الجنازة من المسجد إلى أن ووري في مثواه الأخير، وفي مقابر (الوفاء والأمل) التي تضم جثماني المرشدين السابقين التلمساني وأبي النصر، رحمهم الله رحمة واسعة، وقد استغرقت الجنازة مدة ساعتين من المسجد حتى القبر.

وألقى المستشار الهضيبي كلمة وداع ووفاء على قبر الفقيد الغالي.

وفي المساء تقبل الإخوان العزاء الذي حضره عشرات الآلاف، تحدث الأستاذ مأمون الهضيبي عن مسيرة المرشد الفقيد في ميادين العمل الدعوي طوال خمسة وستين عاماً، تحدث عن نضاله وعن فترات السجن الطويلة، وما لقي فيها من ألوان العذاب، كما تحدث عن جهوده في إعادة الجماعة إلى الحياة المصرية، وتعاونه مع الأستاذ عمر التلمساني في سبيل ذلك.

حضرت العزاء شخصيات سياسية وفكرية مرموقة ومعروفة، مصرية وعربية، وكان الحضور (الناصري) كثيفاً ولافتاً للأنظار، ونعى رئيس الحزب الناصري الأستاذ (حامد محمود)، المرشد الفقيد بقوله: (رحم الله مرشدنا) وأضاف: (يدرك الحزب الناصري أهمية حركة الإخوان المسلمين في العمل الوطني، وإذا كان الشيخ مصطفى مشهور قد فارقنا، فإن إخوانه يحملون الراية).

أصداء وفاته:

نعت الصحف المصرية والأردنية والفلسطينية واللبنانية واليمنية والسودانية

وسواها، وكثير من الأحزاب والهيئات الفكرية والاجتماعية، المرشد الفقيد، ورثاه العالم الجليل الشيخ حامد البيتاوي، خطيب المسجد الأقصى، ورئيس رابطة علماء فلسطين، وكان مما قاله:

(ها هي مصر، أرض الكنانة، بل الأمة الإسلامية، فقدت علماً من أعلام المسلمين في هذا العصر، فقدت قائداً من قادة الفكر والدعوة والسياسة.. إنه رجل حمل هموم المسلمين وراية الدعوة الإسلامية، منذ أكثر من ستين عاماً، وتربت على يديه، ومن خلال كتاباته في فقه الدعوة، أجيال من الدعاة، وهو خير من كتب في هذا الموضوع الذي تلقاه يافعاً، ومارسه شاباً، وعاشه واقعاً مع الإمام المؤسس: حسن البنا فترة من الزمان تقرب من عشر سنوات قبل أن يلقى البنا ربه شهيداً، فأفاد من ذلك كثيراً.. لقد عاش -مشهور- المسيرة الإسلامية فيما تعرضت له من ابتلاء وتمحيص، صبر وثبت، وواصل السير على طريق الدعوة دون انحراف أو تبديل إلى أن لقي الله عز وجل في هذه الأيام المباركة، مرشداً لهذه الدعوة).

رحم الله فقيدنا الغالي، وأسكنه فسيح جناته، مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

❋ ❋ ❋

الدكتور الشيخ معروف الدواليبي
آخر عمالقة السياسة في سورية

تمهيد:

ظهر، إبّان عهد الاستعمار الفرنسي الغاشم لسورية فيما بين ١٩٢٠-١٩٤٦ عدد من رجالات السياسة والوطنية في سورية، قادوا الحركة السياسية من أجل الاستقلال، وشكّلوا (الكتلة الوطنية) التي انقسمت -فيما بعد- إلى حزبين: حزب الشعب ومقرّه في مدينة حلب، شمال سورية، والحزب الوطني، ومقرّه في العاصمة: دمشق.

وكان من رجالات السياسة: هاشم الأتاسي، وعبد الرحمن الشهبندر، ومحمد علي العابد، والشيخ تاج الدين الحسني، وعبد الوهاب حومد، ورشدي الكيخيا، وخالد العظم، وشكري القوتلي، وناظم القدسي، ومعروف الدواليبي، وأكرم الحوراني، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، وحسن الحكيم، وصبري العسلي، وصلاح البيطار، وميشيل عفلق، وسواهم من الرعيل الأول، وكلهم أفضوا إلى ما قدّموا، وكان آخرهم وفاة الدكتور معروف الدواليبي الذي انتقل إلى رحمة الله في مدينة الرياض مساء الخميس ٢٢/ ١١/ ١٤٢٤هـ-١٥/ ١/ ٢٠٠٤م ودفن في البقيع، في المدينة المنورة عن عمر ناهز الخمسة والتسعين عاماً.

حياته:

ولد الشيخ الدكتور محمد معروف بن محمد رسول الدواليبي في مدينة حلب، في ٢٩/ ٣/ ١٩٠٩، في أسرة متواضعة، والنسبة إلى الدواليبي قديمة،

ويقال إنها نسبة لصناعة دواليب استخراج المياه من الآبار، وقد دفعه أبوه إلى الدراسة في الكلية الشرعية (الخسروية) بحلب، ثم درس الحقوق ودرس الآداب في الجامعة السورية، ونال شهادتيهما الجامعيتين بتفوق جعل وزارة المعارف السورية توفده لاستكمال دراساته العليا في جامعة باريس (السوربون) وكان ذلك في سنة ١٩٣٨ ولم يكد يستقر في باريس وجامعتها، حتى فاجأته الحرب العالمية الثانية، وأغلقت دونه طرق العودة إلى وطنه، فمكث هناك إلى ما بعد انتهاء الحرب.

وفي جامعة باريس درس القانون الروماني، ونال شهادة الليسانس في علومه، كما نال الدبلوم في الحقوق الكنسية من الجامعة نفسها، ثم نال شهادة الدكتوراه منها في الحقوق، وكانت أطروحته التي كتبها باللغة الفرنسية حول (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) كتبها بأسلوب جديد، للتعريف بالإسلام وشريعته، ويقول الدكتور الدواليبي حول موضوع رسالة الدكتوراه:

«وهذا الموضوع فرض عليّ من قبل جامعة باريس، بعد أن نقدتُ الكثير مما جاء في كتبهم الجامعية، وعلى ألسنة أساتذة الجامعة في التجريح في الإسلام ونبي الإسلام ﷺ. ومن ذلك، مثلاً، ما ذكره أحد الأساتذة، وكان مستشرقاً يهودياً، من أن الشريعة الإسلامية متوحشة متخلفة، ولا تصلح إلا للعصور البدائية البائدة.

وضرب على ذلك مثلاً فقال (الأستاذ المستشرق):

- في الشريعة الإسلامية، إذا استدان شخص من آخر، ولم يستطع تسديد دينه في حينه، يُخيّر الدائن في حبسه، أو استرقاقه، أو أن يقتطع ما يشاء من أعضاء جسمه، استيفاء لدينه.

قال الدكتور الدواليبي:

- وقبل أن ينتقل إلى مثال آخر عن وحشية الشريعة الإسلامية، رفعتُ يدي، واستأذنت بالكلام، ثم سألته:

- من أي مرجع جئت بهذا الكلام؟

أجاب البروفيسور: من عشرات الكتب التي ألفها علماء الإسلام.

فقال له الدواليبي الطالب عند ذلك المستشرق:

- أريد مرجعاً واحداً.. كتاباً واحداً.. فهل تستطيع أن تذكر لنا الآن اسم كتاب واحد؟!

فارتبك البروفيسور، ولكنه قال بثقة وتحدٍ:

- لا أذكر الآن شيئاً مما تطلب، ولكنني سآتيك بعشرات الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع في المحاضرة القادمة.

وفي المحاضرة القادمة، نظر إليّ في تجاهل، وقبل أن يبدأ محاضرته، رفعتُ يدي وسألته: هل جئت بالمرجع يا أستاذ؟

قال بحدة: لا.. نسيته، وسوف آتيك بعدة مراجع في المحاضرة الآتية.

ولم يأت -طبعاً- بشيء في المحاضرة التالية، فقلت له في تحدٍ:

- إن ما قلته، يا أستاذ، عن وحشية الشريعة الإسلامية افتراء غير موجود في أي كتاب إسلامي، إنه ليس موجوداً إلا في عقلك، وأنا أتحداك أن تأتيني بشيء من ذلك.

وهكذا كان النقاش بيني وبين العديد من الأساتذة والمستشرقين الذين كانوا يحاضرون حول الإسلام، ويفترون عليه، وكنت أتابعهم وأرد عليهم.. وهذا هو سبب فرض هذا الموضوع علي.

الدواليبي سياسياً:

الدكتور الدواليبي سياسيٌّ محنّك، شجاع، جريء في طرح ما يعتقد أنه صواب، وهو من خيرة السياسيين العرب قاطبة، وقد ترك بصماته الواضحة في السياسة السورية خاصة، والعربية والإسلامية عامة.

كتب في إحدى رسائله إلى الأستاذ أحمد العلاونة بتاريخ ١٢/٥/١٤١٠هـ

- ١٢/١٠/١٩٩٨:

«لقد كُتب عليّ أن أكون في ركاب الأحداث في سورية، منذ كنّا طلاباً صغاراً، وقد كنتُ بدأت بتسجيل يومي لأهم الأحداث، منذ ابتدأت بدراستي الجامعية، إلى جانب خواطر وملاحظات علمية إلى جانب الأحداث التي ينبغي أن تسجّل، وبلغت يومياتي مبلغاً واسعاً، وفيها ما لا يجوز أن يقع في الأيدي، واعتقلتُ في أوربا، وصُودرت مذكراتي، وكانت بمحتوياتها أسرار بعض الأحداث، ومشاركتي فيها، كانت خطرة عليّ، لولا رحمة الله وعنايته.. وهذا ما أوجب عليّ بعد ذلك التوقّف، خاصة وقد كثرت أحداث منطقتنا وانقلاباتها، وكثرت معها اعتقالاتي وتشتتي.. غير أن بعض المحبين يلحّ عليّ بالتسجيل لما فات، رغم ضيق الأوقات.. ولكنني أخيراً استجبت لرغبة بعض الأعزاء للتحدث أسبوعياً على جهاز التسجيل الخاص، على ما يطرحه السائل من أسئلة، وما يرغبه من معلومات، والكثير منها غير قابل للنشر في الوقت الحاضر».

بدأ الدواليبي حياته السياسية ممثلاً لسورية في الاستفتاء الشعبي على مصير لواء الإسكندرون، مكلفاً من الكتلة الوطنية للإشراف على هذا الاستفتاء، وكانت نتيجة الاستفتاء لصالح سورية في بقاء اللواء تابعاً لها، وجزءاً من أراضيها، بنسبة ٨٠٪ ولكن الصفقة كانت بين الفرنسيين المستعمرين، وبين الأتراك الكماليين قد قضت بإلحاق اللواء (الإسكندرون، وإنطاكية، وكيليكيا) بتركيا، تلميعاً وتشجيعاً لأتاتورك. وكذلك كان منذ عام ١٩٣٨

كان الدواليبي عضواً في الكتلة الوطنية التي كانت تعمل لتحرير سورية من الاستعمار الفرنسي، واستقلالها، وقد رشحته الكتلة للانتخابات البرلمانية عن مدينة حلب عام ١٩٤٧ وفاز فوزاً ساحقاً.

وهكذا بقي عضواً في البرلمان منذئذ وحتى انقلاب آذار ١٩٦٣ وكان ينال أعلى الأصوات عن مدينة حلب.

في عام ١٩٤٨ وفـي مؤتمر عُـقد في مدينـة بعلبك في لـبنان، انشقت الـكتلة الوطنـية إلى حـزبين: حزب الـشعب في حلـب، وكان الدواليـبي أحد أركـانه الأربعة، والحزب الوطني في دمشق.

وفي نيسان ١٩٥١ صار وزيراً للدفاع، وأدلى بتصريحه الخطير المشهور:

«أعلن بـصفـتي الشـخصـية، لا بوصـفي وزيراً للـدفاع، أنه فـي استـمرار الضـغط الأمريكـي على العرب، لـجعلهـم يسيـرون في سياسـة لن تنتـهي إلا بتهويـد بقية أبناء الأمة العـربية، فإني أقترح إجـراء استفتاء في العـالم العربي، ليـعرف المـلأ ما إذا كـان العـرب يفضـلون ألف مـرة أن يصبـحوا جـمهـورية سوفيتية، على أن يكونوا طعمة لليهود».

وكان لهذا التصريح دوي في المحافل السياسية المحلية والدولية.

كلف بتـشكيل الوزارة فـي ٢/ ١٢/ ١٩٥١ فشكلهـا دون أخذ رأي العقـيد الانقـلابي أديب الشيـشكلي ومـوافقتـه، واحتفـظ لنفسـه بوزارة الدفاع، فـقام الشـيشكلي بـانقلابه الـعسكري الثـاني في ٢/ ١٢/ ١٩٥٢ واعـتقل الدواليـبي، ووزراءه في سجن المزة العسكري.

وكان شموخه أثناء الـتحقيق معه كبيراً، فمـا تنازل عن كونه رئيس الوزراء طوال مدة التحقيق والاعتقال.

وبعد الانـقلاب على الشـيشكلـي، اختيـر وزيراً للدفاع عـام ١٩٥٤ وكان خصماً عنيداً للضـباط الانقلابيين أصحاب الطموحات الشخـصية، واليساريين منهم خاصـة، فاستقالـت الوزارة بعد أقل من أربعة أشـهر من تشكيلهـا بسبب موقفه الصلب هذا في ٢٥/ ٩/ ١٩٦١ فكّلـف بتشكيل الوزارة، بعد أن فاز في الانتخابات فوزاً متميزاً.

وقد شغل الدكتور الدواليبي المناصب السياسية التالية:

١- نائـب حلب فـي مـجلس الـنواب الـسوري مـنذ عـام ١٩٤٧ حتـى ١٩٦٣

٢- وزير الاقتصاد الوطني عام ١٩٥٠

٣- رئيس مجلس النواب سنة ١٩٥١

٤- رئيس الوزراء ووزير الدفاع في أواخر عام ١٩٥١

٥- وزير الدفاع الوطني عام ١٩٥٤

٦- رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية عام ١٩٦١-١٩٦٢

٧- ضيف المملكة العربية السعودية، ومستشار في الديوان الملكي منذ عام ١٩٦٢

وبعد انقلاب آذار ١٩٦٣ اعتقل الانقلابيون سائر الساسة السوريين، وبعد الإفراج عنهم عام ١٩٦٤ طلبوا من الدواليبي مغادرة سورية، فأبى، فألحوا عليه بالمغادرة المؤقتة، فقبل، ولكنهم كانوا يكذبون عليه ويخدعونه، فقد حالوا دون عودته إلى وطنه، إلى أن توفي بعيداً عن وطنه الذي طالما خدمه وضحًّى في سبيله.

مع الملك فيصل:

أرسل إليه الملك فيصل بن عبد العزيز، رحمهما الله تعالى، واستقبله بحفاوة، وأكرمه بلقب مستشار في الديوان الملكي لديه، وبقي في هذا المنصب الرفيع مع الملك خالد، رحمه الله، والملك فهد، إلى أن لقي ربه.

وكان أثيراً لدى الملك فيصل، فقد كان مستشاره، وجليسه، ونديمه، وأكيله، ورفيقه في حلّه وترحاله.

آخر مرة التقيته عند الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، جاءه زائراً، في رمضان ١٤١٩هـ وكان بيننا حديث حول مذكرات أكرم الحوراني، وقال عنها: فيها كذب صريح، ومبالغات كثيرة.

وحدّثنا عن دعوة الملك فيصل له فقال:

«دعيت من قبل جلالة الملك فيصل، واستقبلني وأكرمني وقال لي:

اطلب ما تشاء.

قلت: أريد الجنسية السعودية.

قال الملك: لا.. كل شيء إلا هذا.

فسألته مستغرباً أن يردّ لي أول طلب أطلبه منه: لماذا؟

قال جلالته: لأنك رئيس وزراء سورية، ويجب أن تبقى رمزاً للشعب السوري هنا، وفي كل مكان، وأريدك أن تحافظ على لباسك السوري، ولك جواز دبلوماسي، ولأهلك وأولادك الجنسية وكل ما تريد.

وهكذا كان، إلى أن لقي ربه رحمه الله.

المؤتمرات:

حضر الدواليبي عدداً كبيراً من المؤتمرات السياسية والعلمية، وكثيراً من الندوات، وألقى فيها العديد من المحاضرات، وكان حضوره فيها مشهوداً ومتميزاً.

من هذه المؤتمرات:

١- مؤتمر العالم الإسلامي في كراتشي عام ١٩٧٥ وكان رئيساً للمؤتمر، وهو مؤتمر سجل لدى الأمم المتحدة بصفته هيأة مراقبة دولية واجتماعية، وهذا المؤتمر كان عقد دورته الأولى عام ١٣٥٠هـ في مدينة القدس، وكان يرأسه مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وكان نائبه فيه الشاعر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال.

٢- كان رأسَ وفد سورية الحكومي إلى حلقة الدراسات العربية والاجتماعية الدولية عام ١٩٥٠م.

٣- مثّل جامعة دمشق في مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الدولي عام ١٩٥١ في باريس، بدعوة من مؤسسة الحقوق الدولية المقارنة في (لاهاي).

٤- عضو المؤتمر العام الأول لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة

عام ١٩٦٥

٥- رئيس وفد الشعوب العربية في المؤتمر الأول للشعوب الإفريقية والآسيوية في نيودلهي عام ١٩٥٥

٦- عضو في الوفد السوري الحكومي إلى المؤتمر الدولي لدول عدم الانحياز في (باندونغ) بأندونيسيا عام ١٩٥٥م.

٧- عضو في الندوات العلمية الدولية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، التي عُقدت أولاً في الرياض، ثم في باريس، ثم في الفاتيكان، ثم في مجلس الكنائس العالمي في جنيف، ثم في مجلس وزراء الوحدة الأوربية في ستراسبورغ منذ عام ١٩٧٣ حتى أواخر عام ١٩٧٤م.

٨- عضو في مؤتمر رسالة المسجد الدولي في مكة المكرمة عام ١٢٩٥هـ-١٩٧٥م.

٩- عضو في المجلس الأعلى العالمي الدولي للمساجد في مكة المكرمة منذ عام ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م حتى وفاته.

١٠- عضو مراقب في مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي.

١١- رئيس منظمة (الإسلام والغرب) الدولية، ومركزها جنيف بسويسرا، منذ سنة ١٩٧٩ وهي سنة تأسيسها، حتى أواخر عام ١٩٧٤م.

١٢- نائب رئيس المؤتمر الإسلامي الشعبي في بغداد، ثم رئيس مجلس أمناء ذلك المؤتمر سنة ١٩٨٤م.

أبرز مواقفه:

١- تمكّنه من تهريب مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وتخليصه من براثن الحلفاء، إبان الحرب العالمية الثانية، بإعطائه جواز سفره.

٢- صموده في وجوه الانقلابيين، والاشتراكيين، والشيوعيين.

٣- ذكرنا تصريحه الخطير عندما كان وزيراً للدفاع السوري عام ١٩٥١

وفي أواسط الخمسينيات كان أول من تـجرأ على الكلام في كسر احتكار دول الغرب للسلاح، وحظر استيراده إلا منهم، حتى دعي لدى السياسيين: بالشيخ الأحمر.

كتبه:

لم يتفرغ الدواليبي للتأليف، ولو فـعل، لكان لنا منه مؤلف وكاتب كبير، ومع ذلك، أصدر عـدداً من الكتب، ولم تجـمع محاضـراته. ومؤلفاته عـبارة عن بحـوث علمية، وخـاصة كتـبه الجامـعية التـي كان أملاها علـى طلابه في المواد التي كان يدرّسها في كليتي الحقوق والشريعة بجامعة دمشق. ومن هذه الكتب:

١ - المدخل إلى علم أصول الفقه.

٢ - المرأة في الإسـلام. وموضوعه هـذا طلبته منـه منظمة اليـونسكو في الأمم المتحدة التي طبعته في مجلد بعنوان (الإسلام) بمختلف اللغات.

٣ - دراسات تاريخية: عن مهد العرب وحضاراتهم الإنسانية.

٤ - المدخل إلى التاريخ العام للقانون.

٥ - المدخل إلى السنّة وعلومها.

٦ - الاجتهاد في الحقوق الإسلامية (باللغة الفرنسية).

٧ - الإسلام أمام الاشتراكية والرأسمالية (بالعربية والإنكليزية)

٨ - نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية.

٩ - الوجيز في الحقوق الرومانية، جزءان.

١٠ - قلعة طروادة التاريخية.

١١ - نظريات النقد الأدبي عند العرب.

١٢ - القومية العربية في حقيقتها.

١٣ - نظرات إسلامية. وهي عدة أبحاث جديدة حول الخطوط الكبرى للشريعة، وحول العبادة، وأنها ضرورة حيوية وعلمية، وموقف الإسلام من العلم، وحقوق المرأة في الإسلام، ومن هم الأريسيون؟

يقول عنه زميله في كلية الحقوق، وصديقه، ورفيق دربه الشيخ علي الطنطاوي:

«وما صنع، هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الواقع، ومذكراته من أغنى الذكريات بالمعلومات وعنده من الأخبار، ما هو عند الناس سرٌّ من الأسرار».

المصادر والمراجع:

بعض كتبه.

ذيل الأعلام -المجلد الثالث: أحمد العلاونة.

ذكريات: علي الطنطاوي.

مذكرات الدكتور معروف الدواليبي: د. عبد القدوس أبو صالح - د. محمد علي الهاشمي.

مذكرات خالد العظم.

* * *

الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ
رجل الجهاد والعلم والحزم والدين

تمهيد:

ما أعظم أن يخلّف الرجل العظيم أبناء وحفدة عظماء، ينهجون نهجه، ويسيرون على خطاه، ليرقد في مثواه الأخير على هذه الأرض، قرير العين، مطمئناً إلى أنّ من خلّفهم من بنين وبنات، ومن حفدة وحفيدات، سوف يكونون كما دعا اللهَ وأحبَّ أن يكونوا، قدّمهم هدايا غالية لأمته ودينه، وسوف يقدّمون إليه هدايا ثمينة تؤنسه مع عمله الصالح في حياته البرزخية، من علوم، ودعوات، وصدقات..

وكذلك كان الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مع أولاده وحفدته، وهذا ما سنطالعه في حياة حفيده الشيخ محمد بن إبراهيم، مفتي الديار السعودية، ورائد النهضة العلمية والشرعية فيها، الذي أمضى حياته الحافلة في أعمال الخير، وعلى رأسها نشر العلم بتعليم الناس أمور دينهم، وعلوم شريعتهم ولغتهم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، داعياً إلى الله على بصيرة، ناصحاً خاصتهم وعامتهم وولاة أمورهم، ذائداً عن حرمات هذا الدين العظيم، باسطاً العدل والإنصاف والحبّ بين الناس، حتى أمن الناس واطمأنّوا، وعاش بينهم معزَّزاً مكرَّماً، يحبّونه ويجلّونه، ويضربون المثل به في سائر أحواله.

المولد والنشأة:

ولد الشيخ محمد بن إبراهيم في مدينة الرياض في السابع عشر من

المحرم عام ١٣١١هـ في حي دُخْنَة، في بيت علم وفضل وزعامة دينية، وعراقة في الشرف والعلم والتقوى والصلاح وبذل النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله، ورفع شأنها، ودحض كل ما يثار حولها من شكوك وشبهات.

فأبوه الشيخ إبراهيم كان قاضي الرياض، ومن أكابر علماء المعقول والمنقول في نجد ومشاهيرهم، معروفاً بالذكاء والتقوى والورع والعلم، وقد لبث في القضاء منذ استقضاه الملك عبد العزيز سنة ١٣٢١هـ حتى وفاته سنة ١٣٢٩هـ.

وعمّه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، علامة نجد ومفتيها وفقيهها، كان ذا عقل راجح، وعلم واسع، وفضل وكرم، مسموع الكلمة عند العامة والخاصة، يقصده العلماء وطلاب العلم والوجهاء من كل مكان، وهو خطيب مفوّه، إذا خطب هزّ المنابر، وأسال الدموع من المدامع، وكان الملك عبد العزيز يأتي إليه في داره، ليسمع درسه، ويأخذ رأيه ومشورته في بعض القضايا.

وليس هذا بمستغرب من الملك المشهود له برجاحة العقل، تجاه أحد حفدة الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب، بل وتجاه سائر الحفدة.

وجدّه الثاني الشيخ عبد الرحمن كان واسع العلم والمعرفة، وجدّه الثالث غني عن التعريف.

وكذلك كان بيت جدّه لأمّه، الشيخ عبد العزيز الهلالي، أمير عِرْقة إذ ذاك، وخاله محمد بن عبد العزيز الهلالي من أدباء عصره وشعراء زمانه، وقد تولّى إمارة عِرْقة بعد والده.

في هذه البيئة العلمية النقية في عقيدتها وسلوكها، نشأ الشيخ محمد على الدين والفضيلة والعلم والأخلاق السامية، فكان لنا منه عالم عامل، ذو أثر بعيد في مجتمعه، وفي علماء ذلك المجتمع ومفتيه وقضاته، بعد أن وقف حياته على العلم والتوجيه والإصلاح.

تعلّمه وعلمه:

نشأ الشيخ محمد محبّاً للعلم والعلماء، فمنذ السابعة من عمره بدأ يتلقّى القرآن الكريم في كتّاب الشيخ عبد الرحمن بن مفيريج تلقّي نظر وسماع، وضبط وإتقان، وحفظه وهو في التاسعة من عمره، ولما أصيب بفقد بصره وهو في السادسة عشرة من عمره، أعاد قراءة القرآن العظيم عن ظهر قلب، وكان حفظه له متقناً.

قرأ العلم على أبيه وعمّه الشيخ عبد الله، وبدأ بالتوحيد، وأصول العقيدة قراءة حفظ وفهم، ثم قرأ مختصرات جدّه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومختصرات شيخ الإسلام ابن تيمية، ومختصرات العالم الجليل ابن القيم.. قرأ الواسطية، والحموية لابن تيمية، وعُني بمختصرات النحو كالآجرومية، والفرائض، كالرحبيّة، وحفظ المتون الكثيرة، وكان حفظ المتن لا يكلفه أكثر من قراءته مرتين أو ثلاث مرات.

ولم يثنه كفٌ بصره عن طلب العلم، بل تحدّى العمى، وأقبل على العلم يلتهمه التهاماً، فقرأ على علماء الرياض بعض كتب التفسير، والحديث الشريف، قرأ هذين العلمين وأصولهما، على الشيخ سعد بن عتيق، وقرأ علوم اللغة العربية على الشيخ حمد بن فارس، وقرأ بعض مطولات علم الفرائض والمواريث على والده، ثم على الشيخ عبد الله بن راشد، الذي قرأ عليه ألفية الفرائض، وعبَّ منها عباً، وصحب عمّه الشيخ عبد الله اثني عشر عاماً، كان يصحبه إلى بيته بعد صلاة الفجر كل يوم، ليحضر مجالس الدرس والتحصيل، ثم يمضي سائر يومه في مراجعة ما أخذ من علم مع مشايخه وتلاميذه. واستمرّ على ذلك حتى وفاة عمه عام ١٣٣٩هـ، رحمهما الله تعالى.

وكانت هذه المرحلة أحفل المراحل بالعلم، والتحصيل، والجهد المتواصل الذي يدلّ على عظيم صبره، وشدّة جلده ودأبه في تحصيل العلوم

الشرعية والعربية، حتى صار ذا علم معتبر في التاريخ والأنساب والفلك وعلوم البلاغة، أفاد منه علماً غزيراً، فقد كان عمه تفرَّس فيه بوارق النبوغ في العلم والاجتهاد والإصلاح والرئاسة والإفتاء، فأولاه رعاية حانية، وعناية فائقة في تلقينه العلم والسلوك والأخلاق، وحبّب إليه معالي الأمور، وكرّه إليه سفاسفها، ليكون قلعة للعلم، وصرحاً للفضيلة، وسياجاً منيعاً للدين وذويه، يذود عنه وعنهم بما أوتي من حجج وبراهين.

كان عمّه يرجو أن يكون شيخ جيلٍ من العلماء، وباعث نهضة علمية في شبه الجزيرة العربية، ينهض بعلوم الشريعة، وبعلوم اللغة العربية، يصلح ما فسد، ويقضي على ظلمات الجهل وأسباب التخلف. ولهذا درّسه كتب التوحيد، وأصول الإيمان، وفضائل الإسلام من تأليف جدّه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدلائل (حكم موالاة أهل الشرك) للشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ودرَس عليه الحديث وعلومه في كتاب بلوغ المرام، وثلث المنتقى، ثم على الشيخ سعد بن عتيق الذي قرأ عليه أيضاً ألفية العراقي في مصطلح الحديث.

ودرس الفقه (زاد المستقنع) وعلوم اللغة العربية على الشيخ حمد بن فارس: (الآجرومية، والملحة، وقطر الندى، وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل)، كما درس على غيرهم من المشايخ، وكان كثير المطالعة في العديد من العلوم والمعارف، ممّا وسّع آفاقه، فقد كان يتمسك بالمذهب، ولكنه لا يتعصب له وقد يخرج عليه في بعض المسائل، وعن بعض مشهوره إلى صحيحه.

وكذلك كان.. فقد حصل الشيخ الشاب في زمن قصير، على علم غزير، لا يستطيع غيره الحصول عليه إلا في زمن طويل. وبه تكوّنت له شخصيته العلمية المتميزة، بعد جهاد مرير متواصل في سبيل العلم أخذاً وعطاء، فصار أصولياً، محدثاً، مفسراً، فقيهاً، يشدّ إليه العلماء وطلبة العلم

رحالهم، لينهلوا من معين علمه الذي لا تكدّره كثرة الدّلاء الماتحة منه.

إجازاته العلمية:

حاز الشيخ محمد على إجازات كثيرة من علماء نجد، ومن مشايخ الأقطار الأخرى، ومن هؤلاء العلماء: الشيخ حسين بن محسن الأنصاري -نزيل الهند- (ت ١٣٢٧هـ) وكانت إجازته هذه عن طريق المكاتبة، لأن الشيخ محمداً لم يزر الهند، ونال هذه الإجازة وهو ابن ستة عشر عاماً.

وأجازه الشيخ عبد الستار الدهلوي في رواية الحديث عنه، عندما التقاه في حج عام ١٣٤٨هـ.

وأجازه الدكتور الشيخ محمد تقي الدين الهلالي - المغربي- (١٣١١ - ١٤٠٧هـ) والشيخ سعد بن عتيق، والشيخ عبد الله العنقري، وسواهم.

مؤلفاته:

لقد شغلته مسؤولياته الكثيرة، ومشاغله الجمّة، والأعباء التي تحمَّلها راضياً وبشعور عالٍ بالمسؤولية، وخاصة التدريس والتعليم الذي شغل حيّزاً كبيراً من عمره.. أكثر من أربعين عاماً قضاها في تعليم طلبة العلم، كما سيأتي.. شغله كل ذلك عن التأليف، اللهم إلا تأليف الرجال الذين لا يحصيهم العدّ، وملؤوا المملكة علماً وفضلاً ونوراً.

ومع ذلك، كتب رسائل وكتباً صغيرة في زكاة العروض، وحكم التدخين، والقات، وغلاء المهور، والجواب المستقيم، وتحكيم القوانين، وكانت فتاواه القيّمة التي جمعها تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في ثلاثة عشر مجلداً، تبرهن على تضلّعه في الفقه، وعمق نظراته، وله أيضاً ألف حديث اختارها ووضعها في أبواب، هي من أحاديث الأحكام، وهناك نصائحه وردوده الكثيرة في موضوعات شتى، وهي مطبوعة وموجودة في دار الإفتاء.

وصف العلاّمة الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة مؤلفات الشيخ، بأنها «تتميز

بالعمق والدقة والشمول، والاستدلال والجزالة التامة، وجلُّها في المشكلات العلمية العويصة، وبعضها في الردود على من شطَّ عن الجادة».

«وفي هذه الفتاوى والرسائل نماذج كثيرة حيّة ناطقة بعمق نظره في الفقه، ودقّة نظره في القضاء، وشدّة اجتنابه المداهنة في دين الله تعالى، مع الانتباه التام لدخائل ودسائس أهل الأهواء والقلوب المريضة في شؤون الدين».

وفتاواه تدل على تحرّيه الشديد، فلا يقبل الشيء ولا يرفضه إلا بعد عرضه على الميزان الصحيح للقبول والرفض، تسعفه ذاكرة حيّة في استحضار النصوص التي تقوّي حجته، وتجعله يغوص على المعاني الدقيقة، بحيث ينزّل الحوادث على القواعد والنواظر تنزيلاً عجيباً، كما تدل فتاواه على تساميه عن مستوى التقليد المطلق، وعلى قدرته الفائقة في حل معضلات المسائل والقضايا العصرية بطرق مقنعة.

مع الشعر:

كان الشيخ ذا ذائقة أدبية سليمة، يتذوق الأدب الرفيع، من شعر ونثر، وتطربه القصيدة والأبيات الرصينة والحكيمة، وينفر من الشعر الهزيل الضعيف، وكان يحفظ العديد من فرائد القصائد الطويلة.

ثم إنه كان ينظم الشعر في المناسبات السارّة والحزينة، كالفتوحات، والغزوات، والمناسبات الإخوانية، وله شعر لطيف يؤرخ به ميلاد أبنائه وحفدته بحساب الجُمّل، وله شعر يُلْغِز به في بعض المسائل العلمية، يحاجي به الأذكياء من طلبة العلم، يحرّك به عقولهم، ويختبر ذكاءهم، ويدفعهم إلى البحث عن المغزى.

وكان الشيخ يقول: «لو أردت ألاّ أتحدّث إلا بالشعر لفعلت» وليس هذا بجديد على من سكن نجداً أمَّ الشعر والشعراء، وحاضنتهم منذ القديم، حيث العرار والشِّيح والقيصوم وعبيرها الذي يملأ خياشيم شعرائها، فتمتلئ نفوسهم بالشعر. ولكن الشيخ الشاعر، كان -فيما يبدو- يرى في الشعر ما رآه الإمام

الشافعي في قوله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

آراؤه:

للشيخ آراؤه السديدة في الكثير من القضايا التي شكّلتْ لديه تجارب حيّة، استخلص منها مواقف عقلية حكيمة لمصلحة الأمة في دينها الذي هو حياتها ومستقبلها.

من تلك الآراء، أنه يرى أن التأصيل والتقيّد في التصرف في الأمور السهلة، يعطي القدرة على التأصيل والعمل به في الأمور المهمة، كما كان معه في حياته العلمية والقضائية.

وكان يرى العمل بما عليه جمهور المسلمين، فأمر أن تكون صلاة التراويح عشرين ركعة والوتر، أمر بذلك الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن عتيق الذي كان قاضياً في إحدى مدن الشمال، وكان هذا القاضي، وكذلك الشيخ عبد العزيز بن باز يصليان التراويح إحدى عشرة ركعة مع الوتر.. واستجاب الشيخ إبراهيم لأمر الشيخ الذي كان يحرص على موافقة الجمهور، والبعد عن مخالفة الجماعة. ويتضح من هذا أنه كان نافذ الكلمة عند الخاصة والعامة، ولا يجرؤ أحد أن يشذّ عن فتواه، لأنهم يعرفون أيّ عالم فقيه هو، وأنه يحتاط في فتاواه، ولا يلتزم العلم بالصورة الفقهية إذا أدّت إلى نتيجة لا تتفق مع مقاصد الشريعة.

ومع أن الشيخ حنبليّ المذهب، إلا أنه لم يكن يلتزمه دائماً في آرائه الفقهية وفتاواه، بل كان يعتمد من المذهب ما قام به الدليل، فإذا رأى الدليل في غيره أرجحَ، قال به من دون حرج أو تردد، وهذا المسلك شائع في كتبه ورسائله وفتاواه.

وكان -رحمه الله تعالى- يكره الأقوال الشاذة، وينفر من أصحابها، والدعاة إليها، والمروّجين لها، ولا يرى مسلكهم هذا يؤدي إلى خير أو

رشاد، ويرى الخير مع الجماعة، ولم يكن يرى الخروج على المذاهب الأربعة، ولا يميل إلى الاجتهاد الانفرادي الذي يقع من بعض العلماء في هذه الأيام، ولهذا سعى إلى إنشاء مجلس هيئة كبار العلماء ليجنّب الناس الاجتهاد الفردي، باجتهاد جماعي يقيهم غائلة الانفراد بالآراء القاصية التي تعدّد الفتوى في المسألة الواحدة، وهذا مالا يراه الشيخ، ويكره أن يكون بين العلماء.

صفته:

كان الشيخ موفور القامة، ممتلئ الإهاب، متماسك البنية صحة وقوة ونشاطاً، أسمر اللون، عظيم الهامة، من نظر إليه احترمه وهابه.

أخلاقه وشمائله:

كان الشيخ -رحمه الله- سليم القلب، عفيف اليد واللسان، يؤثر الصمت، نَزْرَ الكلام، حتى إذا رآه من لا يعرفه، يحسبه عييّاً، لطول صمته، وحِكْمَتُه هي التي أسكتته، وإذا تكلم أوجز.

وكان هذا شأنه حتى في درسه الذي يلقيه في مسجده بين المغرب والعشاء، هذا من حسن أخلاقه، ومراقبته للسانه، وقد كان الصمت وقلة الكلام من السمات البارزة في حياة السلف، لا يتكلمون إلا قليلاً وفيما تحته عمل، فكان كلامهم نَزْراً موجزاً لا إسهاب فيه ولا إطناب، حتى في بيان العلم وشرحه.

ومن قرأ كتاب (فضل علم السلف على علم الخلف) للحافظ ابن رجب الحنبلي، و(كتاب الصمت) للإمام ابن أبي الدنيا، وكتاب (الزهد) للإمام عبد الله بن المبارك، وكتاب (الزهد) للإمام أحمد، وكتاب (الزهد) للإمام هنّاد بن السَّريّ، يجد الصمت خطيباً مرشداً في محرابه، ووجده خُلُقاً عظيماً تخلّق به الأكابر من دون الأصاغر، أولئك الذين:

إذا سكتوا رأيت لهم جمالاً   وإن نطقوا سمعتَ لهم عقولا

وكان رحيماً بأهله، محبّاً لإخوانه، ناصحاً لهم ولأولي الأمر، لا تأخذه

في الله لومة لائم مـن مسؤول، أو وجيه، أو قريب أو نسـيب، فالحقُّ، عنده كما هو عند من يخافون الله ويحترمون أنفسهم، أحقُّ أن يُتَّبع.

وكان حازماً، عفـيفاً، لا يطلب شيئاً لنفسـه من الملوك والأمراء والولاة، كلُّ طلباته بأعماله الرسمية.

وكان ذا علم واسع، وفقه دقيق، إذا تحدّث بعلمٍ حسبتَه المختص الوحيد فيه، فإذا فسَّـر مثلاً، ظننت علمه مقتـصراً على التفسير، لغوصـه في أعماقه، وكذلك سائر العلوم الأخرى التي برع فيها أيّ براعة.

وكان قـانعاً بما آتـاه الله من فـضله، يتـرفع عمـا يتـزاحم حولـه الناس، فكسـب بذلك هيـبة واحـتراماً عند ذوي الشـأن الذين يرونـه يعفّ عن الـمال العام، فلا يتقـاضى إلا راتباً واحداً من رئاسة القضاء، مع أن أعمـاله الرسمية الأخرى تزيد على عشر وظائف، ولكنه كان يحتسب الأجر عند الله تعالى.

وكان شـريف النفـس، سليم النـيّة، طاهر الـضميـر، واسع الصـدر، نقيّ القلب، نظيف اللسـان، لا ينطق إلا بما تدعو إليه الضـرورة، صادق اللهجة، وقوراً، متواضعاً للعلماء وطلبـة العلم والصالحين من الناس، لا يتكلف لأحد ولا يتصنّع، يحافظ على وقته، فلا ينفقه إلا في الأعمال الصالحة.

وكان رقـيق القـلب، سخيّ الـدمعة، شـديد المـحاسـبة لنفـسه، والـبكاء والاستغفار لذنوبه، كان يتأسّى بـرسول الله ﷺ في سائر أحواله، وتصرفاته، فهو -بأبي هو وأمي- وصحابته الكرام قدوته، لهذا كان كثير الذكر والاستغفار والمـناجـاة وهو يتـهجـد في جـوف الليـل، ويتـلو القـرآن العظـيم، في حـلّه وارتحاله، وهـو يتقي الله في سـرّه وعلانيتـه، ويتورّع عما فـيه شبهـة، وكان عظيم الاحتمال والصبر على الشدائد والأذى، صَدَّاعاً بالحق، ذا مراقبة لربّه، وخشية منه، وهو شديد الاجتهاد في سبيل الخير، ذو همّة عالية، وجدّ فائق، وإخلاص كامل، إذا غـضب فلله ورسوله، لا ينـتصر لنفسـه، ولا يثأر لذاته، ويدفع بالتي هي أحسـن، فهو سمح النفس، لا يدلّ بعلمه ومـعلوماته في كل

القضايا، وكثيراً ما يعود إلى الكتب للتثبت، ولا يرى في هذا عيباً أو نقصاً، بل يرى فيه تحرّياً وترويّاً ومزيد تأمل يفضي إلى الفهم العميق، حتى لا يصيب أحداً بجهالة، فهو يتحرّى الحقَّ ويدافع عنه، ويحكّم شرع الله في سائر أعماله، ليعصمه من الخطأ والزلل، يوطِّئ أكنافه لإخوانه، ولطلبة العلم، ويكرمهم، وحاشا أن يجدوا فيه غلظة، بل انبساطاً وسروراً وحناناً أبوياً، وكذلك كان لأهله وإخوته بعد وفاة والده عام ١٣٢٩هـ. . كان لهم بمثابة الأب الرحيم الحليم، وجعل من أخيه الشيخ عبد اللطيف مرافقاً له في الذهاب والإياب، ومعيناً له في تحضير المسائل، وإعداد الدروس، فأفاد كلٌّ منهما من أخيه، علماً وفهماً وسلوكاً وذوقاً وديناً.

وكذلك كان مع القضاة، لطيفاً في موضع اللطف، قوياً شديداً إذا استدعى الموقف شدّة، يضع الأمور في مواضعها ببصيرة وأناة، فهو حكيم ورع في تصرفاته، لا يقرّب ولا يبعد إلا بالحقّ، يعرف للناس أقدارهم، وينزلهم منازلهم، لم يزهه منصب، ولم تفتنه دنيا، ولم يغيّره سلطان، يرى العدل روح المجتمعات، وأساس الملك، فأولى شؤون القضاء عيناً ساهرة، وقلباً يقظاً لا يسهو ولا يغفل، وعقلاً نيّراً لا يخدع، حتى اطمأن الناس إلى حقوقهم، واستراحوا إلى عدل قضاتهم، فأحبّوه وأحبّوهم.

وكان يعطف على القضاة، ويدافع عنهم، ويطلب لهم ما يسدّ حاجاتهم، ويصلح أحوالهم، ويرفع شأنهم في نظر الناس مادياً ومعنوياً، ويتحدث عن مكانة القاضي في المجتمع، ويريدهم أصحاب هيبة في عيون الناس.

وكان ينصح القضاة، ويوجههم ليكونوا كباراً في واقعهم وأمام الله والتاريخ والناس، وفوق الشبهات، من مصالح شخصية وسواها مما يثلم المروءة، فكان بهذا وذاك، نعم الأب والمربي والموجه لهم.

ومع ذلك، كان الشيخ يتبسط معهم ومع تلاميذه وموظفيه المباشرين للعمل معه، كأنه أب أو أخ كبير لهم، يروي لهم النكتة ويبتسم، ويسمعها

منهم ويسرّ، من دون شطط.

وقد أعطاهم من نفسه القدوة في دأبه على العمل، فهو لم يتخلف مثلاً في إمامته عن صلاة مكتوبة إلا لسفر أو مرض، ويرونه يباشر سائر وظائفه، وهي كثيرة، في همّة ونشاط، ويرون حبَّه للخير، وتفانيه في خدمة الناس، وحبَّ الناس له، فيقتدي العقلاء والصالحون منهم به، لأنهم يرون قوة شخصيته التي كانت تذوب أمامها الشخصيات الكبيرة، نتيجة لذلك التكامل في صفاته وشمائله.

وكان الشيخ يكره أن يمدحه الناس ويثنوا عليه ويطروه، لأنه لا يريد أن يكون ممن يحبّون أن يُحمَدوا بما عملوا، ويكره المتملّقين الذين يصفونه بألقاب: شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، وما شابه ذينك من ألقاب.

وكان الشيخ ذكياً ألمعيّاً لمّاحاً، لا تنطلي عليه الحيل والألاعيب، وكان يدرك تقدير الوقت بالساعة، ولا يكاد يخطئ الحقيقة إلا في بضع دقائق، ولم يستعمل الساعة قط.

وكان الشيخ غيوراً على شؤون المسلمين وقضاياهم، تؤرقه مشكلاتهم ومآسيهم، ويتلمّس لهم العلاج فلا يجده إلا في كتاب الله وسنّة نبيّه، قضى حياته مجاهداً لخدمة أمته ودينه، وفي سبيل الصالح العام للإسلام والمسلمين، وقام بالدور الذي يجب أن يقوم به كل عالم، ولو أن علماءنا نهضوا بأدوارهم كما نهض شيخنا الإمام، لكان حال المسلمين غير حالهم اليوم.

وظائفه:

شغل الشيخ وظائف كبيرة تعجز دونها وفي حملها العصبة القوية من الرجال الأكفياء، نذكر منها:

١ - رئاسة القضاء في المملكة كلها، وإليه يرجع الأمر في تعيين القضاة وتنظيم المحاكم.

٢ - الرئاسة العامة لسائر المؤسسات التعليمية في المملكة، يشرف عليها، وينظم أمورها الإدارية والدراسية، ويختار لها الثقات من العلماء في المملكة ومن البلدان العربية. ومن هذه المؤسسات: رئاسة الكليات والمعاهد العلمية، ورئاسة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورئاسة المعهد العالي للقضاء، ورئاسة معهد إمام الدعوة، ورئاسة المعهد الإسلامي في نيجيريا.

وقد نهض بأعباء النهضة العلمية في أوساط النساء، عندما أنشأ لهنّ المدارس، وأشرف على رئاسة تعليم البنات.

٣ - رئاسة دار الإفتاء.

٤ - رئاسة المجلس العالي للقضاء.

٥ - رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي.

٦ - رئاسة دور الأيتام.

٧ - رئاسة مؤسسة الدعوة الصحفية.

٨ - الإشراف على نشر الدعوة في إفريقيا.

٩ - إمام مسجد الشيخ للفروض الخمسة.

١٠ - خطيب الجامع الكبير.

١١ - المشرف العام على ترشيح الأئمة والموظفين الدينيين، وعلى تعيين الوعاظ والمرشدين.

١٢ - رئيس المكتبة السعودية العامة التي أنشأها في حي دُخنة في الرياض عام ١٣٧٠هـ وجلب إليها نوادر الكتب والمصادر العلمية والمخطوطات القيمة من سائر البلدان العربية والإسلامية والأجنبية، ذكر الزركلي في أعلامه أنها بلغت خمسة عشر ألف كتاب من أمّات الكتب في التفسير، والحديث، والفقه، والرجال، والتاريخ، والأصول، والمصطلح، والأدب، واللغة، والشعر، وغيرها من العلوم، وصوّر لها ١١٧ مخطوطة في

حياة الشيخ.

وكان الشيخ يستعين بكبار العلماء والإداريين المخلصين في إدارة هذه الأعمال، ويعمل معهم بروح الفريق، فنجح ونجحوا في النهوض بها، لأن الشيخ -رحمه الله وأكثر من أمثاله- كان يقضي مالا يقل عن سبع عشرة ساعة يومياً في العمل وخدمة الإسلام والمسلمين، وبصورة مستمرة دائمة لا تقطعها إجازة، ولا يحول بينه وبين القيام بها أيّ تعلّة من تعلاّت الموظفين الآخرين، وخاصة (الكبار) منهم.

صلته بالملك عبد العزيز:

كان عمّه الشيخ عبد الله قد أوصى الملك عبد العزيز بابن أخيه الشيخ محمد، فهذا الشاب سيكون نابغة، وسوف يسدّ مسدَّه بعد وفاته.

وعرف الملك صدق الشيخ عبد الله، وصدق فراسته بابن أخيه الشاب، وعندما توفي الشيخ عبد الله، أسند إليه الملك سائر المهمات التي كان ينهض بها عمّه، في التدريس، والإفتاء، والإمامة، والخطابة، وأنزله من نفسه منزلة عمه الراحل، وكان في الثامنة والعشرين من العمر، فقد أحبّه الملك، ووثق به وبعلمه وعقله ودينه وأخلاقه، وجعله مستشاراً شرعياً له، يستشيره في تولية القضاة، ويصغي لآرائه في الأمور الشرعية، وانتدبه لعلاج غلاة البادية، فأرسله إلى أهل الغطغط سنة ١٣٤٥هـ لمّا غلوا في الدين، وشدّدوا فيه تشديداً ليس منه، فمكث عندهم ستة أشهر، يبيّن لهم معاني الكتاب والسنة المطهرة، ويشرح لهم عبارات رسائل علماء التوحيد والسلفية، ويدحض شبهاتهم، ويبطل ادعاءاتهم الغالية، ويوضح لهم سبيل الحق والرشاد بالحجة القاطعة، والبيّنة الواضحة، ويحذرهم من الغلو.. لقد صبر عليهم، وتحمّل جفاءهم وخشونتهم، وما زال بهم حتى عادوا إلى الطريق الصحيح. وهذا يدل على ثقة الملك بقوة عقل الشيخ، وقوة حججه وبراهينه.

وكذلك كانت ثقة الملك فيصل -رحمه الله رحمة واسعة- بالشيخ

محمد، فكان يقرّبه إليه، ويصغي لنصائحه الثمينة، ويعمل بما يقترحه عليه من أمور تصبّ كلها في الصالح العام، وليس لشخص الشيخ فيها نصيب، وعندما توفي الشيخ، كان الملك فيصل على رأس المشيعين، وفيهم الأمراء والوزراء والعلماء والوجهاء.

والملك فيصل هو الذي أمر بطبع فتاوى ورسائل الشيخ في مطبعة الدولة بمكة المكرمة.

تدريسه:

كان -رحمه الله تعالى- كسائر علماء الأمة الكبار من سلفنا الصالح، يعي الأمانة التي ناطها الله بالعلماء، بتعليم الناس أمور دينهم، فهو الوسيلة القويمة لتربية الأجيال على الاستقامة والفضيلة، فعلّم بنفسه من صدر شبابه حتى وفاته، وعلّم بغيره، ولم يدّخر وسعاً في تعليم الناس ما يحتاجون إليه من العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية، لتسلم لهم عقيدتهم من أي تحريف، ويستقيم دينهم، وألسنتهم..

كان يجلس لتعليم الصغار عقب صلاة الفجر من كل يوم، في مسجد عمه الشيخ عبد الله، فيعلمهم مبادئ النحو في كتاب الآجرومية، ثم ينتقل إلى الفئة العمرية الوسطى، فيعلمهم النحو أيضاً في كتاب قطر الندى، ويترك الصغار لمراجعة ما أخذوه، فإذا فرغ منهم أقبل عليه كبار الطلبة ليقرئهم ألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها.

وبعد فراغه من دروس النحو، ينتقل إلى درس الفقه، وكان متبحراً فيه، فالحديث الشريف، وهو فيهما كشأنه في علم النحو، يتدرج مع كل فئة حسب مستواها العلمي، وكلما انتهت حصة، باشر حصة أخرى، ثم يعود إلى منزله لأخذ استراحة قصيرة، وتناول لقيمات يقمن صلبه، ثم يعود إلى مجلسه في المسجد ليستأنف عمله في تعليم الكبار في أمّات الكتب، ثم يستريح قليلاً في بيته المجاور للمسجد، ويستعد لصلاة الظهر، فإذا ما قضيت الصلاة عاد

إلى مجلسه، وتحلّق حوله طلبة العلم، يسألونه ويحاورونه في شتّى العلوم حتى صلاة المغرب، وبعد الصلاة يأخذ في علم الفرائض والمواريث، ثم يلقي درساً في التفسير حتى العشاء التي يؤخرها ريثما ينهي درسه في تفسير الطبري أو ابن كثير..

وهكذا استمرّ الشيخ في التدريس سنوات طوالاً، لا يكاد ينقطع عنه إلا لعارض من مرض أو سفر ونحوهما، وكان طلبة العلم يقصدونه من كل مكان، لارتشاف العلم من معينه الصافي.

كان هذا قبل أن تناط به الوظائف الكبيرة، وقبل افتتاح المعاهد والكليات التي كانت بمشورته وبإشرافه، حتى إننا نستطيع أن نزعم مع القائل: ما من امرئ ذي ثقافة وعلم في المملكة، إلا وهو شيخه، أو شيخ شيخه، أو حسنة من حسناته، أو وصل إليه أثر من آثاره، وقد غدا تلاميذه كبار العلماء في المملكة وكبار فقهائها.

مجالسه:

وصف الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة مجلسه فقال:

«كان الصمت هو الأصل في مجلسه، إلا في خير أو علم، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، يدخل إلى مجلسه الزائر من كبار الأفاضل، وعلية القوم، وأنبه العلماء، فيسلّم ويقعد صامتاً بعد التعريف بنفسه، فكان الشيخ يحيّيه، ويتكلم معه كلمات باختصار وإيجاز.

وهيبتُه دفعت عن مجالسه فضول الفضوليين، وأحاديث المستثمرين، ولا يسمح فيها بغيبة أو نميمة أو تجريح، فمجالسه منزهةعن هذه النقائص، فهو ينزّه لسانه وأذنيه عنها، ويعرف جلساؤه عنه هذا، فيلتزمونه ولا يقدمون عليه.

والشيخ يصغي لمحدثه، ولكن شخصيته القوية تفرض على محدّثه ألا يطيل.

وفاته:

أصيب الشيخ بمرض في كبده أواخر شعبان ١٣٨٩هـ فسافر إلى لندن للعلاج في أوائل رمضان، وعاد منها يوم ١٨ من رمضان، ومنذ عودته وهو يعاني من غيبوبة كان يفيق منها أحياناً ليذكر الله ويستغفره، حتى توفّاه الله في الرابع والعشرين من رمضان ١٣٨٩هـ وكان عمره: ٧٨ سنة و٨ أشهر، و٨ أيام، وصُلِّي عليه في جامع الرياض الكبير بعد صلاة العصر، ودفن بعد ثلاث ساعات من وفاته، في مقبرة (العود) حيث يرقد آباؤه وجثمان الملك عبد العزيز وآبائه وزحفت حشود ضخمة لتشييعه، كان على رأسها الملك فيصل -طيّب الله ثراه- ومعه قادة المملكة من الأمراء والعلماء والوزراء وجموع غفيرة من الجماهير التي بكته بحرقة، لأنها أحسّت بفداحة المصاب به. رحمه الله رحمة واسعة.

المراجع

١ - خير الدين الزركلي: الأعلام ٥/٣٠٦- ٣٠٧

٢ - عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ: مشاهير علماء نجد: ١٦٩ - ١٨٤

٣ - عبد الفتاح أبو غدّة: تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي، في القرن الرابع عشر: ٢٥٥ - ٢٩٢

٤ - عبد الفتاح أبو غدّة: العلماء العزّاب: ٤٠ - ٤١ .

٥ - محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم: ٢/٢٤٧- ٢٥٤

٦ - محمد بن عبد الله آل الرشيد: العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ: مفتي الديار السعودية. بأقلام بعض تلامذته ومعاصريه.

✲ ✲ ✲

الإمام محمد بن عبد الوهاب
مجدد القرن الثاني عشر

تمهيد:

جاء في سنن أبي داود -رحمه الله تعالى- وفي غيره من كتب الحديث الشريف، قول الرسول الكريم ﷺ:

(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة، من يجدد لها دينها).

ونحسب أن الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب العالم الرباني الأواب، هو مجدد دين هذه الأمة في القرن الثاني عشر الهجري، عندما نهض بدعوته، وأحيا سنة نبيه، وأبطل ما علق بهذا الدين العظيم من شوائب ليست منه بل هي دخيلة عليه وعلى حنيفيته، وهي من عقائد الجاهلية الفاسدة التي لم يأل الرسول القائد جهداً في القضاء عليها، ولكن الجهلة ومن كان في مصالحه حاجة إليها وفي نفسه حنين إلى تلك العادات والعقائد والتقاليد والانحرافات، أعادوها جذعة مع الأيام فكانت أقوى من عزمات بعض المصلحين الذين تصدوا للقضاء عليها ففشلوا لأسباب موضوعية فتراكمت مع الأيام، إلى أن جاء هذا الإمام المجدد فقضى عليها من جديد، أو كاد.

بيئته:

لا يعرف قيمة دعوة الشيخ وأهميتها، إلا من عرف ما كانت عليه حال الأمة في عصره والعصور التي سبقته، فقد بلغ الانحطاط الفكري مداه في العالم الإسلامي بعد إغلاق باب الاجتهاد، وصار العلماء وطلاب العلم يعكفون على متون المتأخرين وحواشيهم، وانتشرت الضلالات، وشوهت العقيدة بما داخلها

من تشوهات قاربت شركيات الجاهلية الأولى أو كادت في نجد وسواها من بلاد المسلمين. . وانتشرت الخرافات والبدع وظنوها من الدين.

كانت الحياة السياسية سيئة وفاسدة، والحروب بين الزعامات ناشبة، والبلاد مقسمة ممزقة، قسمتها الأهواء، ومزقتها الجاهليات المستحدثة، والعلماء أنصاف جهلة وأنصاف عجزة، لا يقوون على إنكار منكر، وقطاع الطرق يعبثون بأمن البلاد، ويعتدون على حرمات العباد، ويسطون على قوافل الحجيج، يسلبونهم أموالهم وطعامهم وشرابهم، وربما حياتهم

كانت الخلافة العثمانية ضعيفة، دبت في أوصالها عوامل الضعف، وفقدت سيطرتها على أطرافها البعيدة، ولم تستطع أن تبسط سلطانها على شبه الجزيرة العربية التي تتبعها بالاسم فقط وأوربا لا تخفي أحقادها على العرب والمسلمين والخلافة، تسوقها روح صليبية لم تهدأ منذ غزوة مؤتة، مروراً بالحملات الصليبية، وحتى الاستعمار الحديث ويوم الناس هذا، وقد تستمر إلى يوم الدين، وأوروبا تطمع في تحطيم الإمبراطورية العثمانية (الرجل المريض) واقتسام تركته، والمسلمون في حالة عجز تام، فوضى في السياسة، وفوضى اجتماعية، وفوضى وانحراف في العقائد والعبادات وكل ما يمت إلى هذا الدين العظيم بصلة، وفقر، وجهل، وتخلُّف وأمراض وأهواء. .

نشأة الإمام:

في هذه البيئة المنذرة بألوان الكوارث والشرور، ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفضل ودين وقضاء في بلدة العيينة في نجد عام ١١١٥هـ - ١٧٠٣م لأب قاض فقيه، وعالم كبير، من أسرة آل مشرف التي تنتهي بنسبها إلى بني تميم، وكذلك كانت أمه امرأة فاضلة ذات عقل ودين، ومن عشيرته الأقربين.

وهكذا كانت ولادته، ونشأته في بيئة متدينة، تعنى بالعلم، وتخرج العلماء الذين يتوارثون العلم كابراً عن كابر. فجده الشيخ سلمان بن علي هو

رئيس علماء نجد، وأوسعهم علماً، وأشدهم تمسكاً بأهداب هذا الدين، حتى صار مرجعهم جميعاً، وله كتاب مشهور في المناسك، هو المعتمد في باب المناسك عند الحنابلة، وكذلك كان عمه إبراهيم بن سلمان عالماً جليلاً، وكذلك كان أخوه سليمان وخاله من علماء نجد، وكان ابن عمه عبد الرحمن ابن إبراهيم من العلماء المعدودين، وهو بالتالي، ورث أبناءه وحفدته حبَّ العلم، فكان أبناؤه الخمسة وكثير من حفدته من علماء شبه الجزيرة العربية.

أبرز صفاته:

١- الذكاء: قال عنه أخوه سليمان: (كان أبي عبد الوهاب يتعجب من ذكاء أخي محمد، فقد تعلم والدي منه، واستفاد من شدة اطلاعه، ونفاذ بصيرته، فراح يقول: لقد استفدت منه كثيراً).

٢- الزهد: الزهد بالمال، وبالمناصب التي كانت مبذولة له، ليس بينه وبينها إلا أن يقبلها ويوافق عليها، وقد تجلى زهده في المال في مواقف كثيرة، منها أن الأمير محمد بن سعود كان يأتيه بالأموال، ويضعها بين يديه فلا تمتد يده إلى شيء منها، إلا لإنفاقه على الدعوة ورجالها من المجاهدين وطلبة العلم ويكتفي هو بالكفاف من العيش، ويؤثر البعد عن المناصب.

٣- الكرم: كان رحمه الله يصرف من ماله الخاص على طلبة العلم الفقراء الذين يقصدونه من البلاد البعيدة في نجد وسواها، وقد يستدين لينفق على أولئك الطلبة، حتى أرهقته الديون، والشيخ التقي الورع لا تمتد يده إلى المال العام، ولا إلى أموال الزكاة وأموال الخمس التي أطلق الأمير محمد يد الشيخ فيها، ليتصرف بها كيف يشاء.

٤- رهافة الحس، وشدة التأثر بما يراه من معاناة الناس البائسين؛ فقد كان شديد التألم لما يرى من تعاسة الناس من أبناء القرى والأرياف والبوادي، الأمر الذي جعله يعاهد الله على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- الشجاعة والإقدام: فما كان يخشى في الله لومة لائم، يقول الحق، مهما كلفه ذلك من ثمن. . كان يمتلك جرأة في القلب واللسان واليد معاً.

٦- شدة الغيرة على الدين: جعلته وقافاً عند كتاب الله، وسنة نبيه، تقياً، ورعاً، عفيفاً، كثير العبادة، صياماً، وقياماً، وتسبيحاً وذكراً، قد وقذته العبادة، وآده حمل عبء هذا الدين، يغار عليه كما يغار على عرضه وحرماته.

٧- وكان قوي العقيدة، عميق الإيمان، على عقيدة السلف الصالح، كأنه قد جاء لتوه من عند ذلك الجيل القرآني الفريد.

٨- ذو عقل راجح، وفكر صائب، ونظر بعيد، وحجة قوية، مع حضور بديهة، يعقبها حضور الدليل، وذلاقة اللسان.

٩- المثابرة والدأب على العمل، والثبات على المبادئ، مع إخلاص أصحاب الدعوات الصادقين، لا يكل ولا يمل ليله ونهاره.

١٠- حرية التفكير: ولكن في حدود الكتاب والسنة، وهذه جعلته يخالف إمامه أحمد في كثير من المسائل.

١١- كان رجل إدارة وتدبير، يعرف كيف يصل إلى قلوب الزعماء وعقولهم بلا نفاق ولا ممالأة على غير ما يعتقد أنه الحق.

والخلاصة أن الشيخ رحمه الله تعالى كان ذا شخصية نادرة في قوتها، وصلابتها في إيمانها، وعملها، فقد حمل الشيخ أعباء الدعوة بأثقالها أكثر من خمسين سنة، وواجه بها الأعاصير التي كانت تريد أن تعصف به وبها، وتقتلعهما من جذورهما، ولكنه صمد، ولم يطأطئ لتلك الأعاصير هامته ولم يحن لها ظهراً، وبهذا وتلك، حُقَّ له أن يكون من أبرز رجال الإصلاح والفكر في العصر الحديث.

الإمام العالم:

هيأ الله للشيخ محمد أباً عالماً ذكياً، لماحاً. . لمح في طفله محمد

أمارات الذكاء والنجابة، فقرَّبه إليه، وحدب عليه، وامتحن حافظته، فوجدها حية قوية، فذاكرة الطفل محمد تستوعب ما يُلقى فيها، فحفّظه كتابَ الله المجيد، وهو لم يزل طفلاً لم يبلغ العاشرة وعلمه الكثير من علوم العربية والعلوم الدينية، والفقه الحنبلي، وحببه في العلم والعلماء، لأنه كان يرجو من ولده أن يكون عالماً مثله، ومثل جده، وقدمه ليؤم المصلين وهو ابن ست عشرة سنة، وزوَّجه وهو صغير السنّ والجسم، ولكنه رجل في عقله، وقلبه ومداركه.

وأكبَّ الفتى على مطالعة كتب التفسير والحديث، فازداد شغفه بالعلم، وعلم مما قرأ أنه لا بد لطالب العلم من الكد والتعب وتحمل المشاق في الارتحال إلى مواطنه، حيث العلماء والعلم، فقرر الشيخ الشاب الحج إلى بيت الله الحرام، وبعد أداء فريضة الحج، جلس إلى بعض علماء مكة المكرمة، وأفاد شيئاً منهم، ثم رحل إلى المدينة المنورة، وأقام فيها شهرين، وجالس علماءها، وأفاد الكثير منهم، وخاصة من شيخيها: محمد حياة السندي، وعبد الله بن إبراهيم الشمري المدني الذي قال له مرة:

- ألا تحب أن أريك سلاحاً أعددته لبلدي؟

قال الشيخ: بلى. . . فما هو؟

فأدخله الشيخ منزلاً عنده فيه كتب كثيرة، وقال له:

- هذا هو السلاح الذي أعددته لها.

وفهم الشيخ ما يريده منه وله أستاذه، فصمم على امتلاك هذا السلاح الماضي الذي غفل عنه المسلمون زمناً، فذلوا، وهانوا، وضعفوا واستكانوا.

ثم توجه إلى البصرة للاستزادة من العلم، وقرأ على علمائها، وخاصة عالمها الشيخ محمد المجموعي، فقرأ عليه الحديث واللغة، وأفاد منه ومن أولاده علماً غزيراً.

ولكن أهل البصرة ضاقوا به وبآرائه ودعوته التي بدأ يصرح بها، فأخرجوه منها في يوم شديد القيظ، حتى كاد العطش يقتله، لولا أن تداركته رحمة ربه، فأرسل إليه مكارياً حمله على حماره إلى بلدة الزبير، وأنقذه من الهلاك.

ثم عاد الشيخ إلى نجد، إلى بلدة حريملاء، حيث والده، ليستأنف القراءة على أبيه، ويلتهم كتب التفسير والحديث وأصول الدين، وكتب شيخيه الأثيرين: ابن تيمية الذي كان إمامه ومرشده وباعث تفكيره، والموحي إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح، وتلميذه العظيم ابن القيم، وليباشر في نسخ الكتب العلمية... كان ينسخ عشرين صفحة في الجلسة الواحدة.

تعلق الشيخ بعلم الحديث، وقرأ كتبه، ودروس السيرة النبوية المطهرة، والتاريخ الإسلامي، كما اطلع على ثقافة عصره، عربية وإسلامية، الأمر الذي جعل منه عالماً متبصراً، وإماماً متحرراً، ومصدراً علمياً في المعارف والعلوم الشرعية.

ومن أقواله:

علم -رحمك الله- أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

والثانية: العمل به (أي بما تعلمنا من أمور ديننا).

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر عليه.

كتبه:

لم يعن الشيخ بتأليف الكتب لأنه كان معنياً بتأليف الرجال، وبناء العقول والقلوب لتكون مؤهلة لنشر الدعوة وحمل أعبائها، والدفاع عنها، والذود عن

مرتكزاتها، وترك التأليف لغيره من العلماء من تلاميذه، وأصحابه، وأبنائه، وقد بنى دولة وأرسى أسسها على الدعوة، لتكون دولة الإسلام التي غربت شموسها منذ قرون، بعد أن خذلها القائمون على شؤونها، فباؤوا بالخزي في الدنيا والآخرة.

ومع ذلك، ترك الشيخ عدداً من الرسائل والكتب القيمة التي ألف بعضها واختصر بعضها الآخر من الكتب المعتمدة في المذهب الحنبلي، كتبها بأسلوب واضح، لا غموض فيه ولا تقعر، لأنه أراد بها نشر أفكاره ودعوته، ولم يرد الشهرة والذكر، ومن هذه الكتب والرسائل:

١- كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

٢- كشف الشبهات.

٣- الأصول الثلاثة وأدلتها: (معرفة الربّ -معرفة دين الإسلام- معرفة الرسول ﷺ).

٤- شروط الصلاة وأركانها.

٥- القواعد الأربعة.

٦- أصول الإيمان.

٧- كتاب فضل الإسلام.

٨- كتاب الكبائر.

مذهبه الفقهي:

كان الشيخ رحمه الله تعالى، حنبلي المذهب في الفروع الفقهية، لكنه إذا وجد حديثاً صحيحاً يخالف مذهب الحنابلة أخذ به، قال:

(وأما مذهبنا، فمذهب الإمام أحمد بن حنبل، إمام أهل السنة والجماعة في الفروع، ولا ندعي الاجتهاد، وإذا بانت لنا سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ، عملنا بها، ولا نقدم عليها قول أحد، كائناً من كان) الهدية السنية ٩٩.

ولكن الشيخ ما كان يجبر أحداً على اتباع المذهب الحنبلي، بل إنه يطلب من الشافعي أن يكون شافعياً، ومن الحنفي أن يكون حنفياً، يقول:

(ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة).

و(إذا صح لنا نصّ جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة، أخذناه وتركنا المذهب).

العقائد:

وفي باب العقائد كان على مذهب السلف، وهو إقرار ما ورد من صفات الألوهية في القرآن والأحاديث الصحيحة كما ورد، والتسليم به، والإيمان بظاهره مع نفي الكيفية، وهذا هو مذهب أئمة الإسلام جميعاً يقول:

(عقيدتنا في جميع الصفات الثابتة في الكتاب والسنة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، نؤمن بها ونقرها كما جاءت مع إثبات حقائقها وما دلت عليه، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تعطيل ولا تبديل ولا تأويل).

الهدية السنية: ٩٩.

اهتم الشيخ اهتماماً كبيراً بقضية التوحيد، وكتبه كلها ليس فيها إلا التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله تعالى وحده، واجتناب الشرك. قال الشيخ رحمه الله تعالى:

(إن التوحيد هو عماد الإسلام الأكبر، وقد ضاع في زماننا هذا، وتداخل به الفكر الفاسد، فهو الاعتقاد بأن الله عز وجل هو خالق الدنيا، وباسط شأنه عليها، ورازق عباده، وواضع قوانينه التي تسيرها، والمشرع لها، ليس لمخلوق شركة في ذلك، فهو واحد أحد، فرد صمد، ليس في حاجة لمعين، فهو المستعان، هو حاكم هذا الكون بما أنزل من تشريع وديانات، وكتب ورسل، وهو النافع، بيده النفع والضر، لا شريك له، وإن كلمة لا إله إلا الله، تنزه الخالق عز وجل عن وجود سلطة تسير الدنيا غيره، هو عز وجل الخالق البارئ المصور).

مسار الدعوة:

رأى الشيخ كثيراً من البدع السيئة في بلدته (العيينة) وفي المدينة المنورة كما رأى في البصرة بدعاً كثيرة أنكرها عليهم، وجادلهم فيها، ونهاهم عنها، وألف كتابه (التوحيد) ليردع الجهلة والبدعيين، ويدعوهم إلى تصحيح العقيدة، وخلوص العبادة لله، فآذوه وطردوه. وعندما عاد إلى أبيه، وقص عليه القصص، نهاه أبوه عن الشدة على الناس.

وفي عام ١١٥٣هـ - ١٧٤٠م توفي أبوه، وبعد وفاته بقليل، جهر الشيخ بدعوته، واشتهر أمره، وذاع صيته، فوفد عليه الناس، وشرعوا يقرؤون عليه التفسير والحديث والتوحيد والسيرة والفقه.

وعندما كثر أتباعه، صار ينكر ما يراه مخالفاً للدين، ثم انتقل إلى مدينة العيينة، أكبر المدن النجدية، وأكثرها سكاناً، وصار له شأن فيها، بدعم من أميرها، فانطلق يحارب كل ما يراه بدعة شركية فقطع الأشجار المعظمة، وكسر الأحجار المقصودة، وهدم القباب المشيدة على القبور.

وفكر الشيخ بتوحيد بلاد نجد، وهذا لن يكون إلا بوجود قوة مادية تعينه، فالحق الذي لا تدعمه قوة لا يثبت أمام الأعاصير، والله سبحانه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، إذن لا بد من التفاهم مع أمير من أمراء نجد يحميه ويتبنى دعوته وكان هذا الأمير هو محمد بن سعود الذي كان معروفاً بأخلاقه النبيلة، إذ سارع إلى لقائه، وكان لقاء تحفه بركة الإخلاص والصدق في لهجة الشيخ الذي انطلق يشرح للأمير أصول دعوته من أمر بمعروف، ونهي عن المنكر، وجهاد باللسان والسنان.

كان الأمير يصغي إليه بعقله وقلبه، واستوعب هذه المعاني، وقال للشيخ:

(أبشر أيها الشيخ بالمنعة والنصرة).

فأجابه الشيخ:

(وأنا أبشرك بالأجر والعز والتمكين والغلبة، فكلمة التوحيد، من تمسك بها ونصرها، أيده الله في الدنيا، ومكنه وأجزل أجره في الآخرة).

وتعاهد الشيخ والأمير على المضي قدماً في هذا السبيل، وكان عهداً مباركاً جعل الناس يتوافدون على الشيخ الذي انتقل إلى الدرعية مدينة آل سعود، وانتقل معه عدد من أصحابه وتلاميذه الذين وجدوا في الدرعية الأمن والعلم والدين والجهاد، كما توافد إليها المخلصون من شداة العلم من البلدات والقرى القريبة والبعيدة، حتى اتسعت الدرعية، وصارت عاصمة نجد، تضج بالحياة والأحياء من طلاب العلم والحرفيين، وصارت قبلة النجديين الذين تحرك فيهم حب العلم والخير، فبادروا إليها، تاركين أوطانهم وما يشدهم إليها من أهل وعشيرة ومصالح.

وتحرك الجهلة والأشرار وأصحاب المصالح، فافتروا على الشيخ ودعوته.

وكانت حروب، وكان كر وفر، وكان نصر الله يتنزل على جنده الدعاة المخلصين حتى إذا دانت أو كادت (نجد) تدين لدعوة الشيخ، انطلق الشيخ بدعوته إلى خارج نجد، وكاتب العلماء والقضاة والأمراء، وشرح لهم أصول دعوته.

واستجاب من استجاب، ممن كتب الله له السعادة في الدارين، وتجافى عنها وتناءى من غلبت عليه شقوته، أو مصالحه، أو جهالاته، من الأمراء، ومن علماء السوء الملتصقين بأولئك الأمراء، ومن الأدعياء وجهلة المتصوفة، ولكن نصر الله وتوفيقه كانا حليفي الشيخ وحلفائه من الأمراء السعوديين، وكان الله بالمرصاد لأولئك المتربصين بالشيخ ودعاته، فأخزاهم، وكشف عوارهم، وأعز جنوده المؤمنين المخلصين الذين عملوا لنشر الدعوة في كثير من بلاد العرب والمسلمين الذين تأثروا بها، وتبنوها وعملوا على انتشارها حيث كانوا.

وما كان هذا النصر والانتشار والتمكين إلا نتيجة طبيعية للجهود الجبارة التي بذلها هذا العالم الرباني الذي لم يكن يوماً مبتدعاً فيما يدعو إليه، بل كان متبعاً لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من الأئمة والأعلام.

وبانتشار الدعوة، وبسط دولتها ونفوذها في نجد والحجاز، انتشر الأمن، وقلت السرقات، وتوارى الفجور، واختبأ معاقرو الخمور، وأمن الناس والحجيج على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

أعداء الدعوة:

أوذي الشيخ في الله، ولقي الألاقي من أجل دعوته، ولكنه صبر وصابر، وثبت على الحق، ولم ترهبه المحن، ولا خشي جبروت الطواغيت، فالمال، والراحة، والوقت، والجهد، والدماء تهون في سبيل ما انتدب نفسه له، وتصدى لتجليته، إنها العقيدة، وإنها جنة أو نار، إنه دين الله وما أهون البذل في سبيل هذا الدين عند الصالحين والصديقين من أمثال الشيخ وشيوخه: أحمد الإمام الممتحن، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام العالم الجليل ابن قيم الجوزية، ومن قبلهم سيد الخلق وإمام المجاهدين الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه ومن بعدهم، شيخه المجموعي الذي أوذي بسببه.

وكان أعداء دعوته أصنافاً:

- فهناك الجهل بحقيقة هذا الدين من بعض العلماء الجامدين وبعض الصوفية الجهلة.

- وهناك أصحاب المصالح من بعض العلماء، وشيوخ القبائل والأمراء.

- وهناك العثمانيون الذين رأوا في حركة الشيخ ثورة عليهم، وانتقاصاً من نفوذهم وسلطانهم، وخاصة بعد استيلاء الدولة الوليدة على مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وفيهما الحرمان الشريفان اللذان تهوي إليهما قلوب المسلمين.

- وهناك الدول الأوربية التي كانت تتطلع إلى منطقة الخليج العربي، من أجل احتلاله، وانتهاب ثرواته، وانتقاص الدولة العثمانية من أطرافها، تمهيداً للإجهاز عليها، وتقسيمها. رأت أوروبا في الحركة (الوهابية) كما أطلق عليها أعداؤها -عملاً سياسياً خطيراً، فهي إيذان بظهور قوة جديدة يمكن أن تسيطر على المنطقة؛ ولهذا أغرت أوربا الحاقدة، الدولة العثمانية الغارقة في التخلف والجهل، بها. . فبادر العثمانيون إلى شن الحروب عليها، قادها محمد علي باشا والي مصر، فانهزم أمامها ثم هزمها، وكاد يقضي عليها كواقع سياسي، ولكنه لم يستطع فعل الكثير من أجل الحد من امتداداتها الدينية والفكرية في أعماق العالم الإسلامي.

لقد كانت دعوة الشيخ وحركته كما وصفها الشيخ مناع القطان (بدء يقظة كاملة في العالم الإسلامي، تعمل على سيادة مبادئ الإسلام الصحيحة، والقضاء على البدع وأوضاع الحياة الفاسدة، وتأسيس دولة إسلامية، وتكوين حكومة صالحة تحكم بمبادئ الإسلام، وتنفذ أحكامه، وتقيم حدوده).

وكما قال الأستاذ أنور الجندي:

(كانت حرباً على الاستبداد والجمود، والتقليد، في مختلف ميادين السياسة والاجتماع والدين).

وكما قال الأستاذ علال الفاسي:

(كانت ترمي إلى تطهير الدين من الخرافات، والعودة إلى روح السنة المطهرة، من أجل تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام المتكفل بصلاح الأمة في دينها ودنياها).

وفاته:

توفي الشيخ محمد في شوال ١٢٠٦هـ - حزيران ١٧٩٢ ودفن في مقبرة الطريف في الدرعية، بعد أن عمل في الدعوة أكثر من خمسين سنة، بذل فيها قصارى جهده، وكل ما لديه من إمكانات مادية ومعنوية، ترك الدنيا وما فيها

لأهلهـا، وزهد بمـا في أيدي الـناس، وما يـقتـتل حولـه سائر الـناس. . ترك المال، وزهد في المناصب، وورث أبناءه حـب العلم والدين والزهد بما لدى الناس والحاكميـن، ولو أراد منصباً لنفسه أو أولاده لبادر الأمـير محمد، ومن بعده الأمير عبد العزيز لتلبية رغـبته، وتنفيذ إرادته، ومنحه وأولاده ما شاء من المنـاصب، ولأعطوهـم من الأموال مـا يجعـلهم في عـداد الأغنيـاء الأثرياء، ولكنه وأبناءه كـانوا عازفين، عن كل هذه الـمغريات، كانوا راغبـين في الله، وفي نصرة عقـيدة الإسلام، وبتنقيتـها مما علق بها من أوهـام وأساطير وبدع، لتعود العقيدة إلى أبنائها نقية مـن كل شائبة، صافية من أي كدورة، سليمة من أي تشويه، وبهذا فاز وفازوا، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

المصادر والمراجع:

١- الأعلام: للزركلي.

٢- محمد بن عبد الوهاب: مصلح مظلوم ومفترى عليه: لمسعود الندوي.

٣- علماء نجد خلال ثمانية قرون: عبد الله آل بسام.

٤- زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين.

٥- الدعوة إلى الإسلام: مناع القطان.

٦- سلسلة أعلام العلماء: عبد المنعم الهاشمي.

٧- تراجم الأعلام المعاصرين-ج٢: أنور الجندي.

٨- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي: علال الفاسي.

٩- مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب - قسم الفتاوى: ٨٦.

١٠- موسوعة الزاد بإشراف الدكتور بهيج ملا حويش.

١١- الموسوعة العربية الميسّرة: بإشراف شفيق غربال.

١٢- ذكريات علي الطنطاوي- ج٨.

* * *

الفهرس